المُوشَّوُرُ

الموشور-١

Copyright©2015 Dar al-Nile
جميع الحقوق محفوظة، ولا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو نقله بأي شكل أو بأية وسيلة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير الفوتوغرافي أو التســجيل أو وســائل تخزين المعلومات وأنظمة الاســتعادة الأخرى بدون إذن كتابي من الناشر.

الترقيم الدولي

ISBN: 978-977-6183-72-8

رقم النشر

1026

دار النيل للطباعة والنشر

الإدارة: 22 جـ- جنوب الأكاديمية- التسعين الشمالي - التجمع الخامس- القاهرة الجديدة - مصر
Tel & Fax: 002 02 26134402-5
Mobile: 0020 1000780841
E-mail: info@daralnile.com
www.daralnile.com

القاهرة - 2015م

الموشور

(١)

تأليف

محمد فتح الله كُولَنْ

ترجمة

د. عبد الرازق أحمد محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس

تقديم ٩

الفصل الأول

المنظور

العنايةُ الإلهيّةُ ودوامُها ١٩

الفكر والحركة بمقوِّماتهما الأساسية ٢٥

التواضـع والتفاني في خدمة الدِّين ٣٠

رُكن الاستغفار في الخدمة ٣٥

كيمَا يستمرُّ اللطف الإلهي ٣٨

أسلوبنا أمام السلوك العدوانيّ ٤٢

بين واقعنا ووقائـع التاريخ المتكرّرة ٤٦

الفصل الثاني

البُعد الفكري

النظام العالمي ٥٣

نفحات البعث في العالم ٥٨

التاريخ في دورانٍ دائمٍ ٦٢

حياتنا الثقافية ومتطلباتها ٦٨
وعي الصحابة ٧٦
وجهة نظرنا إلى الماضي ٨١
آلِيَّتان في الإنسان: النفس والضمير ٨٨
أسلوب النقد ٩٤
الإسلام والحركات الانفعالية ٩٩
عالمية الإسلام ١٠٣
عناية الرسول ﷺ بأصحابه رضي الله عنهم ١٠٨
الاستعداد لحضور مجالس العلماء ١١٥
أولمبياد العلوم ١٢٢
وضعُنا المؤسف وسُبل الخلاص منه ١٢٧
توحيد الأديان(!) ١٣٢

الفصل الثالث

حول محور الدِّين

العمل بالرؤيا ١٤١
سبل الخلاص من الذنوب ١٤٦
رسولنا والوفود الزائرة ١٥٢
مسألة المساواة بين الرجل والمرأة ١٥٧
مصعب بن عمير رضي الله عنه ١٦٢
نبذة عن الشيطان ١٦٦
تغييرُ المنكر ١٧٩
الإرادة والامتحان ١٨٣
العبادات المالية والبدنية ١٩٢

الفصل الرابـع

المِجهر

الدين والحكمة والقوة ٢٠١
عوائدُ الكَرَم.. ٢٠٧
مجتمـع المعرفة ٢١٤
الربانيّون ومجالس العلم والذكر ٢٢٠
اللطف الجبري وأبعاده.. ٢٢٧
قوة الإيمان ٢٣٢
فداءً للحق ٢٣٤

الفصل الخامس

النوازل

المذابح العصريّة ٢٤١
الحرب المتوقعة بين أمريكا واليابان.................................. ٢٤٥
دلالات الكوارث السماوية ٢٥٠
ما وراء جرائم القتل.. ٢٥٥
مصادر ٢٦٠

تقديم

"العلـوم الاجتماعيـة" بوصفهـا علمًـا ومصطلحًـا هي مـن أكثر المواضيع نقاشًـا في القرن المنصرم، ويـرى بعض الكتاب الغربيين أنها تأثرت كثيرًا بعلوم الطبيعة التي علا شـأنها سـريعًا في نهاية ذلك القرن، وفقدت أشـياءَ كثيـرةً من ماهيتها؛ فعَدُّوا نعتها باسـم "العلوم الاجتماعية" خطأً، بل أبانوا عن آرائهم تلك صراحةً فقالوا: إن العلوم الاجتماعية انسـلخت من الأفـكار والأيديولوجيـات، واتجهت إلى الظواهر؛ فالأولى عندهم إطلاق اسـم "العلوم المعنوية والسياسـية" على هذه العلوم التي تُعنَى بالظواهر.

ونـرى أنّـه لا يعنينـا مـا يـدور فـي الغرب مـن مناقشـات ونقد لمصطلـح "العلوم الاجتماعية"، والأهم هو تقويم ماهية تلك العلوم وجوهرها الذاتـي وآثارها العملية؛ فإن في العلوم الاجتماعية فروعًا كثيـرةً مـن العلـم مثـل: الديـن والتاريخ والقانـون والسياسـة وعلم الإنسـان "الأنثروبولوجـي" والاجتمـاع والنفس... إلـخ؛ ولكنها في رأي بعضهم أبعد ما تكون عن صفة "العلمية"، و"أحكام القِيمة" وعن "المبـادئ العظيمة" التي من شـأنها أن توسِّـع دائرة الأفق الإنسـاني لتبلـغ به الخاتمة الحسنى.

ولا يمكن القول بأنَّ بلادنا اليوم خالية من هذا الضرب من المناقشات؛ إنها لم تكن مناقشات فحسب، بل إن رجال الدولة شرعوا في تطبيقات قائمة على أحكام القيمة وعنوا بالعلوم الطبيعية وأغفلوا العلوم الاجتماعية؛ من ذلك أنّ مركز البحوث والتقنيات العلمية التركية "تُوبِيتَاكْ (*TÜBİTAK*)" اختار الفروع العلمية الطبيعية كلّها مثل الكيمياء والرياضيات والأحياء مجالًا للبحث والتخصص، وقصر عليها بحوثه التي أجراها، ومشاريعه التي افتتحها، ومسابقاته العلمية التي أعلن عنها، ومجلاته التي أصدرها، ومِنحه التي قدَّمَها، ودورات التقوية التي نظمها، ولما جاء من ينادي بافتتاح قسم للعلوم الاجتماعية في مركز "توبيتاك" عارضوه وحالوا دون افتتاحه؛ ولن نقف هنا عند العوامل الباعثة على هذا التوجُّه؛ فلعلّ أقسام العلوم الاجتماعية في جامعات اليوم قد عجزت عن تقديم ما كان مأمولًا منها، ولم تَجرِ بها أبحاثٌ ولا رسائل علميةٌ جادّة بقدر ما أُجريت في ساحة العلوم الطبيعية، أي إنهم لم يقدروا على إثبات أنفسهم بأي شكلٍ مقارنةً بغيرهم؛ وإذا ما نُظر إلى الأمر من هذه الزاوية فقد يكون رجال الدولة مُحِقّين في موقفهم من هذه العلوم.

وثمة حقيقة لا قِبلَ لأحد بأن يغض الطرف عنها ألبتة، وهي أن العلوم الاجتماعية في العالم أجمع سجلت تقدُّمًا كبيرًا في معظم المجالات، وأصبحت تحظى في أيامنا هذه باهتمام كبير في العالم كلّه تقريبًا كما كانت العلوم الطبيعية إبّان الثورة الصناعية؛ فقد خصصت الحكومات اعتمادات مالية ضخمة من ميزانياتها لدعم

مشاريع في هذا الصدد، وأنشأت المعاهد البحثية، وجمعت العلماءَ الذين نذروا حياتهم لهذه الغاية عبر عدة مؤتمرات سنوية كبرى دَورِيَّة واستثنائية، فأتاحت لهم الفرصة لتبادل الأفكار والآراء في هذه الساحة.

وفي هذه المرحلة ثمة أشياء كثيرة يجب الاضطلاع بها، فعلى مؤسسات الدولة المسؤولة أن تقوم بإنشاء عدة منظمات لإعداد وتأهيل من يقدرون على إنتاج نظريات كبرى، وصياغة مفهوم اجتماعي عادل ينبثق عن خططهم ومشاريعهم وأبحاثهم، وإن لم يتحقق هذا عمليًّا فنظريًّا على الأقل، ويكشفون بطريقة علمية عن حقيقة تثبت أن العلوم الاجتماعية والطبيعية تكمل إحداهما الأخرى، وينبغي أن تُقدَّم كلُّ أنواع الدعم الماديّ والمعنوي لتلك الخطط والمشاريع، فإن عجزنا عن إنتاج مشاريع مستقبلية فلن نستطيع أن نخلع عباءة العالم الغربي؛ ومعلوم أن انقيادنا للعالم الغربي في مجالات عدّة بلغ أعلى مستوياته فعلًا، وإذا ما أضيفت إلى هذا خطط الغرب المستقبلية وأتيحت الفرصة لتطبيقها، فلربما وقع العالم الإسلامي في أسْرٍ جديدٍ يتعذر معه أن ترتفع له هامة مرةً أخرى.

وكتاب "المَوْشور" هذا لأستاذنا محمد فتح الله كولن أجوبة مرتجلة على أسئلة جاءته في أوقات مختلفة ولذا يمكننا أن نعدّه توليفة من مثل هذا الفكر البديل.

ويتكـون هـذا الكتـاب مـن خمسـة أقسـام: "المنظـور" و"البُعد الفكري" و"حول محور الدين" و"المِجْهر" و"النوازل".

المنظور: هو قسـم يحفل برسـائل ذات مغزًى عميق موجهة إلى أربـاب المسـتوى الذيـن يحاكون الصحابـة الكرام ﷺ فـي رغبتهم بكشـف الطريق أمام البشـر جميعًا؛ لينعموا بالراحة والسعادة والجنة والجمـال الإلهـيّ؛ ويوجه القلـوب إلى **الله** ﷻ والأنظار إلى رسـوله ﷺ وإلى الوسـائل التي تسـهم في خدمة هذا الدين، ويتناول مسـألة الحركـة والعمـل أهـم المقومات الأساسـية للدعـوة، ويقـدِّم أحيانًا المعاييرَ المناسبة للاقتراب من الناس لا سيما ذوي السلوك العدائي، ويكثر فيه الحديث عن موازين الخدمة الإنسانية، ويحذّر أيما تحذير من الانزلاق في فجوات عقلية ومنطقية؛ وهاكم فقرات من ذلك:

"سـلوك المؤمن مهمٌّ جدًّا؛ فهو إنسـان تأدّبَ على مائدة الأدب النبـويّ، فـلا يمكـن أو لا يُتوقَّـع ألبتـة أن يخرج عن دائـرة الأدب واللطـف والنزاهـة، فـكلُّ سـلوك يصـدر عنه سـيُعزى تلقائيًّا إلى الإسـلام، فعليه أن يحافظ على سـلوكه الذي صاغته التربية الإسـلامية على نحو يليق بالمسـلم دون تغييـر قِيـدَ أنملـة حتـى وإن كان فـي مواجهة أكفـر القلوب وأقسـى الحـوادث، ولـو تأمّلنا حيـاة سـيدنا ﷺ للاحظنا أنه لم يغيّر معاملته حتى مع أبي جهل؛ وعلى ذلك فإن أغضَبَنا شيء ما فليكن أسلوبنا إسلاميًّا".

"كلَّمـا حقّقنـا نجاحًـا واضطلعنـا بمهـامّ أكثـر ينبغي أن تـزداد عباداتنا وتواضعنا بقدر ما حققناه؛ لئلا ننسـحق تحت

أنفسـنا فنهلك، كان الإمام الرباني السرهندي يرى نفسه دونَ الكلب. نعم، لا بد أن يترسخ هذا المعنى في أرواحنا ليكون لسـانَ حالنا على الدوام، كان رسـولنا ﷺ يدعو في سـجوده صبـاح مسـاء منيبًا لربـه: "**يَا حَيُّ يَـا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْـتَغِيثُ أَصْلِـحْ لِي شَـأْنِي كُلَّـهُ، وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِـي طَرْفَةَ عَيْنٍ**"(١)، ولطالما كان يضرع خاشـعًا بهذا الدعاء، فلنكرره، ولا يركننَّ امرؤ إلى نفسه ولو لحظة.

علينا أن نرى أنفسـنا مصدر كلِّ عيب، وأنها العائق دون أداء الخدمة؛ وأن أي نجاح إنما هو فضل إلهي، فلننسب ذلك إليـه ﷻ لا إلى أنفسـنا. أجـل، إن قولك: "عملـتُ، وفعلتُ، ونفّـذتُ، وأنجـزتُ" منطق فرعوني، فهذا قـارون قد ظنّ أن مـا لديه من نِعَم إنما كان بعلمه هو: ﴿**قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي**﴾ (سُـورَةُ القَصَـصِ: ٢٨/٧٨)، وكذا كلّ الفراعنة قالوا مثلما قـال؛ أما الرسـل جميعهم ورسـولنا ﷺ فتمثّلـوا قوله تعالى: ﴿**قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا**﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ٧/١٨٨).

لاحظـوا ما يقوله رسـولنا ﷺ: "**فَـوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُـلًا وَاحِـدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَـكَ حُمْرُ النَّعَمِ**"(٢)، ولو أنَّ مليون إنسـان اهتدوا على أيديكم، وبواسـطتكم أنتم، فإن ظننتـم أن هـذا من عند أنفسـكم، فربما تغـدو هدايتكم لهم سـببًا في دخولكم جهنم لا الجنـة؛ إن البيان القرآني واضح

(١) **مسند البزار**، ١٣/٤٩؛ النسائي: **السنن الكبرى**، ٩/٢١٢؛ الطبراني: **المعجم الصغير**، ١/٢٧٠؛ الحاكم: **المستدرك على الصحيحين**، ١/٧٣٠.

(٢) **صحيح البخاري**، فضائل أصحاب النبيّ، ٩؛ **صحيح مسلم**، الفضائل، ٣٤.

في هذا، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (سُورَةُ الصَّافَّاتِ: ٩٦/٣٧)، فما لنا من الخير إن كان الأمر كذلك؟ ليس لنا سوى عجزنا وفقرنا. أجل، إن طريقنا إلى قدرته هو عجزنا، وإلى غناه فقرُنا، فإن زاد شكرُنا له وواصلنا العمل في سبيله بشوق استمرت مظاهرُ الإحسان هذه ودامت"..

البعد الفكري: في هذا القسم مواضيع كثيرة بدءًا من حياتنا الثقافية إلى مفهوم "الدين من أجل الدولة، والدولة من أجل الدين"، ومن الآليات النفسية والوجدانية إلى الأنظمة القائمة، وفيه الحركات الرجعية المتقمصةُ لباسَ الإسلام، والاتجاهات المطالبة بتوحيد الأديان، أضف إلى ذلك التعرف على وجهة نظر المؤلف في المشكلات اليومية ومظاهر خلفياتها.

حول محور الدين: هذا القسم يُضفي وضوحًا على مواضيع مختلفة عانى كثيرون زمنًا طويلًا في فهمها وإدراكها لملابستها لتفاسير ورؤى متباينة تشوّش الأذهان؛ من ذلك قضيةُ الرؤيا. نعم، معروف أنها ليست من طرق المعرفة إلّا أن منزلة العمل بالرؤيا في الدين أو التوفيق بين الرؤيا والحقيقة من المواضيع المطروحة للنقاش اليوم؛ ففي هذا القسم ضوابط خاصة لهذه القضية؛ وفيه مواضيع أخرى مثل المعصية والتوبة والشيطان... إلخ، ورب قائلٍ للوهلة الأولى: إنها موضوعات تقليدية! لكنه إذا ما تأمّل جِدَّة أجوبتها لعله يقول: "كأنها أول مرة تُطرَح فيها حلول لهذه المسألة".

المِجْهر: معلوم أن المجهر عدسة تُظهر الأجسام أكبر مما هي عليه؛ ففي هذا القسم أمور تكلم عنها أستاذنا شفهيًّا أو كتابةً سابقًا، وأسئلة أُعيد طرحها عليه مع أجوبة مفصلة عنها، ومن أمثلة ذلك: "ترون ثمة ثلاثة عناصر مهمة تُحيي الأمم: الدين والحكمة والقوة؛ فليتكم تبيّنون لنا هذا؟" و"ما معنى "مجتمع المعرفة" في هذه المقولة: "إن احتضان المستقبل لا يكون إلا من مجتمع المعرفة"؟".

النوازل: في هذا القسم أجوبة عن الحوادث المستجدّة، ففيه رسائل للقانطين الذين شعروا أنهم عاجزون عن فعل أيّ شيء يشفي الصدور إزاء حرب البوسنة والهرسك، ويئنون أَلَمًا وضجرًا تحت وطأة هذا الشعور، وفيه تقييم من زوايا واسعة للحرب الأمريكية اليابانية المحتملة التي رسمت لها عدة سيناريوهات، والجنايات التي ارتكبتها بؤر الشر، والألاعيب التي تحاك حول أمتنا.

المَوْشور؛ اسم يطلق على الأجسام المصنوعة من مادة شفافة تعكس الأشعة حولها وتحللها، وإذا ما انطلقنا من هذا التعريف بدا لنا واضحًا جدًّا أن هناك علاقةً وصلةً وطيدةً بين محتوى الكتاب واسمه؛ فالمَوْشور كتاب أُختزلت فيه وفقًا لمعيار عقول المخاطبين المعارفُ الوهبية أو الكسبية الشبيهة بأطياف الضوء؛ فصُنفت وروعي فيها عنصر الزمان والمكان والإنسان؛ فهو بهذا يقوم بوظيفة العكس والتحليل، مثله مثل المَوْشور الحقيقيّ، غير أنه لا ينبغي أن ننسى أنَّ "فيوضات كلّ إنسان تأتي على حسب استعداده".

نعـم، كمـا بيّنـا فـي البدايـة ثمـة كثير مـن المواضيع فـي علوم مختلفة يتم تسـليط الضـوء عليها، مثل: الديـن والتاريخ والاجتماع وعلم النفس والسياسية وغيرها، وتُوضَّح طبعًا بقدر ما تتيحه طريقة السـؤال والجـواب في كتاب المَوْشـور هـذا الذي يقـدّمُ وجهة نظر جديدة ولو إجمالًا.

وقـد جمعت هذه المقالاتُ من أحاديث أسـتاذنا محمد فتح الله كولن، وفُرِّغت في كتاب، وجاء تقسيم هذا الكتاب كما عرضته سابقًا في إطار توجيهاته وتعديلاته هو أيضًا، فالكتاب الذي بين أيديكم هو أول كتاب في هذه السلسلة، ويليه كتاب ثانٍ وثالث إن شاء الله...

والآن إذ أتـرك القارئ مع الكتاب؛ نسـأل المولـى أن يبارك في عمـر أسـتاذنا وأن يمتعه بتمام الصحـة والعافية والسـلامة، وأن ينير عالمنا الروحي والفكري بكتب كهذه، وأن يغمرنا سبحانه بعنايته.

٢٢ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٩٥م

أحمد قُورُوجَانْ

الفصل الأول

المنظور

العنايةُ الإلهيّةُ ودوامُها

سؤال: وهبنا الحق تعالى كل ما يمكِّنُنا مـن خدمة ديننا في وطننا وخارجـه، فبِمَ توصون لئلا ينقطع ما في هذه الخدمة من العناية الإلهيّة والبركة الربانية؟

الجـواب: أجـل، واضح أننا جميعًا على درايـة بذلك؛ فبينما كنا بالأمس نتخبط هنا وهناك، إذ به سبحانه يأخذ بأيدينا جميعًا إلى نقطة معينة بفضله وكرمه.

بـادئ ذي بـدء لا بـد أن نرى الأمر هكذا ونـدرك أننا في رحاب العناية الإلهية، لقد بَدَأ هذا الأمر بإخلاص وصدق على يد أناسٍ في حقبـة معينـة، وما يقع علـى عاتقنا الآن ضرورةً هـو أن نتحمل هذه المسـؤولية التي ورثناها عنهم بمثل تلك الدرجة من الصدق وحسن النية، وأن نستمرّ فيها.

وبعـد أن حددنـا تلـك الحقيقة على هذا النحـو، فإنه من الأنفـع أن نذكـر بإيجـاز مَـا ذُكِر مرارًا ممـا يجب علينا وكُتِـب عنه في كثير

مـن الأماكـن حتى يومنا هذا؛ لئلا تنقطـع عنـا العناية والبركة الربانية المنهمرة من السماء زخًّا زخًّا:

١- علينـا أن نُقنــع أنفسـنا بأنه لا يد لنا في تلـك الأمور. أجل، علينا أن نقتنع ونؤمن من فورنا بأن كل شيء يتمّ بلطف الحق تعالى وبركتـه وعنايته، وأن نبرَأ من الشـرك، ونتنزّه عـن أوهام الأنانية التي تضخُّها أنفسنا في قلوبنا.

٢- وفوق ذلك، علينا أن نفكِّر "لو أننا لم نقم بهذا الأمر، فلربما مثَّلـه أناس أكثر إخلاصًا، ولَقطعت مسـافات أكثر بكثير مما قطعنا"، وعلينا أن نعلم: "أن عناية الحقّ تعالى لا تنعكس على خدمتنا للدين كمـا جـاءت من منبعها؛ لأنها تصطدم بما في شـخصيتنا وأنانيتنا من شرور وآثام فيرتفع أثرها، فنتأخر كثيرًا عن النقطة التي كان علينا أن نبلغها اليوم".

كانوا يقولون لنا قديمًا: حين تقترب ممن نذروا حياتهم للحقيقة سيسألونك: "أخي، كم نفسًا أزهقت؟" أي كم إنسانًا حُلتَ بينه وبين عثـوره علـى الحقيقة؟؛ فعلـى الأرواح التي نُـذرت لله في عصرنا أن تحمل هذا الخوف في قلبها دائمًا حتى لا تنقطع العناية الإلهية.

٣- كلمـا حقّقنـا نجاحًـا واضطلعنا بمهـامّ أكثر ينبغـي أن تزداد عباداتنا وتواضعنا بقدر ما حققناه؛ لئلا ننسـحق تحت أنفسنا فنهلك، كان الإمام الرباني السـرهندي يرى نفسـه دونَ الكلب. نعم، لا بد أن يترسـخ هذا المعنى في أرواحنا ليكون لسانَ حالنا على الدوام، كان

رسـولنا ﷺ يدعو في سـجوده صباح مسـاء منيبًا لربه: "**يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ أَصْلِحْ لِي شَـأْنِي كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ**"(٣)، ولطالما كان يضرع خاشعًا بهذا الدعاء، فلنكرره، ولا يركننَّ امرؤ إلى نفسه ولو لحظة.

٤- علينـا -كمـا سـبق- أن نرى أنفسـنا مصدر كلِّ عيـب، وأنها العائق دون أداء الخدمة؛ وأن أي نجاح إنما هو فضل إلهي، فلننسب ذلـك إليـه ﷻ لا إلى أنفسـنا. أجـل، إن قولـك: "عملـتُ، وفعلتُ، ونفّـذتُ، وأنجـزتُ" منطـق فرعوني، فهذا قارون قد ظـنّ أن ما لديه مـن نِعَـم إنما كان بعلمه هو: ﴿**قَـالَ إِنَّمَا أُوتِيتُـهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي**﴾ (سُورَةُ القَصَصِ: ٧٨/٢٨)، وكذا كلّ الفراعنة قالوا مثلما قال؛ أما الرسل جميعهم ورسـولنا ﷺ فتمثّلـوا قوله تعالى: ﴿**قُـلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْـسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا**﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ١٨٨/٧).

لاحظـوا مـا يقوله رسـولنا ﷺ: "**فَـوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِـكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ**"(٤)، ولو أنَّ مليون إنسان اهتـدوا علـى أيديكم، وبواسـطتكم أنتم، فإن ظننتـم أن هذا من عند أنفسكم، فربما تغدو هدايتكم لهم سببًا في دخولكم جهنم لا الجنة؛ إن البيـان القرآنـي واضح في هـذا، يقول تعالـى: ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾ (سُورَةُ الصَّافَّاتِ: ٩٦/٣٧)، فما لنا من الخير إن كان الأمر كذلك؟ ليس لنا سوى عجزنا وفقرنا. أجل، إن طريقنا إلى قدرته هو عجزنا،

(٣) **مسند البزار**، ٤٩/١٣؛ النسائي: **السنن الكبرى**، ٢١٢/٩؛ الطبراني: **المعجم الصغير**، ٢٧٠/١؛ الحاكم: **المستدرك على الصحيحين**، ٧٣٠/١.

(٤) **صحيح البخاري**، فضائل أصحاب النبيّ، ٩؛ **صحيح مسلم**، الفضائل، ٣٤.

وإلى غناه فقرنا، فإن زاد شكرُنا له وواصلنا العمل في سبيله بشوق استمرت مظاهرُ الإحسان هذه ودامت.

٥- إن الإحساس والإدراك بأن الفضل والنجاح من عند الله يتجلى في جهدنا في الحديث عنه سبحانه، والتنافس في سبيله، وحذار من الرياء فإنه شديد الخفاء، ومنه مثلًا أننا نقول أحيانًا: "نحن ضعفاء، وهذا بتوفيق الله لنا وتيسيره"، ونستبطن في هذا القول الرِّياء بلا تصريح. نعم، يجب أن نتحدث عن الله سبحانه دائمًا، وأن نكون أكثر غيرة في هذا الشأن.

كل إنسان يحب ولده ويبادر بالحديث عنه إذا ما ذُكِر الأطفال، ونفعل هكذا إذا كان الحديث عن الكتابة والخطابة والفصاحة، ننتهز الفرصة لنتحدث عن أنفسنا، وهذا لا يليق؛ والحقُّ أن علينا استغلال كل فرصة لنتحدث عن الله دائمًا وأبدًا، فإذا ما جرى حديث في مكان ما عن الوفاء والأصدقاء الأوفياء، نسارع فنقول: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ (سُورَةُ التَّوْبِةِ: ٩/١١١)، وكذا إذا كان الحديث عن رعاية الحق، وإحقاق الحقوق؛ فعلينا أن نغار عند الحديث عن الآخرين ونبادر بالقول: "إن أحقّ من يجبُ الوفاء بحقوقه ربُّنا الذي أوجَدَنا من عدم، ولم يجعلنا جمادًا بل جعلنا حيوانًا، ثم لم يتركنا حيوانًا صِرفًا بل رقّانا إلى درجة الإنسانية، ثم شرّفنا بلطفه إذ جعلنا مؤمنين، وليس هذا فحسب بل أورثنا خدمة الإيمان والقرآن"؛ فإذا ما نهض أحدهم وقال: "لقد تكلمتُ في برنامج عام، وتأثر الناس، وقالوا كذا

وكذا"؛ فلا بد أن نغضب غضبًا بالغًا، ونتلوى، ونتقطع ألـمًا لأنّ ذلك المتحدث يتحدث عن نفسه وليس عن الله ﷻ.

أجل، إن كنا نريد أن نعرف منزلتنا عنده سبحانه فعلينا أن ننظر إلى منزلته في قلوبنا، علينا أن نراقب مدى صلتنا به، وطبيعة اتصالنا به دائمًا، ونستقصي ذلك ونتأهب له باستمرار.

والحقيقة أن علينا -إن كان اتصالنا بالله تعالى محكمًا- أن نستغلّ كل مدخل، ونبحث عن كل سبيل يؤدي إليه وإلى الحديث عنه؛ فلننقطع عن كل شيء إلا عنه، فنراه هو فحسب، ونعرفه ونفكر فيه ونراقبه، ونصحو وننام من أجله هو فحسب.

٦- الوفاق والاتفاق من أكبر وسائل جلب التوفيق والعناية الإلهية؛ إن الوصول إلى توفيق الله تعالى لا بد له من رأسِمال، ورأس المال هذا هو تحصين الوفاق والاتفاق في الوعي الجماعي، وعدم التشرذم والتفرّق؛ فعندما نتّحدُ نحظى بألطاف إلهية تفوق تصورات البشر مما "لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر"، ونستطيع عندئذٍ أن نحمل من الأعباء ما هو أثقل من جبل قَافْ، وإذا ما كان العكس؛ بأن فسدَ وفاقنا وتفكّك اتفاقنا، ولم يبق معنا سوى بضعة نفر يتجمعون حولنا فإننا حينئذ مهما أظهرنا من جهد وبذلنا من طاقةٍ فلن نفلح، لأننا قد دمّرنا مصدر قوتنا الأساسي ونَسَفْناه نَسفًا طالما أننا لسنا على وفاق ولا اتفاق، فانقطعت العناية الإلهية عنّا؛ إذًا نحن مضطرون لتوجيه كل جهدنا وسعيِنا في تحصين الوجه

الـذي نغـدو بـه "بنيانًا مرصوصًـا"؛ ويؤكّد القرآن الكريـم لهؤلاء أن ﴿**يَـدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**﴾ (سُـورَةُ الفَتْحِ: ١٠/٤٨)؛ وإنني أحسـب حينئذٍ أن كل أنـواع اللطـف المنهمرة على الجماعة تأتي في بُعْـد وقدر يتعذر أن يحظـى به ولـو الأقطـاب والأغواث والأفـراد ممن لهم قـدرة على إرشاد البشرية جمعاء.

نعم، قضايا الإنسـانية شـاقة، والعبودية أشقّ منها، إلّا أن ضرورة القيـام بمهمـة عظيمـة في آخر الزمان لهي أشـقُّ من هـذا كله؛ وهذا هو مطلبنا؛ إنها أمانةٌ أَبَتِ السـماواتُ والأرض والجبال أن يحملنها، أي إننـا تحملنا "الأنـا" والإرادة، فلزام علينا أن نُكسـبهما قيمةً عاليةً فائقة، وأن نعززها باللجوء إلى حول الله تعالى وطوله لكي ننجح في غِلَابِ تلك الصعاب.

الفكر والحركة بمقوِّماتهما الأساسية

سـؤال: كيف يكون المرء حركيًّا فاعلًا بـاستمرار في خدمته للدين بشكل يلائم ظروف عصرنا هذا؟ وما الوصفة الناجعة ليغدو هذا الأمر أمرًا مستمرًّا؟

الجواب: يمكننا أن نلاحظ عدّة معانٍ عندما نتحدث عن الحركة أو العمـل فـي خدمة ديننا، منها: عدم الوقوف عند حدّ، وعلوّ الهمة، والمضيّ قُدُمًا في تحويل الدنيا إلى جنان، وعدم السأم أو التخلي عن إكمـال هـذا الأمر حتى النهاية؛ أما غاية هـذا العمل -وهي حلّ للُغز السـؤال- فهـي بلوغ منتهـى الأفق الذي تحدثت عنـه الآية الكريمة: ﴿**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**﴾ (سُورَةُ الْحِجْرِ: ١٥/٩٩)، إِنَّها عبادة الله تعالى بإخلاصٍ وصدقٍ مطلق ونشـاطٍ لا فتور فيه حتى يأتي اليقين. أجل، إنَّ أداء ذلـك والمداومة عليه حتى بلـوغ ذلك اليوم الموعود هو هو الحركـة والعمل الجـادّ؛ وإذا كان العبد يفكـر بكل إخلاص وصدق فيما يُطلَب منه من وظائف ومسـؤوليّات على المسـتوى الشـخصي والاجتماعـي معًـا، ويسـعى للقيام بها -كمـا ذكرنا آنفًـا- فقد أدرك المعنـى الصحيـح للحركـة والعمل وعاشـهما حقًّـا؛ وإلّا فإنهم إن تناولوا المسألة من جانب واحد فقط، وجعلوا تركيا أعظم بلاد الدنيا

عمرانًـا بما اعتادوا القيـام به من خدمات مادية، ورفعوا راياتهم على مـآذن جامع السـلطان أحمد، فـإن ذلك الأمر سـيرجـع -من حيثُ وَصلَ- إلى ما كانَ عليهِ؛ إنهم وإن أنقذوا العالم في انطلاقةٍ واحدةٍ، لكنّهم عَلِقوا في شباكِ الثقة بأعمالهم، لذا أجزِمُ أنَّ ما فعلوه لا قيمة له في نظر الحقّ.

والشـطر الثانـي مـن السـؤال: "كيـف يدوم هـذا المعنـى وتلك الروح؟" جوابه يستند إلى ما يأتي:

١- التفكـر: أجـل، يبـدو أن أكبر عيوبنا بلا شـك الغفلـةُ والبعدُ عـن كلّ أنـواع التفكر والتأمّل؛ بل إنّنا في سـرائرنا نعيش بقلب ميت محروم من المراقبة الذاتية.

٢- رابطـة المـوت: هي ذكر المـوت والتفكُّر فيـه دائمًا؛ فرابطة الموت تعني الاسـتعداد كل يوم -نعم كل يوم- للقاء الله، فينبغي أن نزور المستشـفيات ونعود المرضى، وأن نزور القبور ونتصور أنفسنا عظامًا نخِرة ونتذكر أن الدنيا فانية زائلة، وأن نكِدّ ونجدّ دأبًا لترك أثرٍ ما بعدنا كما قيل: "يفنى الإنسان ويبقى أثره"، وأن تفيض وتزخر حياتنا بالصالحات، انظروا إلى مفخرة الإنسـانية ﷺ تجدوه -في آخر حياته السنيّة وقد دنا لحاقه بالرفيق الأعلى- راح يجهّز جيشًا لغزو بيزنطة، وولّى عليه الحِبّ بن الحِب أسـامة بن زيد؛ وكان والده استشـهد في غزوة مؤتة؛ وفي السـاعات الأخيرة اشـتدّ المرض على الرسول ﷺ،

فكان يُغمَى عليه، فإذا أفاق: "**أَنْفِذُوا بَعْثَ أُسَامَةَ**"(٥)، أسألكم بالله أهذا هو ما يشغل من يعاني سكرات الموت ويلقى منه شدّة؟ الأمر أعظم من ذلك عند رجل الدعوة؛ وهكذا فعل الفتى الذي سار على خُطَى سلطان الأنبياء ﷺ، إنّه السلطان "مراد خُدَاوَنْدِكَار"، ذلك العقل الفريد الذي أنجبته هذه الأمة، الشغوف في التأسي بمفخرة الإنسانية ﷺ، فقد اختتم حياته بمثل ما فعل ﷺ؛ هذا السلطان العظيم عندما سأله صاحباه المجاهدان "ميخال الغازي" و"أورانوس الغازي" في ساحة الحرب قبل أن يُسلم روحه إلى بارئها: "سيدي السلطان، أتأمرنا بشيء؟" أجاب بكلمات تسجل في التاريخ بحروف من ذهب: "لا تفارقوا صهوة الجياد، ولا تغمدوا سيوفكم!"، ولم يقل:"احملوني إلى بورصة، وادفنوني بها، واثأروا لي..." وما إلى ذلك. نعم، إنّ آخر كلامه في القضية التي استشهد من أجلها لَيتنفس فكرًا وحركة؛ وإنّ إحدى أمارات إدراك الإنسان لهذه النقطةِ الأفقِ أن يلقى الموت بنفس راضية، ويفرح به فرحه بالعرس أو العيد.

٣- الاستفادة الدائمة مما يرِد به الوعيُ الجمعي؛ لأننا قد ننهار معنويًّا، فعلينا أن نعْمُر ما خلّفه الانهيار والخراب بملازمة هذا الجوّ الجماعي المبارك؛ فربما لا تكفينا ولا تسعفنا عيوننا ولا آذاننا ولا أيدينا ولا أقدامنا للتطهر من سلبيات بيئاتنا الخاصة، أمّا حينما نضع أيدينا في أيدي إخواننا ونسمع بآذانهم ونرى بعيونهم، فسنبلغ ما لا تبلغه قوتنا وطاقتنا الشخصية.

(٥) ابن عساكر: **تاريخ دمشق**، ٥٦/٢.

٤- مطالعة كتب تجعلنا في شحذٍ روحيٍّ دائم. أجل، تتبعوا هذه المسألة بدءًا من الحياة البهية للأوائل الكرام، وصولًا إلى الآفاق الفكرية لكثير ممن غدَوا نموذجًا يُحتذى به في هذا السبيل، وذلك بمطالعة حياتهم، وفهمها جيدًا؛ عسى أن نتعالى على مناخ الألفة والأنس الخانق، وجمال الدنيا الجذّاب.

٥- أن يتحمّل المرء لِزامًا وظيفةً ما بروح المسؤولية لتظلَّ الحيوية والنشاط غالبةً على شعوره بخدمة أمتنا، وحينئذٍ يتلاقَى كثيرًا مع من خلصت نيتهم لخدمة أمتهم؛ وأن يُقَوِّم دائمًا ما أُنجز من أعمال وما سيُنجز، فيعايشها ويقوم ويقعد معها أسبوعَه كلَّه؛ ويتنفس الخدمة دائمًا دون انقطاع ولو لحظة، وحينئذ يبارك الحق تعالى له في عشقه وشوقه، أي يبارك له في حركته وعمله، وهذه الحقيقة أجلى ما تكون في الحديث القدسي: "**إِذَا تَقَرَّبَ العَبْدُ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِذَا تَقَرَّبَ مِنّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِذَا أَتَانِي مَشْيًا أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**"(٦).

والحاصل أن الفتية الذين يُناط بهم عمل بديع كهذا وينهضون به سيُدركون بالتأملِ القيمَ التي عليهم أن يستمسكوا بها، وسيتجاوزون برابطة الموت فناء الدنيا وزوالها، حتى إنهم سيرشدون الناس إلى الوجود الحقيقي داخل الزوال والفناء، ويشاطرونهم الحزن والكدر والفرح في كل مكان، وبهذا يغدون أُلُوفًا وقد كانوا آحادًا؛ إن أبطال الفتوة هم ممثلو الوفاء الحق، هم من سيُهرَعون للقيام بالخدمة في

(٦) صحيح البخاري، التوحيد، ١٥؛ صحيح مسلم، التوبة، ١، الذكر، ٢٠-٢٢.

فـرح وطرب، وسـيقدمون بطـولات أكثر فأكثر، وأعمـالًا تلو أعمال لإنشاء عالمهم الذي بُشّروا به قبل عدة قرون.

أسـأل الله أن يحرر أجيالنا وينقذهم بإحسانه وكرمه وعنايته، وأن يمدَّنـا ويسـدّدنا بقوته وحولـه في هذا الكفاح العظيم، وهذا السـبيل الـذي يفوق طاقتنا وقوتنـا، وأن يُديم هذا العمل بنا وبمن يأتي بعدنا من الأجيال؛ إلهي أسعِدْ من فوق الأرض ومن تحتها، وبشِّرْهم، وأقرّ أعينهم بإقامة دينك وحفظه.

التواضع والتفاني في خدمة الدِّين

سؤال: ساق الله خِدمات عظيمةً جدًّا لمن نذروا أنفسهم للدين في عصرنا، لكن قد يسوقهم عِظم شأن هذه الخدمات إلى الغرور، أو التشوف لشيء من الأجر، فبِمَ تنصحون وما هو الواجب فعله في كيفية التعامل مع هذه المرحلة؟

الجواب: ثمة حقيقة أشار إليها مَن سنّ طريق الخدمة في هذا العصر للذين نذروا أنفسهم لها بقوله: "إنما نمهد السبيل لأولئك الكرام النورانيين"(٧)؛ فأرى بدايةً أن الصواب الالتفات إلى هذه الحقيقة؛ والأجدى والأنفع أن نتذكّر أمرًا آخر، وننظر إلى المسألة من خلاله. أجل، إن التمسك بهذه الدعوة العُلْوية والغاية المثالية السامية يتمثل في مراعاة حالها في الحاضر والمستقبل، والولوج إلى نفوس أكثر الناس فظاظة وقسوة وتمردًا وجفاءً وإلحادًا، والاهتمام بهم لتبليغهم إياها، ومكابدة المشقة في تحقيق ذلك. أجل، إن هذه المكابدة تحملنا وتحلق بنا إلى جو التسامح، وترقى بنا إلى اللين، فالعفو والصفح ثمّ الرحمة، وإلى أكثر آفاق الإرشاد بركةً وفيضًا حتى يفوز الناس بالنجاة السرمدية.

---

(٧) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **المكتوبات**، المكتوب الثامن والعشرون، المسألة السابعة التي هي الرسالة السابعة، السبب الخامس، ص ٤٥١.

وأبرز الأداوت والأساليب المستخدمة قديمًا في هذا النسيج القدسي الذي حاولنا نسجه حتى الآن هي التسامح واللين والعفو والرحمة، بيد أننا لم نستثمرها وفقًا لخطة معدَّة، بل اقتفينا طريقًا يسير وفقًا لمجريات الحوادث، حتى وصلنا إلى ما نحن عليه اليوم؛ وإن نهج الخدمة الذي يحيط بحياتنا إحاطة السوار بالمعصم قد يحمل للناس اليوم ولأجيال قادمة رسائلَ تنير لهم الطريق دون أن نقصد ذلك.

واليوم نشهد نفحات قدسية في خدمة أمتنا تنتشر من أفواه آلاف المتحدثين، فتَحُفُّ مناخَنا وتحصّنُ روحه؛ حتى إنّه لَتتحطم الموجات الضارة الشرسة، وتتهاوى الشهب، وتذوب تِباعًا؛ وطَبَعي أن تسري على ما نحن بصدده قوانين الطبيعة، فهو كالبرعم ينمو ويتكوّن رويدًا رويدًا، ثم يأتي يوم تتلاحم فيه عُضَيّاته المترابطة؛ فتتّحد، وهكذا يتأسّس العمران المنشود في الأذهان.

أجل، إنّ الأوائل الذين تحمّلوا الشدائد وفّوا بِمَهمَّتهم الخاصة بالأمس وإنّهم اليوم أسلموا تلك الأمانة إلى مهندسي العصر وصُنَّاع الفكر، ثم رحلوا؛ وبينما تُختَارون لتشييد عمران اليوم وَفْقَ عالَمِيَّة بِنيتكم الروحية وفكرٍ وحركةٍ مصدرهما توجُّهاتكم العامّة أَرَاكم تُرْسُون دِعامات جسر يمتد إلى المستقبل، وستحمل الأجيال اللاحقة تلك الأمانة عنكم إلى محطة أخرى، فترى تلقائيًّا وهي تنقل هذه الأمانة دعاماتِ ذلك الجسر، وتقول: "ما وُضعت هذه الدعامات إلا لهذا الأمر"؛ وهذا كما كان يقال للصحابة والتابعين وتابعيهم في زمن

الفتوحـات: "فيكم من صحب النبي ﷺ؟ فيقـال: نعم، فيُفتح عليهم، ثـم يأتـي زمان، فيقـال: فيكم من صحب أصحـاب النبي ﷺ؟ فيقال: نعم، فيُفتح، ثم يأتي زمان فيقال: فيكم من صحب صاحب أصحاب النبي ﷺ؟ فيقال: نعم، فيُفتح"(٨)؛ وأنتم أيضًا سـتتبوّؤون مكانكم عند نقطة معينة، وسيُفتح عليكم بعون الله وفضله.

وفي جواب السـؤال أؤكِّدُ أنّا لسنا ندري، فربما يُعمَّر هذا الجيل طويـلًا، ويمثل تلك المهمة بخصائصها في المسـتقبل، ومردّ تحقيق هـذا كلِّـه إلى اللطف الإلهي ثم إلى سَـعة صدوركم واسـتعداداتكم العامّة؛ فالتشـوف للأجر هنا وبناء سـلوكنا عليه خداعٌ محض، بل إنّ حديـث النفـس "أنا فعلت كذا، وقمت بكذا"، والتشـوف لشـيء من الأجـر وإن صَغـرَ لَيُقوِّضـان ركنًا مـن القواعد التـي نرفعها من أجل غايـة عظمـى في المسـتقبل، حتـى إن التشـوف للأجر ربما يشـدخ أرواحنـا بمرور الزمن، وقد يحملنا على الأنانية والغرور أيضًا. نعم، قـد يُحسَـن الظن بنا ونُكلَّف ببعض المهـامّ، لكن لا ينبغي لأحد قط أن يستشرف لمثل هذا التشوّف أو أن يخطر بباله، فتسلل فكرة كتلك إلى عقله خطوة خاطئة، فإن لم يُنِبْ ويتُبْ فَسَيَقَرُّ في قلبه هذا المعنى يومًا فيومًا، وتَتَتَابَعُ الخطوات الخاطئة، فيأتي يوم يطأطئُ فيه رأسـه؛ لأنه خسـر في وقتٍ هو أدعى للكسـب، وسيخسـر حقًّا، وإن مفكر عصرنـا الكبيـر ورائد الإخـلاص اليوم قد تصرّف بحـذر عُجاب في هذا، وأشـار إشـارةً رائعةً إلى لطافته هذه فقال: "لقد أُقرئتُ كُتُبًا دون

(٨) صحيح البخاري، الجهاد والسِّيَر، ٧٥؛ صحيح مسلم، فضائل الصحابة، ٢٠٨-٢٠٩.

أن أعـرف... قـد وُجّهتُ إلى القرآن دون أن أعرف... لقد سُـخّرتُ لخدمة ديني دون أن أدري..."[٩].

أجـل، أن نكـون أفـرادًا عاديين في هذا الأمر أثمنُ شـيء عندنا، فخير لك وأقوَمُ أن تكون جنديًّا بسيطًا بباب الله دائمًا، وألا تنزلق إلى تشـوفات شـتّى، فقد يُكلَّفُ جنديّ بما يقوم به المشـير أحيانًا، وهذا شأنٌ من شؤون علمه هو ﷻ، ولا شأن لنا به قطعًا، أليس هذا ما قاله بديـع الزمان: "النفس أدنى من كل شـيء، والوظيفة أسـمى من كل شيء"[١٠]، "يا نفسي المرائية! لا تغتري قائلةً: إنني خدمتُ الدين، فإن الحديث الشريف صريح "**إِنَّ اللهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الفَاجِرِ**"[١١]، فعليـكِ أن تعدّي نفسـكِ ذلك الرجل الفاجر، لأنـكِ غيرُ مزكّاة"[١٢]؛ "لا تَرَي نفسَـك مظهرًا لتلك المحاسـن وتلك الطيبات؛ فيا نفسي لا تقولـي: "إننـي مَظهر الجمال، فالذي يحوز الجمـال يكون جميلًا!"، كلّا إنك لم تتمثّلي الجمال تمثّلًا تامًّا؛ فلن تكوني مَظهرًا له بل مَمَرًّا فحسب، يمرّ بك الجمال ثم يزول عنك ولا يقرّ فيك"[١٣].

إنّ حَبابَ الماء يسـتقبل انعكاس أشعّة الشمس، هبْ أنه لم تكن شـمس فماذا سيسـتقبل؟ إذًا كلُّ هذه الجماليات مـن جمال الجميل سـبحانه وتعالى. أجل، فهذه الإشـارات مهمّة جدًّا، وبقدر عظمة ما

(٩) بديع الزمان سعيد النُورْسِي: **المكتوبات**، المكتوب الثامن والعشرون، المسألة السابعة التي هي الرسالة السابعة، السبب السابع، ص ٤٥١.

(١٠) بديع الزمان سعيد النُورْسِي: **سيرة ذاتية**، فترة آفيون، ص ٤٤٨.

(١١) **صحيح البخاري**، الجهاد، ١٨٢، القدَر، ٥؛ **صحيح مسلم**، الإيمان، ١٧٨.

(١٢) بديع الزمان سعيد النُورْسِي: **الكلمات**، الكلمة السادسة والعشرون، الخاتمة، ص ٥٤٣.

(١٣) بديع الزمان سعيد النُورْسِي: **الكلمات**، الكلمة الثامنة عشرة، المقام الأول، الملاحظة، ص ٢٤٨.

يحمّلنا الله سبحانه من مهمّات ووظائف يزداد تواضعنا ونكون أبعد عن التشوفات والمزاعم، هذا ما ينبغي؛ فالسلامة في الدارين مرجعها سلامة القلب فحسب:

أيـــــــها الحاجّ لا تذهبنّ بك الظنون
فـــــــلا فضةً ولا ذهبًا منك يطلبون
بل قلبًا سليمًا ﴿**يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ**﴾ (سُورَةُ الشُّعَرَاءِ: ٢٦/٨٨)"

يا لها من كلماتٍ بديعة تشير إلى هذه الحقيقة!

أجل، لا بد أن تُنقش تلك الحقيقة في أرواحنا، وعلينا -كأُناسٍ عاديين- ألا نخوض غمرة التشوّفات الزائدة عن الحدّ لا باسم الجماعة ولا باسمنا، ولنحرص على أن تكون خاتمتنا في أجواء تلك المبادئ.

رُكن الاستغفار في الخدمة

سؤال: أين منزلة الاستغفار من الأعمال التي يتمّ إنجازها لخدمة الدين؟

الجواب: قد يقع عند أداء وظيفةٍ ما خدمةً للدين ما لا يرتضيه الله، فيعرقل الذنب هذا الأمر مرارًا؛ لذا قرن القرآن الكريم الفتح بالاستغفار؛ فقال تعالى مخاطبًا رسوله ﷺ: **﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾** (سُورَةُ النَّصْرِ: ١١٠/١-٣).

عن عائشة رضي الله عنها قالت: "ما صلَّى النبيُّ ﷺ صلاة بعد أن نزلت عليه: **﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾** إلّا يقول فيها: "**سُبْحَانَكَ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**"(١٤).

وهكذا فهذه الروح روحٌ نبويّة، ونقيضها روح فرعونيّة تغتبط وتبتهج وتنتشي فرحًا بالنجاح والانتصار، ولا شك أنَّ الروح الفرعونية تعيق السلوكيات الإيمانية؛ من ذلك أن شعور راكب السيارة أو الطائرة بالصَّلَف والغرور وانشغاله باللهو والمرح وهو

(١٤) صحيح البخاري، تفسير القرآن، ١١٠؛ صحيح مسلم، الصلاة، ٢١٩.

متوجه إلى مكانٍ ما لخدمة الدين يُعَدُّ من الهواجس الشيطانية لا الرحمانية. أجل، فهذه الخِدْمات العارية عن الاستغفار والمراقبة هي أساس التعثر وانغلاق السبل، وأجزم أن هذا هو سبب الأزمات التي نعيشها.

أجل، هذه مرحلةٌ دقيقة، فعلى المجتمع وخاصة رجال الخدمة أن يقيِّموا أنفسهم فكريًّا وعقديًّا وعمليًّا وعاطفيًّا؛ ولا بد من إصلاح كل ما فسد، وتقويم البنية الروحية جميعها لترميمها أو إعادة إنشائها؛ وبعد عملية جراحية خطيرة على هذا النحو سترتعد أعماق كلّ منا عند كل كلمة يتلفظ بها وكأنه صائم أفطر بماء عذب فجرى الماء في عروقه، وسيرقى إلى مرتبة عالية حتى إنه يستغفر الله لصلاة أداها في خشوع، إذ لا أحد يعرف أين رضا الله تعالى: أفي إقامة الصلاة على هذا النحو أم بشكل آخر؟ المهم هو حضور القلب بين يدي الله، والوعي بأننا نقوم بعمل جد عظيم تحصّنًا من الشيطان والغفلة الشيطانية؛ فالمسألة ليست مسألة إحساس فقط، ولست أريد أن أقول: "الأصل عدم الإحساس بأي شيء قط"، بل أقصد أنّنا إن عجزنا عن إدراك لطائف الاستغفار والرقي بها في كل نجاح ليتحقق التكامل بين المجتمع والكمال الشخصي، فهذا نوعٌ من الغفلة، والله لا يحب الغافلين؛ حتى إن قولنا "ما أجمل ما يجريه الله تعالى على أيدينا" قد يُعدّ أيضًا نوعًا من الشرك الخفي، وكلما تعمّق استغفارنا أمكننا التحصُّن من أضرار خواطر مهلكة كهذه.

أمر آخر: من كفران النعمة وسـوء الأدب مـع الله تعالى أن نقول ونحن نتصدى لمصائب حلّتْ بنا: "لماذا حلّت بنا هذه الأمور؟ ماذا فعلنا؟!"؛ فلنبادر بالاستغفار لنهزم خواطر وهواجس كهذه حين تدب فينـا لنقطـع الطريق عليها؛ يا تُرى هل تلمسـنا الخطأ في أنفسـنا في كل هـذه الأحداث؟ وهل اتخذنا من أنظارنا كشّـافًا نفتّش من خلاله جوَّانيّتنا باسـتمرار؟ ألم يأمُرنا القرآن الكريم بمحاسـبة أنفسـنا قائلًا: ﴿**عَلَيْكُـمْ أَنْفُسَـكُمْ**﴾ (سُورَةُ الْمَائِـدَةِ: ١٠٥/٥)؟ إذًا لـم لا نراقب جوَّانيتنا امتثـالًا لقوله ﷺ: "**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**"(١٥)، ولم لا نفكّر فيما يدور بخلدنا؟

ولو أُغفِلت هذه الأمور لبرزت الأنانية وانخدع الإنسان بما حقَّق مِن نجاح ولَنسـي ربّه وعنايته. أجل، إنه سـينخدع لأن تلكم الأشياء هي وسـاوس الشـيطان التي همس بها في أذن الإنسـان ولبّس عليه الحق بالباطل؛ انظروا إلى رسـول الله ﷺ يدخل مكّة فاتحًا، حتى إن جبينه المبارك كاد يلامس مقدمة الرَّحلِ في تواضـع جمّ(١٦)؛ فلنطلب رضاه تعالى في كلّ شيء نفعله.

أجل حسـبنا رضاه سـبحانه، وما دام الأمر كذلك فلنجعله أصلًا في كلِّ أمورنا، ولا بد أن يكون هذا هو الأساسَ والهدف، وأن تتوجّه كلّ سلوكياتنا وخواطرنا إليه سبحانه وتعالى.

(١٥) صحيح مسلم، البر، ٣٣-٣٤.

(١٦) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ٤٠٥/٢.

كيمَا يستمرَّ اللطف الإلهي

سؤال: كثيرًا ما يقال إننا إذا ما قارنّا أحداث اليوم بما مضى من أحداث على مدى التاريخ، فسنجد أننا نحظى بأنواع وأنواع من اللطف الإلهي؛ فما هي واجباتنا جميعًا وفرادى ليدوم علينا هذا اللطف الإلهي؟

الجواب: إن كثرة الحديث عن الرحمات الربانية التي تتنزّل علينا زخًّا زخًّا يدخل في باب ﴿**وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**﴾ (سُورَةُ الضُّحَى: ٩٣/١١)، علينا أن نذكرها، لِـمَ لا ونحن أبناء مرحلة مجدبةٍ وأراضٍ قاحلة متشقّقة أقفرتْ من الرُّوحانيات، وأبناءُ عصر نتلوّى فيه ظمأً إلى قطرةٍ من غيث المعنويات؟! لقد لطف الله بنا ورعانا، فأخرجنا من تلك الأيام القاحلة إلى هذه الأيام، بيد أن إحاطة عناية الله بنا ولطفه وكرمه شيءٌ، ودوام ذلك كلّه شيءٌ آخر.

إنني أرى أن الاستقامة على النهج القائم بلا نكوص إلى الوراء ولو خطوة هي أول ما ينبغي أن نقوم به لتستمر هذه النعم وتدوم؛ مثلًا عندما نضبط قنوات المذياع ونعثر بدايةً على القناة التي نبحث عنها، نتوقف عندها، ولا نحرك المؤشر على القنوات الأخرى؛ قد نحركه على القناة حركة خفيفة يمنة ويسرة لنعثر على أوضح ذبذبة؛ وهكذا ما نحن فيه تمامًا، فعلينا من منظور دائرة الأسباب

أن نحافظ على الخصائص التي تنزلت بسببها هذه النعم، وذلك مثل الهمّ والدعاء والفكر، ولا تكفي المحافظة عليها، بل علينا أن نعززها ونرقى بها أكثر من ذلك؛ هذه هي أول خطوة لاستدامة اللطف والإحسان المنزَّلِ علينا.

أمر آخر: علينا أن نسعى لبلوغ الذروة في الإخلاص والتقوى والزهد والقرب من الله فيما نضطلع به من أعمالٍ، وأن نسعى إليها ما حيينا، وإلا فلا مفر ألبتة من أن تحيط بنا غوائل "الهجمات الست"[١٧] إحاطةً تامّة إذا ما مُنِيَ روحُ الفكر والحركة بالضمور، وعندئذٍ قد نقع في شراك إحدى هذه الغوائل التي تهوي بنا في الدوائر الفاسدة العاملة لحساب بعضها المتصلة فيما بينها أيّما اتصال، فنهلك؛ فبين هذه الجراثيم الفتّاكة شبكة اتصال عجيبة جدًّا، إذا دخل أحدها الجسمَ وحطّم مقاومته أرسل من فوره إلى غيره من الجراثيم إشارة: "هيا تعال أنت أيضًا!"؛ وعلى هذا فهي تبدأ الهدم والتخريب في البنية التي تدخلها من خلال تكوين شبكة اتصال معنويّة فيما بينها وكأنها تَبْرُقُ إلى بعضها، وتشكل دائرة فاسدة.

وللتوضيح أكثر نقول: جرثومة الخوف عندما تغزو بنية الإنسان قد تستدعي جرثومة حبّ الراحة والدَّعَة، وإذا ما ضعفت مقاومة الجسد أكثر قد تتلقى جرثومةُ حبِّ الشهرة الإشارةَ، فتنقضُّ على الجسم فورًا؛ فيتعذر على الجسد استعادة طاقته مرةً أخرى

(١٧) رسالة "الهجمات الست" للأستاذ بديع الزمان سعيد النُّورْسِي، يبين فيها كيف يمكن للإنسان سد طرق الدسائس الست لشياطين الإنس والجن، وهي: حب الجاه والشهرة، والخوف، والطمع، والعصبية، والأنانية، وحب الراحة والدعة. (بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **المكتوبات**، المكتوب التاسع والعشرون، القسم السادس).

مـا لـم تدركه عناية الله! أجل، لو لم يكـن هناك لطف وعناية خاصة، لاستحال النهوض ثانيةً بعد هذه المرحلة.

إذًا علينا أن نسعى لنحافظَ على تنعمنا بلطف ربِّنا، ولنبلـغ مراتب أعلـى مـن مرتبتنا الحالية قائليـن: "هل من مزيد؟"، لئـلا نُمنَى بتلك الهجمات والكروب.

أجـل، كلُّ فضـلٍ يسـتوجبُ شـكرًا من جنسـه، فإنعـامُ اللهِ علينا بالإيمـان وبالوعـي بمهمـة إرشـاد الآخريـن إليه –وتلك هـي غايتنا فـي الحيـاة كمـا أشـرْنا مـرارًا– يقتضـي شـكرًا مـن جنسـه؛ فبهـذا الشـكر وباسـتمراره يسـتمرّ اللطـف والإنعـام، يقـول الله تعالـى: ﴿وَإِذْ تَـأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَـكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَـدِيدٌ﴾ (سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ: ٧/١٤)، لاحظـوا يقـول: ﴿لَـئِنْ شَـكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ لكن لـم يقـل في مقابلـه: "وَلَئِنْ كَفَرْتُـمْ لَأَزِيدَنَّ كُفْرَكُمْ"، بـل قال: ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُـمْ إِنَّ عَـذَابِي لَشَـدِيدٌ﴾، فبينما كان سـبحانه يدعونـا إلى الصراط المسـتقيم، أخـذ يذكّرنا بطريـق إحراز النِّعـم والوقاية مـن العذاب؛ فشـكرُ نعمـة الإيمـان يتحقـق بإرشـاد الآخريـن إلى الإيمان عسـى أن نحظـى بِنِعَـمٍ جديـدة، وفي هذا المقام نسـأل الله أن نـزداد يقينًا، وأن نحظى بالقربِ منه أكثر، وكان الأستاذ النورسي عندما يفسّر آية: ﴿وَمِمَّـا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (سُورَةُ البَقَرَةِ: ٣/٢)، يعمِّمُ، فيقول: كما أن للمال زكاة فـإن للبدن والذكاء والذاكرة والمحاكمـة العقلية زكاة، حتى إنَّ للخِطـاب زكاة تلائمـه أيضًا[١٨]؛ فأعطِ كلّ ذي حـقٍّ حقَّه، وقابل كلَّ نعمةٍ بشكرٍ مِنْ جنسِها كي يتتابـع إغداق تلك النعمة عليك.

(١٨) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **إشارات الإعجاز**، ص ٥١.

منهــج آخــر لا بد من اتّباعه في هذا الشــأن، وهو مراقبة جوّانيتنا بالتناصــح فيمـا بيننـا كمـا كان الصحابة الكـرام يفعلون، فلـو تأمّلنا عصر السعادة، لرأينا كلمات رجوليّة جليّة صريحة تناصح بها سادتنا الصحابـة الكرام، فإذا اتخذناها نموذجًا فبوسـعنا أن نطبق ذلك فيما بيننـا وفـق درجاتنا؛ أي يمكن أن نُوعِزَ إلى الآخر بأن يقوّمنا، فنقول: "إذا رأيتنـي يـا أخـي علـى خطإٍ، فخذ بيـدي وانهض بـي من عثرتي وحذرنـي، فإننـي لـن أتكبّر على قبول هـذا". نعم، يمكننـا أن نختار شخصًا يقوّمنا إذا ما اعوجَجْنا، ومن المهم هنا ملاحظة المعيار الذي عبر عنه الأستاذ بقوله "دون هتك الستر".

أرى أنه من الضروري لمن يتضرّع ويتبتّل قائلًا: "إلهي، لا تكلني إلـى نفسـي طرفةَ عين" أن يفتح هذا البـاب لأصدقائه، ويعدّ التوجيه والنصــح "أمرًا بالمعـروف ونهيًا عن المنكر"؛ فكل من صلاح الدين الأيوبـي ونـور الدين زنكي كان يسـتمع لنصح شـخصٍ مـا، وكان السلطان سليمان القانوني يستمـع لنصائح أبي السعود أفندي... فمن نحـن حتـى نغلق الأبواب دون نصائح كتلـك، ونصدّ من يوضّح لنا عيوبنا؟

والحاصـل أن الله سـبحانَه لـن يغيِّر مـا بنا حتى نغيّر ما بأنفسـنا، وللقيـام بهـذا وتحقيقـه لا بُدَّ لنا من إخوةٍ أوفيـاء يؤازروننا لمواجهةِ أنفسنا الأمَّارة بالسوء، ولا يتركوننا وشأنَنا.

أسلوبنا أمام السلوك العدوانيّ

سؤال: كيف ينبغي أن ندفع ما نواجهه من سلوك وحركات عدوانية؟

الجواب: سلوك المؤمن مهمٌّ جدًّا؛ فهو إنسان تأدّبَ على مائدة الأدب النبويّ، فلا يمكن أو لا يُتوقَّع ألبتة أن يخرج عن دائرة الأدب واللطف والنزاهة، فكلُّ سلوك يصدر عنه سيُعزى تلقائيًّا إلى الإسلام، فعليه أن يحافظ على سلوكه الذي صاغته التربية الإسلامية على نحو يليق بالمسلم دون تغيير قِيدَ أنملة حتى وإن كان في مواجهة أكفر القلوب وأقسى الحوادث، ولو تأمّلنا حياة سيدنا رسول الله ﷺ للاحظنا أنه لم يغيّر معاملته حتى مع أبي جهل؛ وعلى ذلك فإن أغضَبَنا شيء ما فليكن أسلوبنا إسلاميًّا. نعم، أغلظ القرآنُ الكريم القولَ للمشركين في بعض المواضع، والواقع أنّ هذا الأسلوب الشديد لم يكن موجهًا للأشخاص، بل لبعض الصفات والأفكار المعوَجّة.

أجل، لم يتعرّض القرآن الكريم لأحدٍ بغلظة قطُّ، وما أغلظ وهاجم الكفار والملحدين، بلِ الأفكارَ والمفاهيمَ الإلحادية التي مثلوها ويمثلونها؛ لذا لا يُتصوَّرُ أنْ يسلك طلابُ القرآن سلوكًا خلافَ ما جاء به القرآن.

ولنا أن نتناول هذه الحقيقة في الدول كما الأشخاص، فمثلًا قد نُغْلِظُ القول في حديثنا عن بعض الدول، إلا أنه ينبغي أن نتنبّه إلى أننا مضطرّون من اليوم لترك التشدُّد إذا كنّا نفكر مستقبلًا بمحاورتهم أو تعريفهم بعضَ الحقائق والأحاسيس والأفكار الدينية، فلنحدِّد جيّدًا أسلوب المواجهة؛ ويشترط في هذه المسألة كغيرها من المسائل الرجوع إلى المعايير والموازين المستخلصة من مقاصد القرآن الكريم والسنة النبوية.

تعالوا نشخص الموضوع بصورة أوضح بمثال من القرآن الكريم، يقول الله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام وقد أرسلهما إلى فرعون: ﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى﴾ (سُورَةُ طَهَ: ٢٠/٤٤)، أي عليكما أن تعبّرا لمن تخاطبانه بالكلمة الطيبة والقول الليّن وإن كان فرعونَ الذي أذلّ قومَهُ وسفك دماءهم سنين، لاحظوا: ربطَ القرآن الكريم تذكُّر المخاطب وخشيته من الله بـ "القول الليّن"، ومفهوم المخالفة هنا: "فإن قلتما له قولًا غليظًا فلن يتذكّر ولن يخشى"؛ فالرِّفقُ واللين شرطان لا غنى عنهما للتَّمكُّنِ من تبليغِ بعضِ الأشياء والحديث عنها أيًّا كان المخاطَب.

وهذا يعني أن على المسلم أن يكون دائمًا ليّن الجانب، لين الفِعال والمقال، لين القلب والوجدان؛ حتى يتسنى له أن يكون داعيًا حقًّا، وإلا فكلُّ من لم يلِنْ قلبه ويذُبْ وتتمعدنْ أطواره في قالب الروح المحمدية فستصبح أحوالُه مصطنعةً مزيفة، وأمثال هؤلاء وإن تبسَّموا إلى أجلٍ محدود إلّا أنهم سرعان ما يَظهرون على حقيقتهم

إذا ما أوذوا، ويكشفون عن شخصيتهم الحقيقية، تُرى حَتّامَ يمكن أن تخدع يَرَقةٌ أهلَ الرصد والفلك؟!.

وفي ضوء هذه المعايير يمكن تفسير نزول المسيح عليه السلام واقتدائه بواحدٍ من أمة محمدٍ ﷺ بأن المسيح عليه السلام برأفته وعطفه سيجذب العدالةَ الكامنة في الروح المحمدية إلى بعدٍ آخر، أي سيبلغ بالروح المحمدية وعدالتِها واعتدالِها مرتبةً مِيزتها: "أن يكون الإنسان بلا يدٍ لمن ضربه، وبلا لسانٍ لمن شتمه، وبلا قلب يغضب ممن أغضبه"؛ وهذه المرتبة ربما يراها البعضُ إفراطًا في الرأفة والرحمة.

والإنسان الجَلْد في هذا العصر بديع الزمان سعيد النورسي مثالٌ مهمّ جدًّا في هذا الشأن، فهو يسعى دائمًا ليعثر على مدخل يتحدث منه عن حقيقة الإيمان بينما يجد في أهل الدنيا من يرونه جديرًا بأعتى عذابٍ وأشدِّه بأسًا، ورغم ذلك لا يضيق بهم ألبتة؛ وما أجمله من مثلٍ، ذاك الذي ضربه أصحاب الأخدود في هذا الموضوع! حفروا لهم الخنادق بينما هم يحاولون إشعارَ مَنْ يرمونهم فيها بإلهامات أرواحهم.

أجل، يستحيل تبليغُ أيِّ شيء لأيِّ إنسانٍ بالصياح والصراخ والحدّة والعنف، ناهيك عن إقناعه به؛ ربما استُخدم العنف طريقةً وأسلوبًا في فترة من التاريخ، أي في فترة البداوة الإنسانية، لكن الزمان نسخه، وأبطل حكمه؛ أما الآن فالدستور السائد هو "أن التغلب على المدنيين إنما يكون بالإقناع لا بالإكراه"(١٩)، ورجالُ المحبة

(١٩) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **سيرة ذاتية**، الحياة الأولى، ص ١١٦.

فـي عصرنـا عليهـم أن يبلغوا المسـتوى الذي نحاول رسـم حدوده وأُطره، وأن يُكثِروا من التمرّن عليه باستمرار.

أجل، كما بيّنا آنفًا، سينزل المسيح ﷺ بلا شكّ في آخر الزمان ليـؤدّي رسـالته المُهِمَّـة تلك وإنْ فـي أقصى أرجاء الآخرة، سـينزلُ ولكـن نزولـه هذا سـيكون نـزولًا علـى المعنـى والروح القـارَّة في شخصيتكم المعنوية.

نعم، سـينزلُ علـى هذا المعنى وتلـك الروح ليكـون قالَبًا لهما؛ وإن لم تكن تلك الروح فلا معنى لنزوله جسديًّا، فينبغي أن نعلم أن الانبعاث في آخر الزمان سـيتحقق بنفحات أبطال المحبة التي تَهَبُ الأبدانَ الحياةَ؛ فهم مَنْ يستطيـعُ تمثيلَ لينِ القلبِ والحالِ والمقال.

بين واقعنا ووقائع التاريخ المتكرّرة

سؤال: إذا تأملنا واقعَنا في ضوء "تكرُّر الأحداث التاريخية" فهل سيعرِض لنا مثلُ ما عرَضَ لرسولنا ﷺ من هجرة واختباء في الغار وما إلى ذلك؟

الجواب: بدايةً لا بدَّ أن ننوِّهَ بشيء: كأن الله ﷻ عَرَضَ كلَّ ما سيحدث إلى يوم القيامة بشكلٍ مصغّرٍ في عصر السعادة، فلو رجعت الأمة المحمديّة إلى هذا العصر لَعثرتْ على سبلٍ لحلِّ المستجدّات المتنامية والظروف المتغيّرة والنوازل؛ والحقيقة أنَّ موسوعات اجتهادات السلف الصالح تُعَدّ بشكلٍ ما تكثيرًا واستنساخًا لميكروفيلمات ذلك العصر.

وثمة أمرٌ آخر من المفيد أن نوضحه: إن الحوادث التاريخية لا تتكرّر عينها، بل مثلها؛ ومن هنا يمكن القول: إنّ الماديين الذين ينتظرون أن تتكرّر الحوادث الغابرة عينها يعيشون في وهم وانخداع خطير جدًّا؛ ولعلّ ما يخدعهم هو أن تلك الحوادث تبدو أحيانًا كأنها تتكرّر بعينها، وهذا في الحقيقة يُعَدُّ مِنْ خلط الشاخصِ بظلّه.

إذًا يمكـن القول: إن أحداث الهجرة قد يقع ما يشـبهها في فترةٍ أخرى؛ فنحن مثلًا نسـير منذ القدم في دربٍ كَذَاك، فنحن في حياتنا الخاصّة مهاجرون دائمًا طالما اجتنبنا المحارم كافّةً كما في الحديث النبوي الشريف: "**الْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَر مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ**"[٢٠].

وكثيـر منّـا يهاجـرون فـرادى أو مـع أسـرتهم وفـق مـا تقتضيه خدمتهم هجرةً تشـبه الجهاد المادي؛ لا سيما أن انهيار الشيوعيّة في آسيا الوسطى أغذَّ السيرَ بالهجرة أكثر، ولهذه المسألة بُعدٌ آخر يتمثّل في الجهود المبذولة من أجل التعريف بقيم أمتنا في أوروبا وأمريكا وغيرها.

أريد هنا أن ألفت انتباهكم إلى قضية وهي: أن من شرط الهجرة أن تكـون لله فحسـب، وألّا تخالطهـا أيـة دعوى أو تشـوّف دنيوي؛ وتحقّـقُ أمـرٍ كهذا رهنٌ بأمورٍ منها: سـلامة جوانيّة المرء، واكتشـافُه حقيقـةَ نفسـه، وقـوةُ ارتباطه بـالله، ومراقبتـه له سـبحانه حيثما كان، وطاعتـه إيـاه، وذكره لـه على الدوام. نعـم، أرى أن علـى الناس أن يطلبـوا بمنازلهـم ودورهم وبلادهـم وأوطانهم -إن كانـوا لا محالة تاركيهـا- ثمنًا غاليًا جدًّا، وذلك بتحمّلهم هذه التضحيات في سـبيل غايات سامية، وأهداف عظيمة جدًّا، وقد أشار الله تعالى وكذا رسولُه الكريم ﷺ إلى هذه الغايات وتلك الأهداف؛ وهي: الله وجنته وجماله ورضاه وشفاعة رسوله ﷺ.

---

(٢٠) صحيح البخاري، الإيمان، ٤؛ سنن أبي داود، الجهاد، ٢.

أحـد الصحابـة الكـرام خسـر في زمنٍ هـو أدعى للكسـب رغم أنه تحمّل كسـائرِ الصحابةِ المشـقةَ نفسـها والصعوبة عينها؛ ذلك أنه لـم يُخلِـص النية، ولم يحسـنْ ضبـط توازن قلبه على نحو ما سـبق؛ وقـال ﷺ فـي هذا الصحابـي المهاجر من مكة إلـى المدينة من أجل امرأة: "**مَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا، أَو امْرأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**[٢١]" أي إنه عجز عن أن يسـمو إلى مرتبة "المهاجر إلى الله ورسـوله"، ومـن هنـا أيضًا يمكـن القول: إن الأهـم بإطلاق هو: توازن القلب ومراقبة الذات والمحاسبة وإخلاص النية.

أجـل، إن الصحابـة الكـرام لـم يُمنَّـوا قطّ بأيّ شـيءٍ نحـو: "إن تحمّلْتُـم تلـك التضحيـات العظيمـة فسـيكون لهجرتكم كـذا وكذا مـن النتائـج: سـتتحدَّوْن العالم في عقد واحد، وستنتشـرون في كذا وكـذا من العالـم وتصبحون ولاةً وحكامًا وإداريين..."؛ بل حُدِّد لهم الهدف فحسـب، وأُمروا أن "يهاجروا إلى المدينة" وقد هاجروا رغم كلّ شـيء؛ ثَبَـتَ بهـذا إذًا أنّ مصدر هذه القضية هـو انضباط جوّانية حَمَلَتِها إلى الحياة، وقوةِ صلتهم بالله تعالى؛ وهذا الضرب من الناس يقولكما قال الشاعر الربّاني "يونس أمره":

لـفحةٌ مـن جـلالٍ زلـزل أو نـفحةٌ مـن جمالٍ نـزلَ
في هذا وذا للروح صفَاء فمنك اللطف والقهر سَوَاء

وذلك دون الشعور بأي ضربٍ من التردد، أو الوقوع في أي نوع من الشبهات.

---

(٢١) **صحيح البخاري**، بدء الوحي، ١، النكاح، ٥؛ **صحيح مسلم**، الإمارة، ١٥٥.

وقد أسبغ الله تعالى علينا ثوب الهجرة كرّةً أخرى اليوم، فله تعالى على هذه النعمة التي قدّرها لنا ما لا يُحصَى مِن الحمد والثناء، وإذا كان الأمر كذلك فعلى من تسربلوا ثوبًا كهذا أن يضبطوا جوانيتهم جيّدًا إن كانوا يرجون ألا تذهبَ أعمالهم سُدًى.

ورد في السؤال ذكر الغار. أجل، إننا أفرادًا ومجتمعات نعيش اليوم هجرةً كتلك، وحياةً أشبه بحياة الغار يومئذٍ؛ إنهم ما كانوا بالأمس يتركون أي إنسان قطّ، وما كان لِيفلح أو ينجو منهم من يَظهر على الساحة ويجهر بمبادئ الإسلام، كان هذا بالأمس، واليوم أيضًا وإن بدا أنه أخفّ؛ كانوا يطاردونه سنين عددًا أيًّا كانت سنُّه أو حالته وكأنه أحد قطّاع الطرق، بل يحكمون عليه دون أن يأذنوا له بالتعبير عن أفكار تخدم الأمة والوطن والدين، فهذه الأمور تُعَدُّ مظاهرَ لحياة الغار مِنْ وجهٍ آخَر.

وختامًا نشير إلى وجهٍ آخر للمسألة: على كلِّ الرَّاغبين في خدمة هذه الأمة أن يعدّوا خططًا طويلة المدى، ويستعدوا من الآن لتحمل المسؤوليات والأعباء الثقيلة التي ستُلقى على عواتقهم في المستقبل؛ فلا بدّ من رسم خططٍ دائمة لتبليغ حقائق الدين حتى إلى أعداء الله ورسوله الذين يعادون من يخدمون الدين، بل يفعلون ما هو أكثر من العداء؛ إذ يريدون الحجر على حياة هؤلاء الدعاة وشلَّ حركتِهم. نعم، من الناس من يرى هذه الأمور سلبية صِرفًا، وأنا أرى خلاف ذلك، فإن هذه الخدمات خالدةٌ واعدة بمستقبل مشرقٍ لأمتنا؛ لذا عُدَّ هؤلاء إيجابيين وفعَّالين مطلقًا.

أجل، لقد انصرم الأمس... وأوشك اليوم أن ينقضي... أما الغد، فـلا نـدري سـنُبَلَّغُه أم لا؛ لـذا علينا أن نعـدّ لحظتنا هـذه هي عمرنا الحقيقي، ونستثمرها ولا نضيعها.

الفصل الثاني

البُعد الفكري

النظام العالمي

سؤال: كيف ينبغي تفسير مشكلات النظام العالمي ومواجهتُها؟

الجواب: كلٌّ يتناول هذه المسألة ويقيّمُها في ضوء رؤيته ووفقَ تفسيرات شتّى؛ وهذا أمر طبَعِيّ جدًّا؛ فتجد أنّ من ذاقوا ويلات الشيوعيّة قد يرتضون الشوفينيّة طريقًا للخلاص فيتوجّهون إليها؛ فمعظم الشعوب في آسيا مثلًا تتّجه اليوم إلى تاريخها القديم، وإلى قِيَمها وأخلاقها الخاصة بها؛ وبهذا أمكن تقييم ما استجدَّ اليوم من تغيُّرٍ لدى الروس والأوزبك والأذريّين...

وثمّة تغيُّرات مختلفة بالمعنى نفسه تحدث اليوم في أماكن أخرى من العالم؛ وهي "تغيُّرات" و"تكوُّنات" طبَعية طالما أنها لم تضرّ بغيرها؛ وإذا عُثِر على السبل والأساليب التي تجعلها أكثر نفعًا وفائدة فهذا يضمن ألّا يُسقَط في أيدي البشرية لاحقًا.

إن بعض تلك التغيّرات تتمحور حول الدين؛ ونرى لهذا الضرب من التغيرات فعالياتٍ منظَّمةً أو متفرقةً في عدة أماكن في العالم، وهذا ليس كغيره؛ إذ إنّه يُنظَر هنا في كل مسألة إلى أن "الدين هو الأساس"؛ ولهؤلاء رغبةٌ طبعًا باستغلال اضطرابٍ كهذا في تحقيق رؤيتهم، ووضع الناس في الموضع الذي يقتضيه الدين؛

ومـن الطَّبَعـيّ في مصالح القوى التي احتلَّت العالم عدة مرات حتى الآن أن تسعى للاستفادة من مرحلة إعادة الهيكلة هذه.

فهـل هنـاك توافق تامّ بيـن تلك القوى؟ كلّا، ألبتـة؛ غير أن هناك قناعة سـائدة بأنهم يسـعون من أجل التفاهم والاتفاق والاتحاد فيما بينهـم مـا أمكن؛ ومعلومٌ أن رؤية إنجلتـرا لهذا الموضوع لا تختلف عـن أمريـكا. نعـم، ربما اختلفـت آراؤهم قليـلًا في "سـراييفو" غير أنهـم على خُطـى أمريكا ماضون... وقد يبدو أحيانًا أن لفرنسـا آراءً مختلفة، ومردُّ هذا عجزُها عن تحصيل حصّتها كما تتمنّى في عملية إعادة الهيكلة والتكتّل الجديد، ولا شـكّ أن هناك محرومين آخرين ينزعجون الآن...

وثمـة دول لا يُـدرَى أهـي منزعجة مـن الوضـع الحالـي أم لا؟ وفهـمُ موقفهـا متعـذرٌ تقريبًا كمـا الأمـراض التي يصعب اكتشـافها وتشـخيصها؛ علاوةً علـى أنهم لا يرغبون أيضًا فـي محاصَّة الغنيمة العامـة، ولا يتضـح ما الـذي يريدونه الآن؛ إنهم يتمنون "السـلم في العالم أجمع"... يتمنون لو أن العالم أجمع يعيش في أمن وسـلام، والواقـع يُظهر أن الأمر ليس كذلك.

هـذا ولكلِّ مجتمـع تغيُّرٌ داخليّ ينتظره؛ وبدهيٌّ أن توقيت ظهور أمل كهذا يختلف من دولة إلى أخرى، ولا شـك أنه سـيختلف؛ لكن يتعـذّر تنـاول كل دولـة وتحليلها علـى حدة، فلنذكـر بعض مطامح مجتمعنـا فحسـب: إن مجتمعنا يَقِـظٌ، فَطِنٌ، ذكيّ، ويومًا ما سـيتبنّى التغيير الأنسب لماهيته مصغيًا إلى صوت ضميره وحدسه، وسيحقِّق

هــذا التغيير، وقد نتجَ عن شـعورِ أهل بلدنـا بموقف كهذا اختلافاتٌ فكريّة، وأرجو أن يكون أربابها جميعًا مخلصين فيما يقولون ويفعلون ولمصلحة الدولة يعملون، ولنسـلِّمْ بأن هذا القدر من الاختلاف في الرُّؤى والتصورات طبعيّ جدًّا، بل له وجهٌ مفيد.

هــذه نظـرة عامّـة، وهلـمَّ -إن شـئت- إلى ملاحظـةٍ فنيّةٍ يسـيرةٍ في هذه المسـألة: يسـتحيل إقامة عالم بالمسـتوى المنشود بالحرب والضرب وسـفك الدمـاء، ولو حدث لاسـتحال أن يحظى بالقبول، ولـم يغيِّر هذه النتيجةَ إلبـاسُ عمليات العداء والاحتلال التي وقعت بالأمـس لباسًـا آخَر مموَّهًـا تمويهًا لا ينطلي على أحـد اليومَ. أجل، لقـد غدا "الصليـب" المعتدِي الوحيد بالأمس رفيـق "الهلالِ" اليوم، وما زال الأمرُ هكذا؛ وهذه الفعال القبيحة الـمُرائية ستنال نصيبَها من خلال ردود الفعل والاعتراض على كلِّ ما هو سيئ، فمن المفيد أن نكرّر بشكل واضح قاطع أنّ كلَّ نظام يُقام باستخدام القوة الغاشمة سرعان ما ينهار، وأول من سيرزح تحت أنقاضه صانعوه.

ولعـلّ أبرز مثـالٍ على ذلك كوريا وفيتنـام والخليج والصومال؛ لكنَّ نماذجَ ردود الفعل القادمة سـتكون أشـدّ من هـذا؛ إذ إنّ ما في قاعـدةِ العالم الإسـلامي اليوم من تعاطف مـع العوالم الأخرى بدأ يتلاشـى وتحلّ الكراهية محلَّه، وستستمرّ تلك الكراهية على أشدّها ما لـم يغيّر الطرف الآخر سـلوكه السلبيّ؛ ودول "الطرف الآخر" كما نسـميها تدرك هذا في الواقـع؛ لذا فإنهم رغم كلِّ شـيء قد يعرِضُون مشـاهد تُعَـدّ عندهـم نوعًـا من التنـازل، فلنقـل بصراحة -لا سـيّما

بعـد موقفنـا الأخير من إسـرائيل-: إننا مُنينا أيضًـا بنصيبنا الوافر من الكراهيـة، وربما تزلزلت تلك الثقة والمودة التي كنا نحظى بها لدى شـعوب العالم الإسـلامي وإن لم تكن موجودةً لدى حكامه؛ لذا من المتوقـع أن يزداد موقفنا صعوبةً، ولن نستطيـع أن نجذب مرةً أخرى ذلك العالم المُستاء حتى نكوّن الطاقة الهوائية الأكثر جذبًا وقوّة.

وفـي المثل "الجـزاء من جنـس العمل"، ومن بنـى على أنقاض ما هدم غارَ به وتحطَّم؛ واليوم لو تأمّلنا ما حولنا في ضوء قضيّة تكرّر الأحداث التاريخيّة لبدى لنا ما ينتظرنا في المستقبل أكثر وضوحًا.

أجـل، إن العالـم في طور إعـادة الهيكلة حتـى وإن لم يكن كما يصوّرونه اليوم، سـيتحقق هذا بلا ريب حين يحين وقته، غير أن مَن سـيضطلع بتحقيقه ليس من يقف على خشـبة المسـرح الآن بل من هم خلف السـتار يرتقبون نضج الأحداث، هؤلاء هم من سينشـئون عالـمًا في مناخ من التسـامح والرأفة والمودة، بدلًا من عالم منصهر بالحقد والبغض... وفي هذا الطور من إعادة الهيكلة ستقبل الإنسانية راغبةً مُحبِّذَةً رؤيتهم.

فـإن أصحـاب العمل والجهد الذين رفعَهُـم الضمير المجتمعي العـام على عرش القلوب بانشـراح وسـرور سـيخلّفون آثـارًا باقية، وسـتخلد آثارهـم على مر العصور والأزمان ولو صـاروا رُفاتًا، إنني علـى يقيـن أنّ مـا ينبغي القيام به اليوم هو هـذا الضرب من الخدمة، وعلى قناعة تامّة بأنّ أحلام المسـتقبل الربيعية العطرة لن تتحقق إلّا فـي ظلّ مثل تلك الجهود والأنشـطة؛ لـذا أوصي إخواني وأصحابي

المقرّبين أن ينهضوا بأعمالٍ وأنشطة مفيدة خالدة، لا بجهودٍ موسمية يسـيرة مؤقّتة لا تَعِدُ بمستقبل، بل إنني لن أتوانى عن تكرار النصائح نفسها ما دام فيّ عِرْقٌ ينبض.

نفحات البعث في العالم

سؤال: في ضوء التطوّرات الراهنة كيف ترون عمليات الإحياء للقيم الأخلاقية والروحية؟[٢٢]

الجواب: للمسألة وجهان: أحدهما خاصٌّ بنا، والآخر لا طاقة لنا به، فمن الوجه الأوّل نقول: لا بدّ من تنفيذ هذا الأمر لله استجابةً لأمره فحسب، وإذا لم يكن ابتغاء مرضاة الله تعالى وإعلاء كلمته وراءَ ما يَقضّ مضجعنا ويَذهب بمهنئنا ويحول بيننا وبين اللذات ويرهقنا ذهنيًّا وجسديًّا، فإنه يذهب سُدًى. أجل، إن إخلاص النية هو روح كلّ عملٍ فعلناه أو سنفعله، فإن غابت هذه الروح لم تعد لأعمالنا أية قيمة إيجابية ألبتة.

يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾ (سُورَةُ الأَنْفَالِ: ٨/٢٤). أجل، إنها مسألة إحياء، ومسألة بعثٍ وانبعاث، ويمكن أن يتجلّى هذا الانبعاث من خلال الدين بأن يغدو روحًا للحياة كما نصّت الآية.

---

(٢٢) جمع هذا السؤال من حديث جرى في شهر يونيو عام (١٩٩٤م).

ولا ينبغـي أن نخلـط رغباتنـا وتطلعاتنا الخاصة بمـا نضطلـع به مـن أعمـالٍ يُبتغَى بها رضوان الله أي نيلُ مرتبة الرضا التي هي أعظم المراتـب: فمثلًا قد نـرى أن حقيقة دخول الكافرين جهنمَ تؤدّي إلى اكتئابٍ جزئيّ لدى بعضٍ من ذوي النفوس الحسّاسة؛ وهذا خللٌ في الموازين، وهكذا الحدود الشـرعيّة قـد نضيِّق نطاقَها بدعوى القضاء علـى البغـاء الممقوت بل قد نفكّر في تقييد بعض الحلال، وكلّ هذا يُخـلُّ بالتـوازن؛ فالذي لنا وعلينـا هو تنفيذ ما أُمرنا بـه في حدود ما نُؤمر ونُكلَّف به فحسب.

أمَّـا مـا لا طاقة لنا به فهو هدايـة الناس جميعًا لرسـالتنا، إنه أمرٌ يفـوق قدرتنا، بل ليس من شـأننا، فهدايتهـم أو عدم هدايتهم موكولٌ إلى الله ﷻ، إن حظيت أحاديثنا بالقبول علينا أن نعرف ونعتقد أنَّه لا يـد لنا فـي ذلك قطّ، فهو ليس ثمرة ذكائنـا ولا معرفتنا ولا مهاراتنا، وإنمـا هـو لطـفٌ ربانـيّ، أمّا إن لـم نحْظَ بحسـن القبـول فلنراجـع أنفسَـنا ونحاسبها، لنمحِّص مشاعرنا ونياتنا وعباداتنا؛ لنراقب أنفسنا ونحاسـبها دائمًا، ولا نيأس ألبتة، فكم من قاماتٍ باسقة وعمالقةٍ في الفكـر والمنطـق لم يتبعهم إلا بضعة أشـخاص قلائل، وكم من أهل الإلهـام والواردات عبروا من هذه الدنيا ورحلوا عنها ولم يتبعهم إلا قليل أو لم يتبعهم أحد؛ فالإيمانُ نورٌ يقذفه الله تعالى في قلب العبد، فتنويـر القلـب بذلك النور أمرُهُ إليه وحده سـبحانه، فهو وحده منوِّرُ النور.

ثـم إنّ هذه الخدمة خاصَّة برسـول الله ﷺ ابتـداءً، ثم حمَلَها فردٌ ذو قوة قدسية، وارثٌ للمنهج المحمدي في القرن العشرين، الكتابُ والسنة مصدره، والحكمةُ مسلكُه، بنى حياتَه على ذلك ليمثِّل الحقيقة الأحمديّة، ثم سـار بعناية الله تعالى في هذا الطريق، ولـم ينسـب إلى نفسـه شـيئًا، بل لطالما كان يُحاسب نفسـه قائلًا: "يا نفسي المرائية! لا تغتـري قائلةً: إننـي خدمت الدين؛ فإن الحديث الشـريف صريح "**إِنَّ اللّٰهَ يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ**"(٢٣)، فعليك أن تَعُدِّي نفسِـك ذلك الرجل الفاجر، لأنكِ لسـتِ مزكّاةً(٢٤)، وأمضى عمره يحاسـب نفسـه ويراقبهـا ويقـول لها: "لا تَرَي نفسَـك مظهرًا لتلك المحاسـن وتلك الطيبات؛ فيا نفسي لا تقولي إنني مَظهر الجمال؛ فالذي يحوز الجمـال يكون جميـلًا، كلا إنك لـم تتمثلي الجمـال تمثلًا تامًّا؛ فلن تكوني مَظهرًا له بل مَمَرًّا فحسب"(٢٥).

وجـاءت الأجيال اللاحقة فألفَتْ أنفسـها فـي ربيع هذه الخدمة الجميلة، وباتت تنتظر قائلةً: تُرى هل يكلفنا المولى بشيء أيضًا؟ فإذا بالحق تعالى يسـتعمل عباده مرّةً أخرى في أمرِه، فإنّ ما نراه اليوم ما تحقق إلا بمحض عنايته ولطفه سبحانه، ويمكن أن يقال: إنها ثمرات قد تَفُوق سعي الأقطاب، وجهد المقرّبين، ومساعي الأبرار.

إذا الحقُّ تجلَّى يسَّـــر الأمـرَ
وسبّـب الأسبـاب وأجـزل الأجرَ

(٢٣) **صحيح البخاري**، الجهاد، ١٨٢، القدَر، ٥؛ **صحيح مسلم**، الإيمان، ١٧٨.

(٢٤) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **الكلمات**، الكلمة السادسة والعشرون، الخاتمة، ص ٥٤٣.

(٢٥) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **الكلمات**، الكلمة الثامنة عشرة، المقام الأول، الملاحظة، ص ٢٤٨.

ولا يُتوقــع مثل هــذا الأمر من أناسٍ بعضُهم عليلُ المزاج، كُتب لهــم أن يســيروا في هذا الطريق الذي نســأمه أحيانًا ونهــمّ بالهروب والفرار منه، ثم ندرك تفرّق غيره من السبل وضلالها فنعود إليه ثانيةً؛ ولو تنزّلَتْ نفحاتُ التشــريف والإحســانِ بإخلاص قوم وجِدّهم لِما يضطلعون به من أعمالٍ، فبدَهيٌّ أنَّ الله تعالى هو مَن فَعَلَ كلَّ شيءٍ؛ فعلى المرء ألا يعكِّر هذا العملَ بتشوّفاته المستقبلية وأوهامِه وغيرها من خواطر مختلفة، وألا يُفسِدَ بسيّئ رغباته كثيرًا من ثمار جَنْيِه، فإن صفــا العمل ولــم يُدنَّس فقد تُحقِّقُ لنا النجاةَ في الآخرة أنواع العناية واللطف التي ما زالت تُمطرِنا زخًّا زخًّا، ونبعُ اليمن والبركة والخير هذا من شــأنه أن يســدّ حاجات الأجيال القادمة المعنوية والأخروية، فإن دنسناه تعذرت الاستفادة منه حالًا ومآلًا.

ينبغــي أن نُعنَــى بهــذا، وأن نراقب أنفســنا ونحاســبها، نفعل هذا ولا نفتأ نراقب أنفســنا، ومن شــأن ســحائب اللطف التي تتنزل علينا زخًّــا زخًّــا أن تُحــرّك وتُوقظ شــعورَنا بالعبودية أكثر ممــا نحن عليه الآن، فتتعمق عباداتنا أكثر فأكثر، وتغدو ســجداتنا بابًا للوصال برب العالميــن لا نبرحه أبدًا؛ فبالشــكر تدوم النعم وتــزداد، أمّا إن كنا نهذّ صلواتنــا هــذًّا، وتجرفنــا فلتات مشــاعرنا الشــهوانية، ولا هــمّ لنا إلا الأجوفان، فهذا -نســأل الله الســلامة- يعكِّر صفو الخدمة في ســبيل الله.

التاريخ في دورانٍ دائم

سؤال: إذا كان التاريخ يعيد نفسه فما نمط الصورة البارزة للعِيان عند تأمُّل الأحداث الجارية في العالم؟

الجواب: يمرّ العالَم كَرّةً أخرى في شبكة أزماتٍ معنويّة. أجل، إن الله يُزلزل العالَم مرّةً أخرى؛ وكما أنّ لأمريكا وألمانيا أكثر البلاد رفاهيةً واستقرارًا نصيبًا من ذاك الزلزال، كذلك الدول الأخرى على التسلسل وفقًا لأحوالها ومواقفها، وكذا تركيا أيًّا كان نصيبها.

وسقوط العالم مرّةً أخرى في الأزمات إن هو إلّا نتيجةٌ، ما أكثرَ أسبابها! بل يتعذر إحصاؤها، ومنها:

١- نقص جوانب في القيادة لدى حكّام العالم، ومقصودُنا بمصطلح "قائد" مذكورٌ في مقالة "القائد"(٢٦)؛ فللقائد سمات وخصائص ضروريّة، وعند تأمّل المعايير المذكورة في هذا المقال يتبين كم يعاني العالم من الفقر إلى القائد والحرمان منه؛ وهذا أمر مستشرٍ مرعب لا يجوز الاستخفاف به في هذه الأزمة والضيق العالميّ المُطبِق.

---

(26) Fethullah Gülen, Çağ ve Nesil-4, Zamanın Altın Dilimi, Lider, Nil Publishing, 2012- İstanbul, p. 213-216 (لما يترجم بعد).

٢- إدارة اقتصاد العالم من قبل الجهَلَة للحياة الاقتصادية هي سوءُ طالعٍ يُنذِر البشرية، فالإنسانية تتلوّى الآن من هذا النحس، ويا عجبًا لخطإٍ يعرفه الناس جميعًا اليوم ويُكتب له البقاء مدةً أخرى رغم كلِّ شيء!

٣- الإسراف من أهمِّ الأسباب في رأيي. أجل، إنه يسيطر على الدنيا بأسرها اليوم، وحيث يطغى الإسراف فمن المحقّق والمقدّر طبعًا أن تُفتقد مقوِّماتٌ مهمّة، وفقدُها يزجُّ بالدنيا في أُتُونِ أزمة فأخرى؛ لقد كان عيش الناس قديمًا الكفاف، وهذا معيار كل شيء عندهم، سواءٌ في ذلك الغذاء الذي يشترون أو الملابس التي يرتدون أو الأمتعة التي يستخدمون، ومنتهى آمالهم أن يكونوا أثرياء بمشاعرهم وأفكارهم وثقافتهم؛ فانقلبت المسألة اليوم رأسًا على عقب.

ومعنى الإسراف الجهل بقدْر نعم الله وقيمتها، وتبذيرها وتبديدها؛ فظهور الإسراف في مكان يجلب "القحط" معه، وربما يظهر هذا في صورة انقطاع البركة، ولما تطرَّقَ لهذه المسألةِ الأستاذُ بديع الزمان عُنِيَ بالمسألة نفسِها فقال: "الاقتصاد سبب البركة، أما الإسراف فهو ذريعة لانقطاعها"[٢٧].

ويمكن سرد أسباب كثيرة للأزمة، غير أننا لن نقف عندها كثيرًا لنتناول الموضوع من زاوية أخرى. أجل، زُجّ بالدنيا كَرّةً أخرى

(٢٧) بديع الزمان سعيد النُورْسِي: **اللمعات**، اللمعة التاسعة عشرة، النكتة الأولى، ص ١٩١.

فـي هـوّة أزمةٍ روحيّةٍ، والتاريخ يعيد نفسـه، فالأنفـع تناول المسـألة في ضوء فقهنا لمعنى قولهم "التاريخ يعيد نفسه":

أجـل، التاريخ مليء بالأحـداث المتكرّرة، لكنها لا تتكرّر بعينها بـل بمثلهـا وشـبهها، ولو كان الأمـر خلافَ ذلك لاتُّعـظ بالحوادث نفسـها، ولم تتكرّر الأخطاء نفسـها، فتكرُّر التاريـخ تؤخذ منه العِبَر، وإن شئتم فانظروا من منظور كهذا إلى الأزمة التي يعاني منها العالم الآن.

ولطالمـا لوحظ في الأحداث التاريخية المتكررة أن شـدّة الحقّ تعالـى علـى النـاس وتضييقه عليهـم كان مفتاح الانفتـاح نحو آفاق جديـدة فيهـا مصلحـة الإنسـانية غالبًـا، وهـذا علـى مسـتوى الفرد والجماعـة، أي إنّ بلوغَ الأزمات الشـخصية الـذروةَ ينذر بأن الأزمةَ أوشـكت تنفـرج؛ ولطالما شـحذت الأزماتُ الاجتماعيـة المجتمعَ ووجّهتـه نحـو آفاقٍ جديـدة، ويحضرني هنا كلام جميـل يُعزى إلى النبي ﷺ: "اشْتَدِّي أَزْمَةُ تَنْفَرِجِي"(٢٨).

وبيـن الفـرد والمجتمـع تشـابُهٌ يكاد يغـدو تطابقًا، فلنبـدأ بالفرد لِتُمكنَ المقارنة: إنّ حالات الانبساط الشخصي قد تتبعها انقباضاتٌ وجدانيّـة وروحيّـة، وقد يتغير الحال وينعكـس؛ ومردّ أحوال القبض أحيانًـا إلـى بعـض الذنوب والغفلة، فيسـرح الإنسـان فـي مناخ من الفرح ويمضي حياته في اللهو، ثم تصيبه حالة من القبض عقابًا على ذلـك الفعل؛ ويبدو أن الروح تسـتجدي حالـةً كهذه، إذ زيادة الراحة

(٢٨) القضاعي: **مسند الشهاب**، ١/٤٣٦؛ الديلمي: **مسند الفردوس**، ١/٤٢٦.

والاسترخاء تُحدث أزمةً في الروح؛ فهي كثيرًا ما تنزعج من الأفراح الماديّة، وترغب في العيش في شدٍّ معنويٍّ نحو الآخرة.

إن يد القدرة بتعريضها الإنسانَ لحالة القبض تُوقِظه من فتوره ودَعَتِه، وإنما ينزل الله تعالى بالإنسان هذه الحالة ليردّه إليه سبحانه، وهذا كالأمّ تضرب طفلها ضربًا خفيفًا لتمنعه من الخطإِ، ثم تضمّه إلى صدرها.

وفي موقف كهذا تضيق السبل وتوصَد الأبواب، وتتلاشى الأسباب واحدًا تلو آخر، فيُعرِض عنها الإنسانُ ويُوجّه وجهه نحو مسبِّب الأسباب سبحانه، فمقصد الحقِّ سبحانه في الحقيقة ردُّ الإنسان إليه؛ فلو أدرك الإنسان السببَ الحقيقيَّ لِما حلّ به من ابتلاء، ورجع من فوره إلى الحقِّ ﷻ لَتحقّقت له الغايةُ من الابتلاء؛ ويتطلّب بلوغ هذه النقطة شعورًا وفهمًا وإدراكًا بأنه لا يحدث أمرٌ في الكون كلِّه إلّا بتدبير الله لا صدفةَ فيه ولا جزاف، وقد أشار الأستاذ بديع الزمان إلى هذه المسألة في الكلمة الثامنة من كتابه "الكلمات" عند حديثه عن قصة شخصين سقطا في بئرٍ فرأيا فيها أشياءَ غريبةً، فأحدهما محروم من البصيرة والنظر فيما وراء ستار الوقائع والأحداث، وأما الآخَر فمن أهل البصيرة والدراية، فراح يحدّث نفسه في ضوء هذا قائلًا:

"هذه الأمور لا تُشبه الصدفة أبدًا، بينما كنت أجري في الصحراء كان هناك أسد يتتبعني، فإذا بي أسقط في البئر وأستمسك بغصن إحدى الأشجار؛ وأرى فأرين أحدهما أبيض والآخر أسود، يقرضان

الشجرة من جذرها، وتِنّينًا فاغرًا فاه في الأسفل يترقّب لحظة سقوطي، وأسدًا في الأعلى يهدّدني بشكله المرعب، يستحيل أن يكون هناك من تعرض لمثل هذه الحوادث في آنٍ واحدٍ، واضح أن ثمّة أحدًا يعرفني خطّط لكلّ هذه الأمور من قبل، لكي تحدث معي الآن"(٢٩).

وهكذا ينبغي أن يفكر كلُّ من عرضت له حالة القبض، ويقول: "هذه الحوادث التي تُحكم عليّ قبضتها تُنزلها بي قوّة تفوقني، وما أنا إلا شخصيّة ثانويّة في هذه المسرحيّة"؛ ولا يكتفي بهذا فحسب، بل يتوجّه من فوره إلى من يسوق الحوادث إلى تلك الجهة، ويمسك بزمام عالم الخلق كلّه في قبضته ﷻ.

هذا حال الفرد، ومثله المجتمعات، فالمجتمع كالفرد، يُمسَك أحيانًا بمخلبٍ من حديد ويُشدُّ عليه، وتلك هي حالة انقباض المجتمع؛ والواقع أن نصيبنا من هذه الحالة بدأ ونحن على مشارف القرن التاسع عشر، إذ تتابَعَت الخسائر والإفلاس، خاصةً بعد "التنظيمات"(٣٠) فقد خسرنا في مواقف هي أدعى للكسب، وطالت حالة القبض هذه لأننا عجزنا أن نرجع ونتوجه إليه سبحانه، فطَرقْنا الأبواب الخطأ، وابتغينا المدد والعون من غير مظانّه، فمثلًا ساد الولع بالفرنسيين زمنًا، وبالإنجليز زمنًا آخر؛ حتى إن عبارة "الدولة

(٢٩) انظر: بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **الكلمات**، ص ٣١-٣٢.

(٣٠) يطلق مصطلح "التنظيمات" على مجموعة الإصلاحات التي أدخلها السلطان عبد المجيد في عام (١٨٣٩م). وقد انتهى عهد التنظيمات بإغلاق مجلس النواب عام (١٨٧٨م).

العظمى" اسـتخدمت في "الباب العالي"[٣١] كناية عن الإنجليز، فهذه العقدة التي تسـللت إلى روح الدولة قد دبَّت في أرواح أفرادها فردًا فردًا، وأخذ كلٌّ نصيبه، وغدا عُرْضَة للاضطرابات.

ويومئذ عاش كلٌّ من الشعب والدولة حالة من الانقباض، ووقعنا دولةً وشـعبًا في ضغط معنويّ وروحيّ كما يحدث للفرد في أزمات الضمير والفكر، واليوم تتكرر تلك الأشياء، غير أنها ليست مقصورةً علينا نحن فحسب، فالعالم جميعه يمرّ اليوم بأزمات مررنا بها قريبًا، فطبعـي أن تتأثـر بلادنا أيضًـا بهذه الأزمات؛ ولا بد من دراسـة هذه الفترة الحرِجة من زاوية تكرر الأحداث التاريخية كما ذكرنا، أي كما أن كل أزمة سـبقت غدت بدايةً لحالة جديدة من الرفاهية والانفتاح، سـتتحول أيضًا الأزمات الشـدائد اليوم إلى جسـر وراءه رَفَاه جديد؛ أليست وظيفتنا إذًا الإعداد لفترة جديدة من الطمأنينة والرَّفاه البشري؟

ويمكـن تطبيـق رؤيتنـا لتكـرّر التاريـخ علـى فعّالياتنـا العلميـة والمعرفية الخاصة بنا، فمتى عرض لتلك الأعمال القبض خرجنا منه برفاه وبسـطٍ حتمًا، وأصبحت مرحلة القبض منطلقًا لمرحلة جديدة؛ وعندئـذٍ لنقـل باطمئنان: إنّ الأشـياء نفسـها سـتحدث وفقًـا لمعيار التماثل: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (سُورَةُ الشَّرْحِ: ٥/٩٤).

(٣١) يطلق في الاصطلاح العثماني على مقر رئيس الوزراء أو مقر الحكم في الدولة العثمانية. وقد أنشأه السلطان محمد الرابع عام (١٦٥٤م)، وأطلق فيما بعد اسم المكان على ساكنه وهو يعني رئيس الوزراء، وكان للباب العالي أهيمة كبيرة في القرن التاسع عشر الميلادي وعلى وجه الخصوص في عهدي السلطان عبد العزيز والسلطان عبد الحميد الثاني. (سهيل صابان: **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض - ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص ٤٩).

حياتنا الثقافية ومتطلباتها

سؤال: ماذا تتطلّب منّا حياتنا الثقافية اليوم؟

الجواب: أهمّ وظيفة تقع على عاتقنا اليوم هي خدمة الحياة المعرفية لهذه الأمة، فلو عرقلنا هذا العمل المهمّ لتعرقل كلّ شيء، وأرى أنّ أضَرّ الرجعيةِ والتخلفِ والتأخرِ هذا الوضعُ، فعند التردِّي في وضعٍ كهذا من المتوقع ألا يُعنَى بقضايا العصر أو يُعنى ولكن بعد فواتِ الأوان؛ إنكم إن فقدتم روح التجديد مع الاعتصام بالأصول -أي القرآن والسنة واجتهادات المجتهدين الخالصة ودساتير الإرشاد والإخلاص- فلا تقدرون على تحليل المستجدات المتتالية تحليلًا صحيحًا، والتعرفِ على الألطاف الإلهية والتواؤم معها، وإذا بِكُم وأنتم تنوون الإرشاد كأنكم تدعون الناس إلى دهاليز مُظلمة قائلين: "هيا أيّها الإخوة -نحن الأربعة أو الخمسة- لنقرأ هنا من مناقب الصالحين"، فتتسلَّون بها، والحال أن الظروف قد تغيرت وأحوال العالم قد اختلفت، فها هي ذي القضايا الإسلامية ما عادت تُبحَث إلا في المحافل والمؤتمرات، فالمؤشرات الخاصة بظروف اليوم توجهنا إلى الجامعات والأكاديميات ومراكز البحوث.

واليـوم أمامنـا عـدة قضايـا يجب حلّها سـواء في مجـال العلوم الطبيعية أم في مجال العلوم الدينية، يقول مفكّر العصر بديـع الزمان وهـو يوقظ العصر بكتابه "المحاكمـات"، ويحفز الألبَّاء إلى التفكير: "أرى أن الأمة الإسلامية خاملةٌ منذ ثمانية قرون"، فالعالـم الإسلامي أجمـع لم ينشـأ فيـه عالم يلمّ بمشـكلات العصر خـلال مدة بلغت بضعة قرون.

نعـم، وإن توّجْنـا هاماتِنا ببعض علمائنـا وقدرناهم حقّ قدرهم، إلا أنّ هـذه العظمة مقصورة على نظرتنـا لهم، فوضعهم تيجانًا على رؤوسـنا ليس تعبيرًا عن العظمة الحقيقيّة؛ فالعظمة الحقيقيّة بأبعادها الحقّـةِ كانت فـي القرن الهجـري الأول والثاني والثالـث بل الرابـع أيضًـا، ويمكـن أن يتحقّق نحوها في يومنا هذا. أجل، حدثَ نوعٌ من الركـود في القرن الخامس الهجـري، فالمدارس النظامية كانت تبدو فيـه كأنهـا البدايـة والنهاية، فلنـا أن نقول: إن العالم الإسـلامي أخذ آخِـر ما أخـذَ من المدارس النظامية، ورغم أن هذا النبـع الأخير كان مصدر إلهامٍ لكثيرين بدءًا من الإمام الغزالي حتى فخر الدين الرازي، إلا أنـه بعـد ذلك تخلف عن هدفه السـامي وعجز عـن أداء الوظيفة المنوطة به.

واليوم: حدثت وسـتحدث عثرات وكبوات وتأخُّر في فهم أمورٍ تخـدم أمّتنـا، ومن المفيد عرض تقرير للتذكيـر بوقائـع كثيرة تعرض لكثيريـن في كل مرحلة نمر بها، فيتعثـرون ويتحتم عليهم تجاوزها،

ومردها إلى حياتنا الثقافية، بداية من تهيئة جوّ مناسب للطلاب حتى إنشاء النُزُل والمدن الجامعية والمدارس، وهذا كأنه تنويه بما يجب اتّخاذه من تدابير عند الدخول في تكتّلاتٍ متنوّعة.

أجل، حدث هذا حقًّا، احتدم الجدل فورًا وقامت القيامة عندما اقترح أحدٌ إنشاءَ نُزلٍ طلابي فقيل له: "لم يكن عندنا، أنَّى لنا هذا؟"، ولما اقتُرح إنشاء مدارس اقتضتها الضرورة قال أناس: "هذه أمور لا تُعقَل ألبتة"، وشوّشوا العقول، وإذا ما ظهرت محاولات لإصدار صحيفةٍ أو مجلّة أو إحداث قناةٍ تلفزيونية أو جامعة ونحو ذلك، ودّ أولئك برؤيتهم وفهمهم لو يمنعون تلك الأنشطة الراقية.

فهذا الضرب من الناس لم تبلغ حياتهم المعرفية والفكرية والذهنية أن تدرك عصرهم، وتحجرت عقولهم في مراحل عصرية منصرمة؛ وأظنّ أن عددهم سيتضخم مستقبلًا، إذ ما أكثر من يصعب عليه منهم مواكبة سرعة العصر ذات البعدين: العلم والمعلوماتية، والواقع أنّ ثمة حاجة إلى أرواح ثورية لأجل المستقبل تطمح إلى التجديد بينما كانت مستمسكةً بالمبادئ الرئيسة، ومَن حُرِموا روحًا كهذه إما أنّهم في المستقبَلِ سيُغربَلون أو أنَّهم غيرَهم سيُعَرْقِلُون. نعم، ليس لأحد أن يستهين بإيمانهم وصلتهم بالله وبقضيّتهم، إلا أن مواقفهم تلك تجعلهم مستحقِّين بإطلاق لفظ "رجعيِّين" عليهم.

وأجزم أن هناك مبرِّرًا لما يقوله أهل الدنيا عنا. أجل، إن بيننا كثيرًا من الأرواح الرَّجعية، فهي عاجزة عن أن تكون ثوريَّةً متجدِّدة.

وجلـيٌّ أن الشـيطان أوحـى إلـى أهل الدنيـا بهذا المعنـى، فهم يشـعرون بـه ويطلقون علينا نحـن كلمة "رجعييـن" وإن لم يطلقوها علـى المسـلمين الحقيقين، والمعيـار في هذا لدى بديـع الزمان أنَّه يقـول: "إذا سـرى فـيّ شـعورٌ منافٍ للإخـلاص وإن قـلّ عُذِّبت بيد أهـل الدنيا كأنهم يمتلكون الكشـف والكرامـة"(٣٢). أجل، أهل الدينا مخطئـون ظالمون قطعًا إذ يسـمّوننا "رجعييـن" بالمعنى الذي يرون، لكنّنا إذا نظرنا إلى المسـألة من معاييرنا الحقيقية الذاتية يتبين أنّ في اتهاماتهم قدرًا من الصواب.

وما أودّ عرضه في هذا العرض المسـهِب هو أن نسـأل أنفسـنا: هـل نسـتطيع أن نمثِّـلَ القـرآن الكريـم تمثيـلًا يليق به فـي عصرنا؟ وأن نطبـق مـا فـي القرون الهجريـة الأربعة الأولى علـى الأقل وفق ظـروف عصرنا؟ فـإن عجزنا عن جـواب تلك الأسـئلة بِنعم أوَليس ذلـك -إحقاقًـا للحـقّ- تصديقًا لما يرمينا به قسـم من أهل التعصّب للإلحـاد، وأن الله يُجـري ذلك على ألسـنتهم؟ ويمكن النظر إلى هذا وفقًـا لمعيـار: "إن فـي كل حادثة يد الإنسـان ويد القـدر معًا، ولكن الإنسـان يظلـم من حيث السـبب الظاهـري، بينما القـدر يعدل لأنه من حيث السبب الخفي الحقيقي لتلك المصيبة"(٣٣).

تأمّلوا: إن آخر كتاب فقهيّ أُلِّف في بلادنا على طريقة جمـع آراء أهـل الترجيـح من الفقهاء -دع عنك تأليف أهل الترجيح أنفسـهم-

(٣٢) انظر: بديـع الزمان سعيد النُّورْسِي: **اللمعات**، اللمعة الثانية والعشرون، ص ٢٤٠-٢٤١.

(٣٣) بديـع الزمان سعيد النُّورْسِي: **الملاحق**، ملحق قسطموني، ص ١٧٨.

هـو كتـابُ "ملتقى الأبحـر" لإبراهيم أفندي الحلبـي الذي عاش في عهد السـلطان الفاتح وعمل إمامًا في جامع الفاتح، وكتاب "الدُّرَر والغُرَر" لملَّا خسرو في العصر نفسه، ومرّت عصور عليهما وتغيرت أشـياء كثيـرة جذريًّـا، وكان يجب إعـداد لجانٍ وتنشـئة متخصّصين يفقهون الواقـع، ولِعدَمِ توفّر ذلك راحت القرون الأربعة أو الخمسـة المنصرمة تصبـغ عصرَنا بمثل صبغة السابقين وتُضفي عليه طابعهم، فالحقّ أننا استمسـكنا بأشياء معيّنة ثم عكفنا عليها دون تطويرها منذ سبعة أو ثمانية قرون.

وهذا لا يخالف احترامنا للسـلف الصالـح أوَّلهم وآخرهم، علينا أن نحترمهـم ونذكرهـم بالخيـر ﵃ بعـدد ذرّات الكائنـات، غير أن احترامهم يمكن أن يتحقق بالاقتداء بهم، فهم وَعوا أزمانهم في تلك الفتـرة التي مروا بها واجتازوها؛ ونحن مضطرون لاتباعهم واللحاق بهم.

وما سـبَقَ يمكن عـدُّه مقدمةً ومدخلًا لما سـيأتي: نحن ملزمون بالبحـث عن حلّ لمشـكلاتنا التربوية، والإسـهام في الحيـاة الثقافية للإنسـانية بتراثنـا الثقافـي ومفهومنـا الحضـاري الأصيـل؛ فإنشـاء الجامعات والمراكز البحثية مهمّ جدًّا، ففيها سيقوم العلماء بالتحقيق والتفسـير والتحليـل لـكلِّ ما قيل فـي العلم حتى اليـوم، ويصوغون العلوم من جديد، وإلا فلن نتخلّص من هذه الازدواجية.

وأودُّ أن أشـير بالجملـة الأخيـرة إلى هـذا الأمر خاصّةً: تسـتند العلوم الطبيعية اليوم بكل شُـعَبِهَا تقريبًا إلـى المادية الغربية، فالمادة

هـي الأسـاس عنـد الغـرب، والانفجـار الأول ومبـادئ الديناميكية الحراريـة حقائـق لا جـدال فيها؛ ونحـن عندما نقول شـيئًا فوق هذا مستندًا على حقائق دينية نكون كأننا نرقـع ثوبًا خلقًا؛ وقد اضطلعت مجلات مثل "سـيزنتي (الرشـحة)"، و"ظفر"، و"سـور"[٣٤] -شكر الله سعيها جميعًا وأجزل ثواب كل من عزّزها ودعمها- بخدمات جليلة في هذا المجال.

ثمّـة حقيقـة لا ينبغـي أن نتجاهلهـا: إنّ مردَّ كلّ تلـك التقييمات يرجـع إلى إيجاد تركيبة مـع الفهم الغربي للعلم، وهذا أمرٌ مصطنعٌ حتمًـا، وليس هـو التقييم الحقيقي المنشـود، ومن المؤسـف أننا لم نسـتطع بلوغ هذا المسـتوى حتى الآن، فلم تؤسَّس العلوم التطبيقية وفق أرضية سليمة من زاوية معاييرنا.

إن بعـض كتَّـاب تاريـخ العلـوم مـن المسـلمين اليـوم يقدِّمون فَرَضيَّـات متنوّعة للوصول إلى نتيجة في هذا الموضوع، غير أن هذا لا يمكـن إذا كانـت هذه الفرضيـات تعتمد على تحصيـل العلم من الغرب أساسًـا ثم صَبغِه بصبغةٍ إسـلامية؛ وأظن أنَّه لا يمكن "أَسْلَمة العلـم" طالمـا ظـلَّ على الأرضيـة التي هـو عليها اليـوم، وقد يصل المسـلمون إلى نتيجـة إيجابيّة يومًا ما إذا ما فحصـوا معايير الغرب، وأخضعـوا اكتشـافاتهم للدراسـة المعمليـة والبحـث والتدقيـق من

(٣٤) **سِيزِنْتِي** (الرشحة): مجلة شهرية بدأت تصدر في فبراير/شباط (١٩٧٩م)، يكتب الأستاذ فتح الله كولن مقالها الرئيس، وهي مجلَّة علميَّة، تقنيَّة، ثقافيّة، أدبيّة، تربويّة، اجتماعيّة، وما زالت تصدر حتى الآن.

مجلة ظَفَر (النصر): هي مجلة إسلامية علمية أدبية، بدأت صدورها عام (١٩٧٦م).

مجلة سُور: هي مجلة إسلامية علمية فنية فكرية. بدأت في الصدور عام (١٩٧٦م).

جديـد، فالأرضيـة التي يُبنى عليها العلم اليـوم أرضية خاطئة، وبلوغ الصواب من طريق خطإ أمرٌ مستحيل، فالمقاصد الصحيحة لا بد لها من وسائل صحيحة.

ولا بـد لهذه المَهَمّـةِ المُهِمّةِ من روح ثورية تجدّد النظر في كل أنـواع الاسـتنباط والفكر الموجود الآن، ومنه المسـائل الإسـلامية، وتُخضِعُ كلّ شـيءٍ -عدا القطعيّ في الكتاب والسـنة- للتقييم وفقًا لهذا الفهم الجديد، وبهذا سـنتخلص مـن الازدواجيّة العلمية، وهل يُعقـل أن يرفـض هـذا؟! إن الكون كتاب مسـطور بقـدرة الله وإرادته ومشيئته وعلمه سبحانه، والقرآن الكريم بيان لكتاب الكون هذا، ولا تعارض بين هذين الكتابين أصلًا، وذلك هو الفهم الذي نطمح إليه، وعندما يتحقق هذا نكون قد تجاوزنا عصرنا.

إن الدراسـات الأكاديمية أمرٌ لازم اليوم، ومن القصور قصر هذه الدراسـات علـى العلوم الطبيعية والتقنية فحسـب؛ فـلا بد أن تدرج فيها فروع العلوم الإسلامية كلها مثل الحديث والفقه والتفسير وعلم الـكلام؛ فيلـزم الاسـتفادة مـن أعلى مسـتويات الإمكانيـات التقنية، ففـي الحديـث مثلًا لا بد أن تُراجـع كُتـبُ الرجال مرةً أخرى، وينقد المتـن وفقًـا لمعاييـر علم المتـون؛ فمن المحتمل أن بعض الأشـياء لـم تُلاحظ، والمتأخرون أمثال الدارقطنـي والحاكم والإمام البيهقي أثبتـوا كثيـرًا مما ذهل عنه في علم الرجال، وأدرجوا ذلك في كتبهم، وهذا لا يضير عظمة الإمامين البخاري ومسـلم، وكذلك فما سينجز

اليـوم مـن أعمالٍ بالحواسـيب الآلية ربما يكون أسـلم وأصوب مما حدث في الماضي فيما أظن.

أجل، ليسـت المسـألة هي توجيه الناس إلى الجنة فحسـب، بل إنهـا فتحٌ لأبواب الدنيا كلها لتـؤدّي إلى الفردوس ونحن في طريقنا إلى الجنة، وهذا هو الأصل فيما أرى؛ ويمكن أن يتحقق هذا بالعلم والعرفان والفهم الإسـلامي السـليم الذي نورِّثه للأجيال القادمة، بل نجعلـه روحًـا للحياة، ونقدّمـه بغبطة تتجلّى في قبـول الناس جميعًا لـه، ولا يتـمّ هذا إلا بتناول المسـائل الإسـلامية كلّها على مسـتوى أكاديمي، وأضعفُ الاحتمالات أن الأفكار البسـيطة ووجهات النظر الساذجة قد تَعِد بشيء في هذا المجال.

لا يتـم إحيـاء ثقافتنـا والمحافظـة عليها حيّـة نشـيطةً إلا بأيدي أصحـاب الثقافة الحقيقية، وإن إعـدادَ من ينهضون بتلك المهمة أمرٌ يقـع على عاتقنا نحن.

وعي الصحابة

سؤال: كيف نستلهم وعي الصحابة ونحافظ عليه؟

الجواب: وعي الصحابة هو أفق الوعي، في مستهَل حديثنا ندعو الله تبارك وتعالى ونتضرع إليه أن يُبصّرنا بهذا الوعي لنستشعر حقيقته، وأن يجعل من وعينا بخدمة الإسلام معينًا لآلامنا متدفّقًا على الدّوام، وأن يُشيع بهذا الوعي نوى تلك الآلام في صدورنا، وأن يشغلنا عن أولادنا وعشّنا الدافئ بما فيه من راحة وسكينة حتّى ينعم الآخرون بتلك السكينة.

واليوم لو كنت أهلًا لابتهلت إلى الله الآن أن يهبني بذور هذه الآلام؛ فأطوّف بها في البيوت كلها، وأنثرها على صدور هؤلاء المؤمنين الذين يغطون في سباتهم ولا يستيقظون حتّى يتحسّروا ويتأوّهوا، فإذا ما باتت عقولهم تمتعض من تلك الآلام هبّوا من رقادهم، وطوّفوا في ردهات منازلهم ودهاليزها، فإذا رأيتهم حسبتَهم مجانين، ولستُ أرى النابهين الذين يصنعون المستقبل سوى هؤلاء المجانين.

بـل إنّ لنـا أن نذهـب إلى أنّه لا يكمل دين مـن لا يهمه أمر دينه أو من لم يُصَب بمسّ الجنون أسًـى له وحزنًا عليه. أجل، إننا لننشـد وعيًـا فـي مثل هـذا المسـتوى، والحق أنه شـاقّ؛ إذ الألـم مصدره، والتضجر صبغته، بيد أن ما جاءنا منه سـبحانه فأنعِم به وأكرِمْ، سـواء كان وردةً طريّة أو شـوكةً قويّةً، فإنعامه شائق، وقهره رائق، ولا ريب أن المكابدة والمعاناة في سبيل الدعوة أعذب من هذا كلِّه.

وتتصـدّر الرّاحـة والدّعـة قائمـةَ العوامـل التي تفسـد الإنسـان، وحيثما هبت رياح الفتور فثمّة نفر يسـترخون تحسـبهم أمواتًا كأنما غشـيتهم رياح السـموم، وبدهي أنّه لا يتسـنّى لنا فعل شـيء في هذا الصنف من الناس.

لا بد لنا من جوار صُهارة المعاناة ونيران الآلام في سبيل مستقبل شـعبنا ومصيره؛ فالجرانيت -كما تعلمون- يتشـكّل قريبًا من صهارة البـركان ويتصلَّب ثمَّة حيث يطوِّق الصُهـارةَ ويَحُولُ دون اندياحها، فـلا منـاص من أن نحيا فـي أُوار اللهب والنيران بـل حتّى في حمم البـركان، كلّ ذلك في سـبيل أمّتنـا وبلادنا وفكرنـا... وهذا هو عين الوعي الذي نبتغيه، لكن من أين السبيل إلى ذُرَى معاليه؟

لا أُخفيكـم أنّ بلـوغ مثل هذا الوعي دونـه خرط القتاد، بيد أنني سـأبذل وسعي لاسـتعراض شـيء من خصائصه وسـماته في بضعة محاور:

١- التفكر في الآيات الكونيّة: فلا بد من سبر أغوار كتاب الكون يوميًّا، وإجالة النظر في الوجود والحوادث على الدوام، ومراقبتها وتأمّلها عن كثب، فالتفكر مكّوك ينطلق بالإنسان ويجول به أرجاء الكون كلّه دَفعةً واحدة، بل إنه لَيمضي به قدُمًا لِيخبُرَ أغوار الحوادث والموجودات.

والتفكر ميناء يمخر من خلاله الإنسانُ عُباب الكائنات ليرسو على ضفاف الأسماء الحسنى فإذا بها تُسْلِمُهُ إلى مسمَّاها المقدّس، فيغشى دائرة الصفات في دهشة تغمره وحيرة تقهره، فإذا ما بلغ الإنسان تلك الرتبة اصطبغت مشاعره برضوان من الله وطاوعَت أفكارُه أوامرَه؛ وإن شئت فقل في تلك الرتبة إنها مرتبة "الفناء في الله"، ومن بلغ هذا المقام ألفيتَه يعمل لله، ويتحرك ويسكن ويأكل ويشرب في سبيله، ويطوّف في دائرةٍ يرضي بها ربّه ويبتغي بها وجهه.

إن مكّوك الفكر يرقى بالإنسان إلى الله صُعُدًا؛ لذا رُويَ: "فِكْرَةُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سِتِّينَ سَنَةً"(٣٥)، إذ إن العبادة ترقى بالإنسان إلى ربّه أفقيًّا، أما التفكّر فيقرّبه من الله ويرقى به إليه سبحانه عموديًّا؛ ومن هنا شبهتُ التفكر بالميناء والمكّوك؛ فالإنسان بالتفكر كأنّه صاروخ يرتقي قممًا، يبلغ آفاق سماء القرب الإلهي بلمح البصر، فتحفّه السكينة ويغشاه الاطمئنان.

(٣٥) أبو الشيخ الأصبهاني: **العظمة**، ٢٩٩/١.

٢- وردٌ دائم من الكتب المفيدة التي تفيض علينا بالعطاء والبركة على قدر صلتنا بها، وتخصيص وقت مبارك لقراءتها يوميًّا، وجعلها جزءًا من حياتنا.

٣- العكوف على قراءة الآثار التي استعرضت حياة الصحابة الكرام رضي الله عنهم للتأسّي بها، فهذا من شأنه أن يشحذ طاقتنا الميتافيزيقية الدافعة، ونستكشف به طريقنا نحو استلهامنا لوعي الصحابة، فهم الأسوة، وهم مشاعل الهدى، بل هم أشبه بالنجوم التي في السماء كما أشار إلى ذلك ﷺ بقوله: "**مَثَلُ أَصْحَابِي مَثَلُ النُّجُومِ، مَنِ اقْتَدَى بِشَيْءٍ مِنْهَا اهْتَدَى**"(٣٦)؛ وعليه، فمن لم يتجمّل بالصفات التي امتاز بها الصحابة الكرام من تطوّع ومحويّة وإيثار ولم يتحمّل ما كانوا يكابدونه من ألم ومعاناة، ولم يظفر بذاك الوعي الذي قامت عليه هذه الصفات جميعها فأنّى يُدرِك شأوهم أو يَعمل على شاكلتهم؟

هلمَّ لتشهدوا عامّة ما حاولت عرضه عليكم من خصائص هؤلاء الصحابة لا سيما إيمانهم وحركتهم التي بذَّت المعايير الإنسانيّة كلّها: تخيلوا في هذا المقام إن شئتم حياة عبد الله بن جحش أو سعد بن الربيع أو عكرمة بن أبي جهل الذي لم يُمضِ من حياته في الإسلام سوى سنة ونصف، أو عمه الحارث بن هشام، وإن الأماني ستنبعث فيكم إبّانها تترى فيما أرى، ولسوف تلهجون بلسان واحد: يا ليتني كنت مصعبًا أو ابن جحش أو حمزة أو ابن هشام أو عكرمة...؛ أولئك الذين أشفى بعضهم على شفا جرف جهنم،

(٣٦) القضاعي: مسند الشهاب، ٢/٢٧٥.

وبغتةً رأيناهم عانقوا الإسلام بضع دقائق في آخر رمقٍ من حياتهم وقالوا: "بسم الله، يا الله" فعرجوا في لمح البصر إلى أعلى علّيّين، فإذا ما عاينتم ذلك جاشت مشاعركم وتمنيتم أن لو كنتم مثلهم وقال قائلكم: "يا ليتني كنت معهم"، ولعل في هذه المشاعر كافّة ما يُلهِب مشاعركم، وتختمر به مِثلَ ما للصحابة من وعي لديكم.

٤- ومن الأهمية بمكان ارتياد محاريب العلم والمعرفة التي تخدم الإنسانية حتى يتسنى لنا الحفاظ على ذلك الوعي الذي اكتسبناه، فليس الخبر كالمعاينة، فلربما كانت المعاينة أوقع أثرًا عند كثير من الناس، وهناك أمثلة ونماذج كثيرة على هذا، ولذا فلو شعرنا بضعف في طاقتنا الميتافيزيقية الدافعة فما علينا إلا اللجوء إلى مثل هذا الحلّ، والعمل على تجديد وإنعاش هذا الوعي.

وجهة نظرنا إلى الماضي

سؤال: يقال إن مبدأ "الدولة من أجل الدين" في عصر الخلفاء الراشدين تحوّل إلى فلسفة "الدين من أجل الدولة" عند الأمويين والعباسيين والسلجوقيين والعثمانيين؛ وهذا القول محاولة لجعل هذا التحوّل مصدرًا لكل الصراعات العسكرية والاجتماعية والسياسية؛ تُرى هل نعيش وتيرة كتلك في يومنا هذا؟

الجواب: إن جميع ساداتنا من الخلفاء الراشدين أصحابُ قيمٍ وفضائل تفوق وتسمو على غيرها، وهم أسمى وأجلّ من أن نقيّمهم وفق معاييرنا نحن؛ ومن يفنّدون الأحاديث الشريفة في يومنا هذا ربما ينقدون الصحابة بل الخلفاء الراشدين أيضًا، أمّا نحن فنقول في قضية كتلك: "اللهم عافنا في أفكارنا وألسنتنا"، ونضرع إليه سبحانه أن يُعيذنا من شرِّ ألسنتنا.

نعم، حظيَ سادتنا الخلفاء الراشدون بأعلى مرتبةٍ، إلا أنهم ليسوا سواءً، والصحابة الكرام الذين جاؤوا من بعدهم -وكلهم سادتنا وأرواحنا فداء لهم- ليسوا أقطابًا لفلكٍ واحد؛ فصُحبةُ سيدنا أبي بكر رضي الله عنه لرسول الله ﷺ معيةٌ مكللةٌ بمعية الله؛ أي إنّ هذه المعيةَ كانت أيضًا مظهرًا من مظاهرِ معيةِ الله تعالى.

أما سـيدنا عمر رضي الله عنه فقد كان قامةً فريدةً بفنائه عن ذاته وتواضعه، شـديدًا على الكفار، متواضعًا مهيـض الجناح مـع المؤمنين... وكان أيضًا ممثّلًا للعدالة والحقّ والاسـتقامة أيّما تمثيل. نعم، إنّ سيدنا أبا بكر أفضلُ إلا أن سيدنا عمر يفضله بفضائل خاصّة والقاعدة أنه :"قد يتقـدَّمُ المفضولُ على الفاضلِ ببعـض الفضائل". أجل، أقول وأؤكد أنّه قد يتقدّمُ المفضولُ على الفاضل في بعض الأمور؛ وهكذا سيدنا عثمان رضي الله عنه، كان يتقدّم غيره بعفته وعصمته.

وهذا سيدنا عليّ كرم الله وجهه، سلطان الأولياء الحيدر الكرار، صهـر النبي المختار صلى الله عليه وسلم، كان معروفًا بالتضحية والإيثار، ولقد انحدرَ من ذرّيّته كثيرٌ من الأولياء إلى يوم القيامة يخدمون الإسلام وكثيرٌ من الأخيـار، فلـه أجر خدمة هؤلاء العظام للإسـلام، وهذه خِصّيصى له بزّ بها غيره حسـب ما تقتضيه القاعدة المذكورة، ولا ينبغي تفسـيرُها بشكل آخر؛ هذا والأمة راضيةٌ متّفقةٌ على إمامتهم وسبقهم وفضيلتِهم وفق ترتيبهم في الخلافة.

وبالرجوع إلى السؤال فلا أرى صحّة إطلاق القول بـ"أنّ الدين من أجل الدولة كانت هي الفلسـفة السـائدة بعد عصر الخلفاء الراشدين لـدى الأمويين والسـلاجقة والعثمانين". نعم، ربمـا كان في الحكام الأمويين أو غيرهم مَن فهموا فلسـفة الدولة في هذا السـياق، إلّا أنه ليس من الصحيح إطلاق الحكم والادّعاء بأنهم جميعًا كانوا هكذا؛ كمـا أنه مـن الخطإ قصر نهضة الدين على عصـر الصحابة، فما أكثر المحاسـن التي فعلها معاوية رضي الله عنه وغيره، بـل حتى مَنْ عُرفوا بالظلم؛

وأخـص عصـر عمر بـن عبد العزيز مفخـرة الأمويّيـن، كان كالوردة المتفتحة بين الأشـواك؛ أنجز في عامين ونصف أعمالًا تستغرق قرنًا من الزمان.

وهذا هارون الرشيد شخصية ذات قدر... والمهدي كان شخصيةً لهـا قدر رفيـع أيضًا حتى كان يُنظر إليه أنه مهدي ذلك العصر؛ وفي السـلاجقة كان "آلْـبْ أَرْسْـلَان" مجاهـدًا لا يُشَـقُّ له غبـار؛ وكذلك كان "مَلِك شـاهْ" رجل دولة عظيمًا؛ وأرى أن العثمانيين أيضًا ظهروا ومُكِّنَ لهم حتى السـلطان الفاتح -جعل الله الجنة مثواه- ممّن مُكّن لهم بفضل قمم من البشـر كأنها سلاسل الجبال؛ كانوا جميعًا عباقرة مرموقين، وما قيل عنهم في كتاب "الشـجرة النعمانية" صحيحٌ حقًّا؛ فهُم مَن أدّوا الأمانة على أكمل وجه بعد سادتنا الصحابة الكرام ﭫ. نعم، ثمّة ازدهار وانحطاط حدث بعد السلطان الفاتح؛ غير أن الحفر التي سقطوا فيها إذا قارنّاها مع ما نحن فيه اليوم فإنّها تُعدّ قبابًا تعلو رؤوسنا.

مـن أجـل ذلك لا أرى مـن الصواب حصر مسـألة "صلة الدولة بالدين وتسـخيرها لخدمة الدين" بعهد الخلفاء الراشـدين فحسـب، فبعـض النـاس في عصرنا كالمودودي مثلًا لديهـم دقّة مفرطة بعضَ الشيء في هذا الشأن، أي في مسألة فصل الخلافة عن الملك، وأظنّ أن مـردّ ذلك إلى الإفراط في كلٍّ من التعصّب لآل البيت، والتحامل على الأمويّين؛ وإني أذكر أمثاله أيضًا بخير لأن سـيدنا رسـول الله ﷺ

يقول: "**اُذْكُرُوا مَحَاسِنَ مَوْتَاكُمْ**"(٣٧)؛ بيد أنه يجب على مَن يؤلّف في أي مجال، ويحظى كلامه بالقبول أن يدقّق أكثر؛ فإن العلوم الإسلامية بحرٌ محيطٌ، فلا ينبغي أن يتحدث كلّ من أراد وكأنّه متخصّص وفي كلِّ المجالات يُحيط؛ إنهم يفرطون في الأمر قليلًا... يسعون لرفعة شأن آل البيت وتعظيمهم، فيضرّونهم دون قصد أو تخطيط.

هذه نظرتي لهذه القضية وللفكرة التي تتوارى وراءها، ولا أؤمن بإطلاق القول "إنه ما من يوم إلا والذي بعده أسوأ منه"؛ ففي الشجرة النعمانية -كما ذكرنا سابقًا- إشارة إلى أن العثمانيين قادمون وسيعملون في الدولة كما كان الصحابة رضي الله عنهم يعملون؛ وقد ذُكِر هذا القول في العصر السلجوقي قبل أن يظهر العثمانيون على ساحة التاريخ أصلًا؛ وهذا يعني أن اليوم ليس أسوأ من سابقه مطلقًا؛ فالنهوض من الحُفر إلى القمم ممكن دائمًا، وقد تعقب مظاهرُ الرقي مظاهرَ الانحطاط؛ ويؤيد هذا أنّ القرآن الكريم أشار إلى أنّ الأحداث التاريخية في تكرار دائم، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿**وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ**﴾ (سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: ٣/١٤٠).

ولو تناولنا القضية من وجهة نظر مختلفة لتبيّن أن الحوادث لا تسير على خطّ مستقيم؛ فكل شيء يدور بشكلٍ دائري؛ فإن كان اليومُ عيدًا لبعض الناس، فلا ريب أن الغد سيكونُ عيدًا لآخرين، وهو ما تحدث عنه أبو سفيان يوم أحدٍ قائلًا: "اَلْحَرْبُ سِجَالٌ"(٣٨)، وهذا هو

(٣٧) سنن الترمذي، الجنائز، ٣٤؛ سنن أبي داود، الأدب، ٤٢.

(٣٨) صحيح البخاري، المغازي، ١٧؛ مسند الإمام أحمد، ٥٥٦/٣٠.

الحـال في القشـرة الأرضية؛ فالقمـم تغور فتغدو حفـرًا حين تنهار، وتغيضُ الجبال وتتكوّن البحار؛ وبدهيّ أنه سـتتكوّن قممٌ في أماكن أخرى في اللحظة نفسها، وهكذا الحوادث الاجتماعية دائمًا.

إنّ سـرعةَ الانهيار والانحطاط ازدادت تدريجيًّا منذُ القرن الثامن عشـر حتى القرن التاسـع عشـر، فلمـا كان القرن العشـرون سـوّينا بـالأرض؛ ونأمـل أن يكون القرنُ الحـادي والعشـرون العصرَ الذي ننهـض فيه، ونبلـغ الـذرى مجدّدًا، وقد تأتي أيام براقة سـاطعة على نحوٍ ما قبل أن ينصرم النصف الأول منه إن شـاء الله تعالى، ربما لم يشهد العصر العثماني شيئًا من روعتها وعظمتها! ونوجز ما قلناه وما يمكننا قوله بعبارةٍ أخرى فنقول:

منـذ قيام الدولة الإسـلامية حتـى يومنا هذا ونحـن نمرّ بمراحل ذهبيّـة رغـم الانقطاع الذي حـدث أحيانًا، وكان الديـن والخلافة أو الإمامة أساسًـا فيها، وكانت الدولة خادمةً للدين، واسـتمدت الدولة كلَّ قوتها من الدين في تلك الفترات، واستندت إلى توجيهه وإرشاده، وصار الدين مصدر النور للطرق التي ستمرّ بها الدولة؛ فحمى الدينُ الدولةَ من التردّي في الأخطاء، ومن الوقوع في كثير من المآزق.

نعم، ربما تحوّلت الإمامة والخلافة في فتراتٍ مختلفة من التاريخ إلى سلطنة، غير أن هؤلاء الممثلين الكاملين أي الذين جعلوا الإمامة بمستوى السلطنة لم يُسلِموا قلوبهم ولا عقولهم للسلطنة ألبتة سوى نـزرٍ يسـير منهم؛ وهو ما حـدث على طول الخـطّ الممتد من طارق ابن زياد حتى السـلطان القانوني: فلما دخل طارق بن زياد "طُليطلةَ"

ووطِئَت قدماه خزائن الملك، أسرّ في نفسه وقد مرَّغ جبينه بالتراب قائلًا: "كنتَ عبدًا من قبل، ثم قائدًا بالأمس، وفاتحًا اليوم؛ فلا تنسَ أنك غدًا سترقد تحت التراب"، وقال القانونيّ بكل صدق وإخلاص عندما عاد من "فيينا": "لقد شعرت بشيء من الغرور في نفسي، فابسطوا فراشي اليوم في الممرّ"؛ ولطالما كانوا جميعًا يترنّمون بتلك الروح.

إن هؤلاء القادرين على كبح جماح أنفسهم كانوا مهيضي الجناح تواضعًا حتى وهم في أزهى ساعات النصر، وهذا يُظهر أنه كانت منّا قمم شاهقة؛ وأن كل شيء كان يسير حقًّا وفقًا لروح الدين، وأنَّ الحياة بأكملها اصطبغت بهذا الشعور؛ غير أنَّه كان يظهر أحيانًا عند كلٍّ من الأمويين والعباسيين والقراخانيين والإلخانيين والخوارزميّين والسلاجقة والعثمانيين مَن يقدِّمون المُلك على رضا الله، عفا الله عنهم وعنا أجمعين.

ولكنَّ تعميم حالات نادرة وتشويه صورة تلك الدول الذهبيّة من خلال ذلك هو عينُ الظلم، ولا يجوز لنا أن نفعل شيئًا كهذا؛ لأن القرآن الكريم ينصحنا بأن نذكر بالخير من سبقونا.

ناهيك عن أن السلطنة التي كانت في تلك الفترات لم تكن ملكًا محضًا؛ وإنما كانت تهدف إلى فتح البلاد من أجل إعلاء كلمة الله تعالى، والتعالي والكبرياء في مواجهة الأعداء المتغطرسين المتكبّرين، وهذا الكبر صدقةٌ يستحسنها الدين.

أمـا ما يحدث فـي يومنا فهـو كمرحلة البرزخ من هـذه القضية؛ لذلك فالمسؤولية التي تقـع علينا اليوم هي تحديد القواسم المشتركة من أجل التمكّن من الحوار مـع الجميـع، والقدرة على التفاعل مـع العالم أجمـع.

آلِيَّتان في الإنسان: النفس والضمير

سـؤال: للنفس والضمير دور مهمّ في ترقّي الإنسان وتدنّيه؛ فكيف نفهم ماهيّتهما؟

الجواب: إن للإنسـان جانبين هما: الملـك والملكوت؛ ويمكن تسـميتهما بأسـماء أخـرى، وقـد أطلـق بعضهـم عليهمـا الملائكي والشـيطاني أو الجسدي والروحاني أو المادي والمعنوي أو النفسي والوجداني، وسعوا لشرح الحقيقة نفسها بعبارات مختلفة.

والأفضل تناول الجانب المعنوي والماديّ من الإنسان في صورة آليّتيـن مختلفتيـن، وتقييمهما في ضوء ذلـك؛ ولنُطلق على المعنويّ اسم "آليّة الوجدان"، وعلى الآخر "آليةَ النفس".

فبينمـا يُشـكِّلُ آليـةَ الوجـدانِ القلـبُ والـروح والسـر والخفـي والأخفـى واللطائف الربانية المتعلقـة بعالم الأمر والإرادة والإدراك والشـعور والحسّ والمشـاعر؛ تُشـكّلُ آليةَ النفس الغرائزُ والنزوات والأهـواء والحقد والبغـض والغضب والعناد... هذه المشـاعر التي وُهِبت للإنسان لغاياتٍ وحِكم معيّنة... وهاتان الآليتان تعملان غالبًا علـى النقيض، غير أنَّ آليّة النفًـس تغدو إيجابيّةً إنْ تغلّبت عليها آليّةُ الوجدان، ثم تتحوّل إلى آليّةٍ تعمل على رفعة الإنسان ورقيّه.

نعم، يمكن أن تصير آليةُ النفس نافعةً للإنسان حينما يجتاز مرتبة النفس الأمّارة -وفقًا لتصنيف الصوفية- إلى مرتبة النفس اللَّوّامة فالمُلهَمة فالمطمئنّة فالراضية فالمرضية فالصافية، ولأجل هذا فإنه من النقص والخلل تناول الإنسانِ من جانبه المعنويّ فحسب، واعتباره مجرّدَ آليّة للوجدان فحسب؛ إن الولاية الحقيقية هي ولاية الصحابة؛ وقد صبغ الصحابة آلية النفس بـ"صبغة **الله**"، ووضعوا خاتمًا من أختام الولاية حتى على المشاعر السلبيّة لدى الإنسان.

ولنتناول الشهوة مثلًا: إن هذا الشعور يغدو منبعًا محضًا للشرّ إن تمّ تفعيله من الناحية المتعلقة بنفسه فقط؛ لكن هذا الشعور أُضفيَت عليه في نهج الصحابة كيفيةٌ تجعله بعدًا من أبعاد الولاية؛ أي إن الشهوة حينما توضَع في الحلال يُثاب الإنسان حتى على علاقته مع أهله؛ وقد عجب الصحابة حين قال رسول **الله** ﷺ ذات يوم ذلك، فتساءلوا: "يَا رَسُولَ اللهِ، أَيَأتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟"، فأجابهم الرسول ﷺ إجابةً منطقيّةً، وفطريّةً بقدر منطقيّتها قائلًا: "**أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ**"[٣٩]؛ إذًا تركُ الحرام يُكسب الإنسان ثوابَ القيام بأمرٍ واجب؛ وهذا يعني أن الإنسان في استطاعته أن يفوز بالجنة بهذا الشعور الخاصّ بآلية النفس.

ولنا أن نعد جميع المشاعر الخاصة بآلية النفس وسيلةً للشعور بأحوال الجنة؛ أي كما يستطيع الإنسان بالأحاسيس والمشاعر

(٣٩) صحيح مسلم، الزكاة، ٥٣؛ مسند الإمام أحمد، ٣٧٦/٣٥، ٣٨٢.

الخاصة بآلية الوجدان أن يشاهد بعض الأبعاد الخاصة بالجنة ويعايشها، فبإمكانه كذلك أن يُحسّ ويدرك بعض الأحوال الخاصة بالجنة بواسطة بعض الأحاسيس الخاصة بآلية النفس المزكّاة، ويبدو أن هذا أحدُ أسرار وحكم إبهاج الجنة للروح والجسد معًا؛ وفي حديث القرآن عن خلق آدم عليه السلام من تراب وطين وصلصال وغير ذلك إشارة إلى بعض المواد التي تكشف ماهية الإنسان؛ وإلا فمن القصور حصر تفسير هذه المواد على أنها التراب والطين والصلصال التي نعرفها.

وهاك شعور الغضب لدى الإنسان، إنه شعور يُفسد الإنسان إن بقي على حاله، وربما يحوّله إلى فرعون جانٍ ملطّخ الفكر والمشاعر واليدين والعينين بالدماء، غير أن الإنسان إن استخدمه في غايةٍ نبيلةٍ، أي إن دخل مثلًا في نزاع من أجل الدفاع عن دينه وعِرضه وشرفه ووطنه بالشعور نفسه وقَتلَ مَن أمامَه فهو غازٍ، فإن قُتِل فهو شهيد؛ فغضبٌ على هذا النحو مقبول عند الله مثل "الحلم" أو أكثر... وإذا كانت الجوانب الترابية ترفعُ الإنسان إلى هذه الدرجات إن عولجت جيّدًا، فلكم أن تتخيّلوا ماذا يُمكن أن يحدث إن أحسنّا استخدام آليّة الوجدان.

أجل، يمكن للإنسان بلوغ مستوى الملائكة في أيّ وقت شاء ولو بخصائصه الترابيّة، بل إنه قد يفوق الملائكةَ عندما تبدأ آلية الوجدان عملها؛ ذلك أنه لا شيءَ يدفع الملائكة إلى الشر، فإرادتهم تتجلى في اختيارهم عملًا من الأعمال المعروضة المرضيّة عند الله،

أمّا إرادة الإنسان فهي مكلفة بالاختيار بين الحسن والرّديء، ونظرًا لأن "الغُنْم بالغُرم" فإن اجتيازَ الإنسان تلك المعضلات التي تواجهه يُعدّ وسيلةً وطريقًا ليكون أفضل من الملائكة.

بالوجدان يجد الإنسان ذاتَه وربّه؛ ولأجل هذا فإن مئات الناس بدءًا من عظماء الإسلام كالإمام الرباني والإمام الغزالي ومولانا جلال الدين الرومي وبديع الزمان سعيد النورسي، وصولًا إلى كثير من المفكّرين الغربيّين تناولوا الوجدان إما بالكشف وإما بالحدس، وتوقّفوا كثيرًا عند تلك الخاصيّة؛ وإنني لأستخدم بصفة خاصة عبارة "الكشف والحدس" هنا؛ فالأولياء يعلمون خصائص الوجدان كشفًا، أما الفلاسفة فيعرفونها حدسًا، وقد اتّفق الفريقان على أن الوجدان لا يكذب.

ويُدرج الأستاذ بديعُ الزمان الوجدانَ في مؤلفاته الأولى بين البراهين الرئيسة والأساسية التي تدلّلُ على وجود الحق تعالى(٤٠)؛ غير أنه لا يرى الوجدان دليلًا موضوعيًّا واضحًا بالقدرِ الذي يفهمه الجميع؛ لذا تجده في كتابه "الكلمات" اقتصر من هذه البراهين على ثلاثة: الرسول ﷺ، والقرآن، وكتاب الكون(٤١).

أجل، لا يستطيع كل إنسان أن يفهم لغة الوجدان الخفية؛ ولأجل هذا لا يُعَدّ دليلًا موضوعيًّا، غير أنه أعظمُ دليلٍ وأقوى برهانٍ عند

(٤٠) انظر: بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **المثنوي العربي النوري**، نقطة من نور معرفة الله، ص ٤٢٣-٤٢٧.

(٤١) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **الكلمات**، الكلمة التاسعة عشرة، الرشحة الأولى، ص ٢٥٣-٢٥٤.

مـن يفهـم لغتَه؛ فلا قِبَـلَ لأية معلومات أو مكتسـبات على الإطلاق أن تُشعِر الإنسان بما يُشعِره به وجدانه.

ففي الوجدان نقطة اسـتناد ونقطة اسـتمداد: بهما يُدرِكُ الإنسـان عجـزه وفقـره، ويعتمد بهـذا الإدراك على الله، فيطلـب ما يطلب منه تعالـى؛ ومـا دام لـدى الإنسـان حسّ "طلـب المدد"؛ فهـذا يعني أنّ هناك من سـيَمُدُّه، ولو لم يكن الأمر كذلك لكان منحُ الإنسـان هذا الحسَّ نوعًا من العبث، ولا عبث في الكون ألبتة، فلا شـك أن هناك مقابلًا لكلّ شـعور لدينا، إذًا إنّ ثمّة مقابلًا لكل من نقطتي الاسـتناد والاسـتمداد الكامنتين في الوجدان، بيد أن من لم يصـغ إلى وجدانه ولو مرّةً واحدةً في حياته، يتعذّر أن يشعر أو يحسّ بهذا؛ وإن الشعور قسـم تابـع لآلية الوجـدان، غير أنـه لا يُعنَى بقيمته الشـخصية قيمةً قائمةً برأسها؛ وحين ينضمّ إلى الإرادة والحسِّ والقلبِ يصبحُ وكأنه وجدانٌ مستقلٌ بذاته.

إن الوجـدان صـوت إلهي سـماوي يصـدع ويجهر وحـده دائمًا بالحقّ والحقيقة؛ مثله في ذلك مثلُ كل شـواهد وجود الحق التي لا تصمـت فـي أي وقت أبدًا؛ بيد أن هذا منـوط بالوجدان الذي يدخل في إطار تعريفنا نحن للوجدان، وإلا فإنه من المسـتحيل ألبتة انتظار النتائج نفسها من وجدان خضـع لآلية النفس، وانسحق تحت وطأتها.

أجـل، تصوّروا إنسـانًا تحوّل برمَّتِه إلى عاشـقٍ للشـهوة والحقد والغضب والمنصب والمقام؛ إنّه بذلك يخضـع في كلّ شؤونه لتأثير تلك المشـاعر السـلبية التـي أحاطت بروحـه، فالوجدان لـدى مثله

مكتـوفُ الأيـدي عاجزٌ عن التأثيـر، وأمثال هؤلاء ليسـت لديهم أية معلومـات عن آلية الوجدان؛ لذا فإن إدراكهم معنى الوجدان وغايتَه الأسمى من كل الغايات أمرٌ غير ممكن.

وثمة أمرٌ آخرٌ مهمٌ نشير إليه هنا:

يقـول "كانـط" فـي كتابه المسـمى "نقد العقل المحـض": إن الله يُعـرف بالعقل العملـي، لا بالعقل النظري، فإن التصرفاتِ الحسـنةَ، والأعمالَ الحسنةَ سرعان ما تتحوّل إلى طبيعة في الإنسان، وتبلـغ به نقطة لا تُبلـغ بالعلم المجرّد. أجل، إن المعرفة والمعلومات المجردة لا ترفـع الإنسـان إلى هذا المسـتوى ألبتة، فمن حُرم التطبيق والعمل يعجز قطعًا عن الإحسـاس بما يجب عليه الإحسـاس به في ضميره مهما قرأ من كتبٍ وأسفارٍ.

أمـا ما يجب على الإنسـان عملُـه فهو الأعمال التي استحسـنها الدين ووصفها بـ"الصالحات"؛ وإعمالُ آلية الوجدان واسـتثمارها ذو قرابة قريبة جدًّا من تطبيق مفهوم "الصالحات" في الحياة.

أسلوب النقد

سؤال: النقد يكاد يكون المعيار الوحيد اليوم في الحديث عن القضايا الإدارية والسياسية، فهل هذا المنهج صحيح؟

الجواب: شاع قول العرب "الهدمُ أَسْهَلُ" حتى غدا مثلًا. أجل، ما أسهل التخريب والنقد والهدم، وما أصعب "البناء"؛ لذلك كان على من يسعى للهدم أن يبحث أولًا عن طرق "البناء"، ويحددها ثم يبدأ "الهدم"؛ وإلا فإنه لن يمكن أبدًا ملءُ الفراغ الناتج عن الهدم.

أجل، هناك قضايا لا تتحمل التخريب ولا النقد ولا الهدم ما لم توضع لها بدائل؛ وأظن أن تحقيق التوازن في هذه المسألة هو من أهم وظائف الرسل خاصة رسولنا مفخرة الإنسانية ﷺ. أجل، لقد كان يكشف مثالب المجتمع القارّة فيه، ويصدع بأسلوب مقنع نبيل لا يخشى أحدًا، قائلًا: "هذا خطأ!"، غير أنه كان يقدِّم البدائل الحقيقية البنّاءة فورًا، فيحول دون الفوضى والفراغ، أي كان يوازن كل شيء ويتفحَّصُ إيجابياته وسلبياته، ولا يمنح الفراغ الفكريّ والحسيّ أيّة فرصة، وهذا المنهج يلقِّننا دروسًا كثيرة: منها أن محاولات الهدم العشوائية جناية ما لم تسبقها خطط ومشاريع لـ"بناءٍ" يقوم على أرضية سليمة، وإحاطة تامّة بالحراك.

ولما لم يُطَبَّق هذا المنهج في الحياة عاش الفرد والأسرة والدولة في فراغٍ خطير على قدر الأخطاء المرتكبة ومداها، وانساق الجميعُ إلى الفوضى؛ ففي الدولة العثمانية مثلًا، قد عُورض السلاطين أحيانًا، وأُطيحَ بهم، وطولب بمن هو أفضل، فإذا بالأوضاع السلبيّة تتفاقمُ، فاستحال العثور على من هو أفضل، وراح الجميع يتحسَّر على الأيام الخوالي وأصحابها.

ومن ذلك مثلًا أن طلعت باشا، وجمال باشا، وأنور باشا، ورضا توفيق، وتوفيق فكرت، و-بقدر ما- محمد عاكف، وكثيرين غيرهم أطلقوا على السلطان عبد الحميد -جعل الله الجنة مثواه- اسم "السلطان الأحمر"، واضطلعوا بدور فاعل في خلعه، وصفقوا وهللوا لذلك، لكن كلًّا منهم ندم على ما فعله وقال عنه لاحقًا كلمات تقديرٍ وإجلال، عندما احتلّ اليونانيون "إزمير" بكى رضا توفيق في ميضأة الجامع منتحبًا، ونظم شعره "استمدادًا من روحانية عبد الحميد" .أجل، هكذا قالوا، ولكن "بعد خراب البصرة"؛ لقد انهارت الدولة العلية، وضاعت الموصل وكركوك والسليمانية ومصر والبلقان، وضاع الأمنُ في هذه المنطقة الذهبية، ثم أفاقوا من نومهم العميق، والعالم اليوم يدفع ثمن هذا، يدفعه غاليًا جدًّا؛ لأن الدولة العثمانية كانت عنصرَ توازنٍ بشرقها الأوسط، وقوقازها، وبلقانها؛ هيهات... لم ندرك ونَعِ هذه الخصوصية إلا بعد الانهيار.

كم هو مؤلمٌ أن تتكرّر تلك الأخطاءُ التاريخيّة في هذه الآونة أيضًا، وتُخرَّبُ الدول أو الحكومات دون إقامة الخطط والمشاريع

الصحيحة البديلة، وتستخدم المعارضة شِعارات لمجرد النقد فحسب مثل: "نمتنع عن التصويت لهذه القرارات" أو "ما هكذا تمارس السياسة الخارجية والسياسة الداخلية... إلخ"،وإذا قيل لهم: "قولوا واكتبوا ووجهوا إلى ما يجب أن يكون"، قالوا: "لا بُدّ من معلومات واسعة، وتجربة سابقة قويّة، ونحن نفتقر إلى هذا". نعم، لكلِّ دولةٍ وحكومة أخطاؤها، غير أنه ما ينبغي أن يجري حسابها ألبتة وفقًا لفلسفة "الهدم أوَّلًا ثم يبدأ التفكير في كيفية البناء"؛ فهذا يوهن الدولة ويمهد السبيل لأن تخسر سمعتها داخليًّا وخارجيًّا، بل ربما تخسر الدولة كلّ أرصدتها، فمثلًا لو أن بلدنا التي أكسبها موقعها الجغرافي وضعًا إستراتيجيًّا متميزًا كانت أقوى بقليل مما هي عليه اليوم في إطار التموّجات السياسية الجارية حولنا، لأمكنها أن تجذب كلّ آسيا الوسطى إليها وتأخذها إلى جانبها بجاذبية وقوة لتغدو هي "المركز"، بل ربما استطاعت جمع العالم الإسلامي كلّه حولها.

ألم يكن الأمر هكذا في ماضيها؟ ألم يظهر كل من: آلْبْ أَرْسلان والفاتح والقانوني بفضل الثقة التي نتجت عن حسن القبول القوي، وأصبحوا أملًا للأمة تدوي أصواتهم في أرجائها؟ ألم يستجب كثيرون لهذا الصوت المدوي؟..

أجل، لا علاقة لنا بمن يجرون وراء حسابات خاطئة؛ فإننا منذ وُجِدنا حتى اليوم ونحن نهتم بحال ومآل هذه الأمة، باكين أحيانًا، وضاحكين أخرى، ولا تفارق شفاهَنا ابتسامةُ الأمل أبدًا؛ لقد قدّمنا

ما قدمناه من العناية بحماية قلبنا حتى لا تعرض لها هزةٌ جديدة، ولطالما بحثنا لمواجهة المخاطر عما يجبُ علينا فعله واستقرأناه، وقلنا لكل مَنْ تَتَبّعنا قريةً قريةً، وقصبةً قصبةً، ولكل مرتكب لأيّ ضربٍ من الشرّ: ﴿**كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ**﴾ (سُورَةُ الإِسْرَاءِ: ١٧/٨٤)، ولم نستأ، ولم نغضب من هذه السلوكيات الصادرة عن القائمين على هيئات الدولة، ولم نسخط لا على دولتنا ولا على أمتنا وما ضقنا ذرعًا بذلك أبدًا.

أجل، إن الاتزان مهمّ جدًّا في هذا الشأن، وإنني على قناعة بأن هناك كثيرًا من الأخطاء تُرتكبُ اليوم في هذا المجال، علمًا أنّ هذا الضرب من السلوكيات -كما قدمنا آنفًا بالأمثلة- مضاعفاتُه وأضرارُه غير متوقّعة بل ربما لا تكفي طاقتنا لأن تعمر وتصلح ولو واحدًا منها.

إن هذا النمط من التفكير ربما يزعج أناسًا يَظهرون بمظهر الراديكاليين؛ إنّ هذا الموضوع حساسٌ إلى حدّ كبير، فلا أريد أن يُستخف بأيّ فكر إسلامي، ولا أرضى بأن يمتعض أيّ مسلم أبدًا، والواقع أننا أمام آراء متباينة جدًّا للمسلمين؛ فترى من يقول "أنا مسلم"، وفي يده قنبلة، ويتوشح سلاحًا، يسير به في الشوارع يُقتّلُ الناس، فمن العسير فهم هذا ومواءمته مع الفكر الإسلامي، وإرضاء الجميع غاية لا تُدرَك طبعًا؛ لذا أخاف أن أُطلق كلماتٍ وبياناتٍ قد يُساء استعمالها وربما تُفسر تفسيرًا خاطئًا، ورغم هذا فبيان الحق والحقيقة مسؤوليّتنا.

والحاصل أنه لا بد من تنفيذ كلّ شـيء في إطار قواعده، ولا بد مـن إظهـار العناية البالغـة عند العمل حتى لا ندمّر كل شـيء ونحن نسـعى للبناء؛ ينبغي ألا نسـقط في فراغات منطقيّة، وطريق ذلك أن نعتبر بالماضي، وبالأحداث التاريخية، وألا نغامر بالأمة والدولة.

الإسلام والحركات الانفعالية

سؤال: هناك حركات انفعالية تنتسب إلى الإسلام تواجِهُ الأنظمة الحالية في العالم؟ فما رأيكم في هذا الموضوع؟

الجـواب: لا أعرف أن الحركات الانفعالية قد أفادت شـيئًا على مـرّ التاريـخ أو أنها بلغت الغايةَ من أفكار أصحابها؛ لن أذكر أسـماء هنا، فالحركات الانفعالية -إسـلامية كانت أم غير إسـلامية- ظهرت فـي مناطق مختلفة من العالم وسـرعان ما تعثـرت، وقد كانت أولى الحـركات الديمقراطية لدينـا نحن أيضًا حركاتٍ انفعاليةً، ولم تُعمَّر؛ إذ انهارت وغارت، والآن:

١- واجبُ الوقت في رأينا هو إيضاحُ الفكر الإسلاميّ واستقراءُ طرق الإقناع، وعلى سبيل المثال أرى أنّ أرضنا كانت ستغدو روضةً بهيّةً منذ زمنٍ مديد لو كان في العهد الذي نشأ في بلادنا أولُ حركات انفعالية جهودٌ صادقة مخلصة طويلة المدى تهدف إلى تربية الإنسان وتنشـئته بـدلًا من تلك الحـركات الانفعالية والانشـغالِ بكراهية من يعادون قيمَنا المقدسةَ، ومواجهتِهم بكل مشاعر البغض والحقد.

تأملـوا، لقد مضت نحو أربعة عقود منذ الخمسـينات حتى يومنا هـذا... إن مـن كانـوا في العاشـرة من العمـر يومئذٍ لو أنهم درسـوا فـي الجامعـة، لبلغـوا الذرى الآن أو أوشـكوا، ومـن كان في مطلع العِقد الثاني سيصبح في غُرة العقد السادس اليوم، ومعناه أنهم كانوا سيعيشـون أنضج فترات عمرهم في مستوى رؤساء الوزراء ورؤساء الجمهورية، غير أنهم لطالما كانت أفعالهم أفعال السـاخطين... لقد انماثَـت بمرور الزمـن هذه الحركات التي يمكننا أن نسـميها "حركة السـاخطين"، وتـوارت مخلفةً الحسـرة والهجران، غيـر أننا نذكرهم جميعًا بخير.

٢- إنجاز ما يمكن إنجازه من أجل حاضر هذه الأمة ومستقبلها بـلا تخريـبٍ أو إلحاق الضـرر بوحدتها، أي ينبغي عند الشـروع في "البناء" النأيُ عن التورّط بـ"دمارٍ" يسـتحيلُ إعماره على مدى أجيال، وإلا عوقبنـا بخـلاف مـا كنّـا نبغـي ومُنينا بلعنـات الأجيـال القادمة وبغضها، وحُرِمنا كثيرًا من الأمور الأخروية.

٣- ربما يرغب المؤمنون أن يعيشـوا حياةً رحبةً رحابة عوالمهم الإيمانية الذاتية، غير أن شعورًا كهذا لا ينبغي أن يكون مقصدًا أصليًّا أو منتهى الغايات؛ إذ لم ينبِس رسول الله ﷺ ببنت شفة في هذا الأمر وهو يبلّـِغ رسالته للناس في العهد المكّيّ، بل نزلت الآياتُ الكريمة فـي قضايـا الإيمـانِ والحقائـقِ الإيمانيةِ، وجـلُّ الأحاديثِ الشـريفةِ وردتْ فيهـا أيضًا، والمجاهدون الذين بلغوا رسـالة الإسـلام للعالم في العقد التالي لم يتشوّفوا إلى أيّ شيء، بل واصلوا كفاحهم تحت

وطـأة ظروف شـديدة ولم تسـاورهم إذ ذاك أية خواطـر تُعكِّر صفاء نياتهم.

وعلـى عشـاقهم اليـوم العازمين والناويـن الاقتداء بهـم في كل شـؤونهم ألا يُعكّـروا صفـاء أفكارهـم بخواطـر فضوليّـة لا تعنيهم كهـذه، وعليهم أن يضاعفوا هممهم في خدمة القرآن والإيمان، وأن يسـتخدموا كل طاقاتهم لنيل رضا الله، وأن ينسـجوا نسيجهم حوله؛ والحقيقـة أنّ الخواطـر الأخـرى تعني -معـاذ الله- مسـاومة الخالق سـبحانه وتعالى، أي كلُّ خاطرة مثل: "إذا عملت كذا فسأعيش حياةً هكـذا وهكـذا، أو لا بـد أن تكون..." أمورٌ غيـر لائقة، وهي خلافُ وعـي العبوديـة لله مطلقًـا، ومن يلج دوائر فاسـدة كهـذه يتعذّر عليه الخلاص منها.

أظن أنَّ مَنْ يسـتهدفون المنافع الماديَّة والدنيويّة فيما يضطلعون بـه من خدمـات، ويجعلونهـا غايتهم ومقصدهم، يُحرمـون تأييد الله ﷻ، حتـى وإن ضحوا في سـبيل هذا بأرواحهـم وأموالهم وثرواتهم فهـم لا محالـة خاسـرون وسيخسـرون؛ لأن الغاية المثلـى لا بد أن تكون اللهَ فحسـب، ولا بدّ أن يكون الله سـبحانه ورضاه هما الهدف فحسـب، وحيـن يتحقـق هذا يبلغهـم أهدافهـم، ولا يُقضَـى عليهم بالخذلان والخسران.

٤- طلّاب متاع الدنيا كثير، وذوو القوة والنفوذ كثيرًا ما يلجؤون في الأمور الدنيوية التي يكثر طالبوها للقوة والضغط ليحصلوا عليها أو لئـلا يفقدوهـا إن كانـت فـي أيديهـم؛ وتصرفهم هـذا أمر طبعي؛

إذ لا آخرة لأهل الدنيا، بل لهم الدنيا فحسب، فيشقُّ عليهم أن يفقدوا هم أو أطفالُهم أو أحفادُهم دنياهم وما فيها من متاع، أي حينما تتنافس طائفتان من الناس على هدف واحد من هذا الأمر فذاتُ الشوكة منهما تتغلّب على الأخرى، إذًا فعلينا أن ننشغل بالتبليغ والإرشاد وأن نجتنب الحركات الانفعالية، وأن يكون هدفنا الوحيد رضا الله ﷻ...

عالمية الإسلام

سؤال: كيف ندرك خصوصية عالمية الإسلام؟

الجواب: أجل، إن الإسلام دينٌ عالمي، فهو يقدّم رسالاته للناس جميعًا بوضوح تامّ لا فرق بين قوم وقبيلة وشعب ولا ماضٍ أو حاضر أو مستقبل، ولا بين مكان وآخر، فآسيا وأوروبا وأمريكا وأرض العرب سواء... إنه يخاطب البشرية جمعاء، تأملوا في القرآن كلامَ الرسل جميعًا منذ آدم عليه السلام حتى قُبيل سيدنا رسول **الله** ﷺ؛ تجدوهم جميعًا عليهم السلام يخاطبون أقوامهم قائلين: "يا قومِ، يا قومِ"، أمّا سيد الزمان والمكان ﷺ فيقول: "يا أيها الناس"، وما أكثر الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التي تعزز هذا المعنى وتعضده، منها قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾ (سُورَةُ الأَنْبِيَاءِ: ١٠٧/٢١)، وقوله ﷺ: "**كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً** (وفي رواية: **وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ**)"[٤٢]، وهذا غيض من فيض.

---

(٤٢) صحيح البخاري، التيمم، ١، الصلاة ٥٦؛ صحيح مسلم، المساجد، ٣، ٥.

وبينما كان الإسلام يقرِّرُ عالميته لم يزعم أنه "نظام عالمي"، بل ربما أثبت أنه نظامٌ عالميّ بما حققه فعلًا من نشاطات معنوية ومادية أكثر من أن يعرِضَ لزعم كهذا، أي إنّ الإسلام قدّم مقوِّمات ورسائل ونشاطات متنوِّعة من أجل الفرد والعائلة والمجتمع، وهي رسائل تتّفق وتتواءم مع طبيعة البشر، فصارت دليلًا على عالميّته.

وبينما كان الإسلام يهدف إلى هذه الغاية بدأ فتناول الإنسان كُلًّا بجوانبه الإيجابية والسلبية كلّها مثل: أحاسيسه ورغباته وشهواته وحقده وكرهه وغضبه ومحبته... ورسائلُه لم تتعارض على الإطلاق قطّ مع قيم الفطرة المعروفة، فبوسع الإنسان أن يجد في الإسلام كلَّ شيء يشتهيه في دائرة المشروع، وحسب من يرغب ببلوغ الكمال أن يرجع إلى الإسلام ولا حاجة له إلى أي شيء من الرهبانية والبراهمانية والبوذية، وإن أشكل عليه أمرٌ في نظام عائلته وتربية أسرته وصلته بأقربائه فحسبه في ذلك الضوابط الإسلامية، وإن كان في مأزق اقتصادي عسِر فله علاجٌ ناجِع في القرآنِ الكريم والسنةِ النبوية المطهرة، وفي تفسيرِهما وبيانهما المتميز في اجتهادات السلف الصالح، وهي كذلك دواء لكلِّ داء...

أجل، إن الإسلام دواء لكل داء، إنه دواء لكل شيء بدءًا من المسائل المتعلقة بالحقائق اللاهوتية وتوحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد العبودية، وصولًا إلى علاقاتنا الأسرية وعلاقتنا الاجتماعية إنه دواء ناجع، ليس وراءه حاجةٌ لأي شيء آخر.

إن الإسـلام -رغم أنه ظهر في جزيرة العرب- سـرعان ما انتشر فـي كلٍّ من بخارى وسِـندآباد والصين وبـرج هرقل والهند وأفريقيا، وامتد حتى مشارف بيزنطة، واستُحسِن وكُتب له القبول، إنه لا يمكن بيـان هـذا وتفسـيره إلا بعالميّـة رسـائله. تأملوا، لقد دخل الإسـلامُ بصـوت مرشـديه ونفحاتهـم لا بإكـراه سـيوفهم أماكنَ كانـت منبتًا لمئات النظريات العقائدية؛ فكما اطمأن بالإسـلام الأتراكُ المفعمون بالحركة والنشـاط، كذلـك بعض الأمم المهيّأة للمـوت قبل الموت دخلت الإسلام فأحست بالوجود الحقيقي.

فـإذا كان ذانك الطابعان المختلفان عـن بعضهما اختلافًا جذريًّا قد اتَّحدا في القاسـمِ المشـتركِ الإسـلامِ؛ فلا بدّ من البحث عن هذا الاتحاد في القواعد التي تقوم عليها عالمية الإسلام.

والعالم الغربي الذي اكتشـف هذه الميزة يسـعى منذ عصور كما يفعـل الآن بـكل ما أوتي من قـوة ليمنـع هذا التقدم عنـادًا ليس إلا، والحقيقة أن أوروبا عندما كانت غارقة في ظلمات القرون الوسـطى كان الإسـلام فـي عِـزِّ نهضته الحديثة في آسـيا، ولو أن الكنيسـة لم تتعصب ولم تلجأ في سـبيل مواجهة الإسـلام إلى الفلسـفة اليونانية القديمة، ولم تنظر إليه بأحكام مُسـبقة -كما أشـار أحد المفكرين-؛ لما عاش العالم ما يعيشـه اليوم من ظلمات حالكة، ولكنها توجهت إلى مفاهيم عصر الوثنية ولجأت إليها، ولا تزال تواصل تزمّتها ذلك إلى الآن.

أجل، لا بد من البحث عن عالمية الإسلام في الأسس والمبادئ التي جاء بها للإنسانية: ماذا وعد المرأة والرجل والطفل؟ وما النظام الـذي أقامه لمواجهة الاضطرابـات الاقتصادية والاجتماعية؟ وكيف حـلَّ المشـكلات البشـرية، وقاومَ الرذائـل التي كانت مستشـريةً في المجتمـع؟ وبـم أوصـى لتحقيق التـوازن الدولي؟ وهكـذا... أجل، إنكـم حين تضطلعون بدراسـة كل هذه الأمور سـترون أن للإسـلام هويةً شـموليّةً تفوق كل الأنظمة، وترون أنه الدواء الناجـع لكل داء، وعندئذٍ تقولون: "إن الإسلام دين عالميّ حقًّا".

وثمة أمرٌ لا ينبغي تجاوزه دون بيان، فهذا موضعه: إنّ من الخطإ تقديم عالمية الإسـلام من خلال القرآن فقط، وأرى وجوب البحث عنها أيضًا في السنة الصحيحة، واجتهادات الخلفاء الراشدين، وآراء السلف الصالح ودراستها في ضوء ذلك.

نعـم، إننـا آمنّا دائمًا بكفاءة الإسـلام وكفايته. أجل، إنه رغم كل الأيديولوجيـات التـي تواجهنـا لـم نرْتَبْ في كفـاءة القرآن والسـنة قـطّ، بـل على العكس مـن ذلك حملنا في قلوبنـا إيمانًا بأن كل هذه الأيديولوجيات لا طاقة لها بمواجهة الإسـلام، حتى إننا نؤمن إيمانًا تامًّا بأن من يرزحون تحت أغلال الشيوعية سيستيقظون يومًا ما على هذه الحقيقة... وحسبنا أن تتاح لنا الفرصة لتبليـغ الإسلام وتمثيله.

إننـا لا نخـافُ مـن أيّ شـيء ألبتة، لأننـا نعلم أنَّ الإسـلام دين عالمـيّ برسـائلِهِ التـي حملها، وفعالياته في كل سـاحة تمـسّ حياتنا

وتعنينا شـخصيًّا واقتصاديًّـا واجتماعيًّا وصناعيًّا وأُسـرِيًّا وعسـكريًّا ودوليًّا... إلخ؛ ونؤكّد هذا، ونؤمن به، أَلَيْسَ في بقاء الإسلام بأسسه المتجدِّدة دائمًا رغم جفاء أعدائه وغدر أصدقائه منذ أربعة عشر قرنًا دليلٌ على عالميته؟

عناية الرسول ﷺ بأصحابه رضي الله عنهم

سؤال: ليتكم تحدثوننا عن حبّ رسولنا ﷺ لأصحابه الكرام، وأسباب هذا الحبّ؟

الجواب: لقد عُني الرسل السابقون أيضًا بمَن نصروهم، وبأممهم التي ساندتهم في خدمتهم ودعوتهم، فأحبوهم وقرّبوهم، وكيف لا وهم الذين لم يُسْلِموهم وإن في أحلك الظروف؟ غير أن ثمة فرقًا بين رسولنا ﷺ وغيره من الرسل عليهم السلام: عندما يدنو الأجل من نبي قبل خاتم الأنبياء يأتي آخر ويتولّى الأمر من بعده غالبًا، أما بعد مفخرة الإنسانية ﷺ فقد تحمَّل هذه الرسالة أولياءُ الأمة، وعلى رأسهم الصحابة الكرام رضي الله عنهم.

وهكذا كان ﷺ يحبّ أمته لتحمّلها هذه المهمة الجليلة... وكلّما اقتضى الأمر صرّح بأصول هذه المحبة، ويذكّرهم بقوله ﷺ: **"تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ"**(٤٣)، وأحيانًا يوجّه القلوب إلى القرآن الكريم وأهل بيته، ويوصي

(٤٣) موطأ الإمام مالك، ٥/١٣٢٣.

بملازمتهما والتمسك بهما قائلًا: "**إِنِّي تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا: كِتَابَ اللهِ، وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي**"(٤٤)، ولهذا فإن العناية بآل البيت أنصارِ الكتاب والسنة بالجبلّة في ذلك العصر وتاليه كانت من باب التمسّك بالدين، والحقيقة أن وراثة آل البيت لرسولنا ﷺ هي بأحدِ معانيها أسمى من كل أنواع الإرث.

وفي أمته أفراد هم ممثِّلو روح النبوة، لقد صاحبوه وآمنوا به من أعماق قلوبهم، وأسلموا له، ولم يتخلوا عنه قط ولو لحظةً واحدة، فهم جميعًا رأوا نور النبوة، وترعرعوا في لألاء أجوائها وغِلافه، فتميزوا عنَّا كثيرًا من هذا الوجه، ولا ريب أنْ سَيَتَميّزُ من اجتمع به وشاهد أحواله كلها، وشهِدَ الوحي وهو يهطل عليه من السماء، لذا طبعيٌّ أن يُعنَى بهم رسولنا ﷺ أيّما عناية، ويفاخر بهم، حتى إنه قال ﷺ: "**لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ، ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلاَ نَصِيفَهُ**"(٤٥)، إنه وهو يفعل هذا يرشد في المقام الأول كل من بعده وكل من سيخدم الدين ويناضل من أجله حتى يوم القيامة ليضعوا أصحابه رضي الله عنهم في مقام الصدارة.

أجل، لقد كان ﷺ إنسان الوفاء، كان حتى لحاقه بربِّه يتنفس وفاءً لمن بذلوا أرواحهم وضحّوا بها في سبيل دعوته التي حملها، لقد تكاملوا معه وانصهروا في بوتقته حتى إنه لما حان اللحاق بالرفيق الأعلى -وهذا ما كان يريده- نَشَج يبكي على فراقهم، وما كان

(٤٤) **صحيح مسلم**، فضائل الصحابة، ٣٦؛ **سنن الترمذي**، المناقب، ٣١. (واللفظ للترمذي).

(٤٥) **صحيح البخاري**، فضائل الصحابة، ٥؛ **صحيح مسلم**، فضائل الصحابة، ٢٢١-٢٢٢.

منه إلا أن قال لهم: "**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ نَبَّأَنِي اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ أَنَّهُ لَمْ يُعَمَّرْ نَبِيٌّ إِلَّا نِصْفَ عُمْرِ الَّذِي يَلِيهِ مِنْ قَبْلِهِ، وَإِنِّي لَأَظُنُّ أَنِّي يُوشِكُ أَنْ أُدْعَى فَأُجِيبَ، وَإِنِّي مَسْؤولٌ، وَإِنَّكُمْ مَسْؤولونَ، فَمَاذَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ**؟" قَالُوا: "نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَجَاهَدْتَ وَنَصَحْتَ، فَجَزَاكَ اللهُ خَيْرًا"(٤٦)، فكل وفاءٍ عرفناه منه ﷺ تعلمناه.

إنه لم يكن وفيًّا للبشر فحسب، بل كان مفعمًا بالوفاء حتى للحجر والترب، يشتاق إلى مكة ولا ينقطع عن "قباء"، لأنه أوّل منزل فتح له صدره بعد الهجرة والعناء، وهو الذي قيل له فيه: "ههنا المنزل يا رسول الله"، فكان رسول الله ﷺ يزور قباء كلّ سبت حتى لكأنه يقول له: "لقد ضيّفتَني وأكرمتَني"، وكان يزور أُحدًا أيضًا، ذلك المكان الذي قال فيه: "**هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**"(٤٧)، أي هو المكان المبارك الذي نال نصيبه من حبّ رسولنا الحبيب، وكان يزور البقيع مقبرة المدينة، كلا -أستغفر الله- إنه ليس بمقبرة، بل هو نُزُل الصحابة الكرام انتظارًا للآخرة... وما أكثر الأمثلة عن وفاء إنسان الوفاء ﷺ...

لذلك نجد كل من يطرق هذا الموضوع، صديقًا كان أم عدوًّا، يقول: لم تأتِ ولن تأتيَ جماعة تتعلق بقائدها كما كان أصحاب محمد ﷺ، ولم يأت ولن يأتي قائد يتعلّق بتابعيه كما كان محمد ﷺ. أجل، وهل يستغرب أن يُصطفى الأصحاب لنبي مصطفى؟

(٤٦) الطبراني: **المعجم الكبير**، ١٨٠/٣.

(٤٧) **صحيح البخاري**، أحاديث الأنبياء، ١١؛ **صحيح مسلم**، الحج، ٤٦٢.

نعم، إن الصحابة الكرام أناس أُسبِغ عليهم الإحسان واللطف بعد مرحلة معينة بما قدموا من عبادات وكفاح وعزمٍ وجهد، أما رسولنا مفخرة الإنسانية صلوات ربي وسلامه عليه فقد خطا أولى خطواته إلى الدنيا نبيًّا، فقد كانت حياته قبل البعثة حتى طفولته تعزز ما سيكون لاحقًا؛ من ذلك مثلًا أنه كان مثالَ العفة في العصر الجاهلي يوم أن لم تكن العفة والطهر والعفاف والأمانة شيئًا ذا بال؛ فإذا ما قيل "العفيف" في أي مجلس تبادر إلى الأذهان رسول الله ﷺ، إنّه لم يدع أحدًا يلمزه في كرامته أو عفته قطّ، ولم يُتِح لأحدٍ الفرصة ليفعل ذلك، وكان يفيض حياءً من رأسه إلى أخمص قدميه، لقد رعى الأمانة حق الرعاية حتى إنه عُرِف في الجاهلية بلقب "الأمين"، لم يمر الكذب بسمائه قطّ... وما خدع أحدًا ألبتة.

وقد غدت صفاته تلك قواعد رسالته وأسسها، فهذه الرسالة ستُبنى على تلك الأسس، انظروا! لقد اتهمه مشركو مكة ببعض الصفات لإنكار رسالته السامية تلك، وقالوا عنه ما لا يُقال لمثله ولا يصدّقه أحد: شاعر وكاهن ومجنون، لكنهم لم يجرؤوا أن يتّهموه بالكذب أو الفُحش، وعجزوا أن يصِموه بخيانة الأمانة وخلف الوعد، وبدهيٌّ أنهم أنفسهم لم يصدقوا تلك الأكاذيب التي رموه بها. أجل، لقد جاء طاهرًا مطهَّرًا، وعاش كذلك، وتربّع في قلوبنا كذلك.

وكما أشرنا آنفا كان ﷺ إنسانًا مصطفًى أدرَكْنا وجودنا بوجوده، ومن اتبعه اصطفاهم الله له وجعلهم أمته وأنصاره وصحابته، وهذا يعني أنكم لو بحثتم عن أبي بكرٍ آخر من بعده فلن تعثروا عليه أبدًا،

ولـن تجـدوا عمر عينَه، ولا عثمان نفسَـه، ولا عليًّا ذاته رضي الله عنهم جميعًا؛ غير أنّ ثمة كثيرًا على قدمِ أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ، سيأتون من بعدهم، ويستمرون إلى القيامة؛ ليحملوا المهمة التي حملوها نفسها.

وإليكـم مثـالًا صغيرًا فحسـب: إنّ اسـم خالد بـن الوليد رضي الله عنه لم يُطرَح لقيادة الجيش في غزوة مؤتة؛ فما زال حديث العهد بالإسلام، أسـلمَ قبل نحو شـهرين، وقد أمَّر رسـولنا صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة، فجعفر بـن أبي طالـب، فعبد الله بن رواحـة رضي الله عنهم بهذا الترتيب، فاستُشـهدوا واحـدًا تلـو آخـر، فنعاهم رسـول الله صلى الله عليه وسلم قبـل أن يأتيـه خبرهم فقال وعيناه تذرفان: "**أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ، فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ ابْنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ، حَتَّى أَخَذَ سَـيْفٌ مِنْ سُـيُوفِ اللهِ حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِمْ**"(٤٨).

وذكـر المؤرخون أن جيش المسـلمين نحـو ثلاثة آلاف جندي، وجيـش البيزنطييـن نحو مائة ألف مقاتل، فـكان على كلّ مجاهدٍ أن يقاتـلَ ثلاثين ونيفًـا من البيزنطيين، ودارت الحرب دون هوادة سـتة أيـام، وفي اليوم السـادس جاء القدر باستشـهاد القـادة الثلاثة تباعًا، وفـي حمأة المعركة التقطَ صحابي ضعيفٌ نحيلٌ اللواءَ، ونظر حوله فـرأى خالـدًا رضي الله عنه فقـال له: "خذ اللـواءَ يا أبا سـليمان!"، فقال خالد: "لا آخـذه، أنـت أحقّ به"، فقال هو بدوره: "خذه أيّها الرجل! والله ما أخذتُه إلا لك!"(٤٩)، فأخذه خالد فكانت تلك الليلةُ ليلةَ خالد.

(٤٨) صحيح البخاري، المغازي، ٤٥.

(٤٩) الواقدي: المغازي، ٢/٧٦٣.

لقد دوَّخَ العدو وشوّش ذهنه بإستراتيجيّات جديدة؛ فجعل الميسرة ميمنة والميمنةَ ميسرة والقلب مؤخِّرة، وطبّق إستراتيجيّات أخرى في مجال آخر؛ إذ أمر بقرع الطبول فظنّ العدوّ أن مددًا قدم من المدينة، فدبَّ الخوف والرهبة والهرج والمرج في قلوبهم. نعم، لقد فعل كل هذا ليوحي لهم الليل بأنّ مددًا قادمٌ من بعيد يثير الغبار والضوضاء والجلبة بمقدمه، ولما طلع الفجر فوجئَ العدوّ بجيشٍ كثير الرايات والألوية يطير صقوره هنا وهناك في حركة وانفعال.

وهكذا ذهبت بهم الظنون أن مددًا جاء من المدينة، ووقعوا في حَيْصَ بَيْصَ، وتحيّروا أيّما تحيّر لا سيما حينما ارتفعت الشمس، ورأوا أنهم أمام أناس غير أولئك الذين كانوا يحاربونهم منذ بضعة أيام، وشُنّت الهجمات تباعًا على قلب جيش العدو وكانت قواه المعنوية قد انهارت انهيارًا شديدًا، وتلك هي الأمارات الأولى لتحوّل الهزيمة إلى نصر.

ناشدتكم الله ! كيف بلغ خالد ﷺ هذا المستوى في شهرين اثنين، وحقق كلّ هذه الأمور؟ وعاد خالد ﷺ بالجيش إلى المدينة سليمًا، أما البيزنطيون فجبنوا عن أن يتعقّبوا المسلمين، وما تجرؤوا على ذلك.

والآن أجيبوني: ألم يكن أصحاب النبي المصطفى مصطفينَ أيضًا؟ أجل، لقد عشقوا هذا الأمر بصدقٍ نابع من أعماقهم وأفئدتهم؛ ولذلك استحقوا شفاعته ومحبته ﷺ، وسيقوم إن شاء الله جيلُنا الوارث للدعوة المحمدية، ليبذل الجهد المفروض من أجل

حمل تلك الأمانة المقدسة ووضعها في مكانها اللائق دون أن يشعر بيأس أو قنوط أو سأم أو ملل أو ضعف ولو عرضت له ألوان من المعاناة والمشاق، فيستحقّ بذلك محبّة سيد الأنبياء ﷺ كالصحابة الكرام تمامًا.

اللهم اهدنا للسير على هذا الطريق المبارك، ولا تحرمنا من الإخلاص فيه ولو لحظةً واحدة! اللهم آمين.

الاستعداد لحضور مجالس العلماء

سؤال: بماذا ينبغي أن نستعد قلبيًّا وروحيًّا لتتحقق لنا الفائدة القصوى من مجالس العلماء؟

الجواب: يمكن تناول هذه المسألة من عدة زوايا:

١- لا بد أولًا من الثقة التامّة بهم حتى تتسنّى الاستفادة من مجالسهم؛ وإلا استحال تحصيل أيّ شيء مطلقًا من حضور مجالسهم بكبر وغرور وخيلاء وهوس العظمة كمن ينظر إلى كل إنسان وكلّ شيء من علٍ، وتتعذّر أيضًا استفادةُ من اضطُرَّ لحضور مجلس علم وهو يحدّث نفسه قائلًا: "هذا مضيعة للوقت، ولكن ماذا عساي أن أفعل، لم أستطع أن أكسرَ خاطرَ فلان..."

أجل، إن القرآن الكريم يقول وهو يقصّ هذه الحقيقة الكلية: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ١٤٦/٧). أجل، إن المتكبّرين والمغرورين لن يستفيدوا من آيات وجود الله ووحدانيّته ولو انهمرت على الأرض زخًّا زخًّا، وقد أكّد رسول

الله ﷺ هذه الحقيقة فقال: "**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**"(٥٠)؛ وقال فيما يرويه عن ربه في حديث قدسيّ: قَالَ الله ﷻ: "**الْكِبْرِيَـاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِـي وَاحِدًا مِنْهُمَا، قَذَفْتُهُ فِـي النَّارِ**"(٥١). أجل، إن المبتلى بالكِبر والغرور، أي من يُنازع ربّه في "رداء" الكبرياء و"إزار" العظمة يستحيل أن يُدرِكَ الإيمان أو يستفيد من حقائقه؛ لأنه بمقتضى الأصل ترفض حقيقة العظمة والكبرياء لله تعالى هذه الظلية المتغطرسة لدى الإنسان، وهذا المتغطرس لا يحصل على نصيبه الكامل من الإيمان، ولا يستطيع دخول الجنة دار المؤمنين.

٢- تجاوز الحدّ أيضًا يحول دون الاستفادة التامة من هذه المجالس؛ وكما أن تجاوز الحد يكون بظلم الناس قد يقع أيضًا في وضع الإنسان نفسه موضع الأولياء المقربين، بل قد يبلغ به الأمر أبعد من ذلك، فينزل بأولئك الأولياء إلى مستواه هو لا لشيء سوى أنه لم يرقَ إلى مراتبهم، ولأنه يجهل الأذواق والأحوال، أي إن إنكاره هذه الأمور بقوله: "هم رجال ونحن رجال، والكشف والكرامة والذوق وغيرها أشياء يمكن تفسيرها وتأويلها على نحوٍ ما" يحرمه من الفائدة،والحقيقة أن فهمًا كهذا في يومنا هذا مرضٌ كالإيدز في خطورته وفتكه؛ فالإنسان الذي يحُطُّ من مرتبة الإمام الأعظم والشيخ الجيلاني والإمام الرباني وغيرهم من العلماء

(٥٠) صحيح مسلم، الإيمان، ١٤٧؛ سنن الترمذي، البر، ٦١.

(٥١) سنن أبي داود، اللباس، ٢٧.

والأولياء، وينزل بهم إلى مستواه يستحيل أن يستفيد من فيوضاتهم ويُمنهم وبركاتهم.

ثم إنّ هذا الفكر يحول دون السير والوصول إلى الدرجات العلى؛ لأن إنسانًا كهذا ليس أمامه مُثُلٌ سامية يحتذي حذوها حتى يسعى ليدركها ويصل إلى درجتها، وبعبارة أوضح: إن من يحدثون أنفسهم قائلين: "من الإمام الأعظم؟ لو كان بيننا لغلبته بالحجة" أو "من الإمام الرباني، ومن الشيخ الجيلاني؟"... إن إنسانًا كهذا يتحوّل ذهنُه إلى "أنا" ويدور كلُّ شيء حوله، ذلك أنه ليست لديه غاية سامية، فهذه النوعية من البشر التي تنسج كل شيءٍ على مِنوَال أنانيتها يستحيل أن تجتاز ذاتها، أو أن ترى أيّ شيء سوى نفسها، إذًا بوسعكم أن تُسَمّوا من ينسحق تحت وطأة نفسه من البشر "ضحية النفس"، ومن يخضع لتأثير ضربات أنانيته القاتلة "ضحية الأنانية".

دَعُوكم من استفادة أمثال هؤلاء من مجلس هذا أو ذاك؛ بل إنه لا يمكن توقُّع استفادتهم من مجلس حتى سلطان السلاطين ومفخرة الإنسانية محمد المصطفى ﷺ، وإن أنوار الحق تعالى القدسية لا تنكشف لهم، حتى وإن انكشفت على سبيل المحال لتعذر عليهم الاستفادة منها، بل إن الطريق المؤدية إلى الفيض الأنور لو لامست حتى قلوبَهم لما استطاعوا أن يخطوا ولو خطوةً واحدة فيها.

أجل، إن العبارة التركية الشائعة "آثار الفيوضات على قدر الاستعدادات" تُكتب بماء الذهب، فاستفادة أي إنسان من آثار الفيض رهنٌ باستعداده وطاقته.

٣- يحـول الانحـراف دون الاسـتفادة مـن مثل تلـك المجالس أيضًـا، والانحـراف يعني النظرة السـطحية وقصور النظر واسـتمرار التأثر بوجهات النظر السابقة أو العقليات المتهالكة، فكما قال بديع الزمـان فـي كتابه المثنـوي العربي النـوري: "إن مَن يَرى قشـرَ بيضةٍ انقشـعت عن طاووسٍ تكمَّل وطار في السـماء، ثم يتحرّى ما يسمع مـن كمـالاتِ ذلـك الطير الطائر فـي فضـاء العالَم في تلك القشـرة اليابسة، لا بد أن يغالط نفسه أو يكذّب"[٥٢].

أجل، هذا انحراف وخطأ فادح جدًّا، ولعلّ هذا هو السبب الأهم لعجز معاصري مفخرة الإنسـانية ﷺ أمثال أبي جهل وأبي لهب ومن جـاؤوا بعدهـم عن الاسـتفادة منـه ﷺ؛ فقد جاء برسـالة يغمر نورها الإنسـانية جمعاء، وأرشد الإنسانية التي تتخبّط في مستنقـع غائرٍ إلى حقيقتهـا وماهيتهـا الحقَّـة، وأنار وجهَ الكـون بالنور الـذي علّمنا به علّـة الخلـق الحقيقية، وبيّن لنا أن المسـتقبل ليس عبارة عن ظلمات كما ادعى الملحدون، وأَشْـرَبَ قلوبنا مئاتِ وآلافَ الحقائق؛ لكنهم وا أسـفاه حُجبت عنهم تلك الحقائق الكلية، وما اسـتطاعوا رؤيتها، ﴿**وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ**﴾ (سُورَةُ الزُّخْرُفِ: ٤٣/٣١-٣٢).

(٥٢) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **المثنوي العربي النوري**، حَباب من عُمان القرآن الكريم، ص ١٨٢-١٨٣.

والأستاذ بديع الزمان ممن حلّ بهم ما حلّ من تلك النظرات المنحرفة في عصرنا هذا، وما ضرّه ذلك شيئًا، بل نزل الضرر بمن ينظرون إليه تلك النظرة ويقيمونه في ضوئها؛ إنه ذلك الرجل الذي لما ملك أوقيّتين من العسل أهدى واحدةً لإخوانه تكفيهم قرابةَ شهر، وإذا بها تنفدُ خلال ثلاثة أيام، فاقتسم معهم أوقيّته الثانية أيضًا وقال: "لقد نفد نصيبهم من العسل في يومين أو ثلاثة لما أظهروه من كرمٍ وإيثار فيما بينهم، في حين أنني بتّ أتقوّت ما كنتُ أملكه من العسلِ وأقتصد، فتناولته طوال شهرَي شعبان ورمضان، فضلًا عن أنه أصبح -ولله الحمد- سببًا لثواب عظيم، إذ أعطيتُ كلّ واحد من أولئك الإخوة ملعقةً واحدةً منه وقت الإفطار"(٥٣)، إنه الإنسان الذي يقول: "إن هذه السترة (الجاكيت) قد اشتريتها مستعملةً قبل سبع سنوات، وكَفَتْ أربعُ ليرات ونصف الليرة مصروفَ خمس سنوات مضت للملابس والحذاء والجوارب، فلقد كفتني البركة والاقتصاد والرحمة الإلهية"(٥٤)، إنه الإنسان الذي كان يسدّ رمقه بماء حساء الشَّعْرِيّة الذي يحتوي على بضع حبات منها، بينما يعطي حبات الشعرية للنملات الجائعة، وهو الذي يقول: "البركة في الاقتصاد، أما الإسراف فهو الطريق لانقطاع البركة"(٥٥)؛ وجعل هذا دستور حياته.

لقد كان على هذه الهيئة والصورة، لكن إحدى الصحف قصيرة النظر كتبت ذات يوم تقول فيه: "لما اقتحمت الشرطة بيتَ بديع

(٥٣) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **اللمعات**، اللمعة التاسعة عشرة، النكتة الخامسة، ص ١٩٧-١٩٨.

(٥٤) انظر: بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **المكتوبات**، المكتوب السادس عشر، ص ٨٦.

(٥٥) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **اللمعات**، اللمعة التاسعة عشرة، النكتة الأولى، ص ١٩١.

الزمـان عُثر على كثيرٍ من قشـر البيض في كيـس"، ولو أن هذا الخبر صحيح فالأمر طبيعي للغاية حسب أسلوب تفكير بديـع الزمان؛ فهو فعل ذلك شكرًا للدجاجة التي تبيض، والبيضة التي تفقِصُ فتأتي منها الدجاجة، ناشدتكم الله! أليس هذا طبيعيًّا من إنسان كان يقول: "كان للدجاجة التي تمنحني البيض يوميًّا فرخة عمرها ما بين خمسـة إلى سـتة أشـهر، بدأت تبيض عندما انقطعت أمّها عن البيض، لم تتركني يومًـا من أيام الشـتاء دون بيـض، إن هذه الحيوانـات مباركة..."[٥٦]، وهكذا كان ينظر حتى إلى الحيوانات.

فـي حياتـي كلها لـم أرَ كثيريـن يقـدّرون حتى البشـرَ الذين هم أشـرف المخلوقات مثل تقديره، انظروا إليه؛ إنه يعدّ دجاجَه مباركًا، فهو إنسـان في غايـة الدقة والرِّقة حتى إنه يقـول: "لو همّوا ينتزعون ريشـةً مـن دجاجتي، لقلتُ لهـم: عاقبوني بالحبس شـهرًا، ولكن لا تمسوا ريش دجاجتي!".

وربما كان هذا الإنسان المزين بتلك الأوصاف يحفظ قشر ذلك البيض في كيسٍ صغير كي يدفنه في مكان ما، ولكن انظروا إلى تلك النظرة القاصرة والفكر المعوج الذي يفسِّر الحدَثَ قائلًا: "إنه يتظاهر بأنه زاهد في الدنيا، غير أن العثور على أوقية من العسـل، وكثير من قشـر البيض في بيتـه يعني أنه يخدعنا..."؛ وهكـذا حجَبَهم مثل هذا الانحراف والتمسّك بصغائر الأمور من أن يستفيدوا من بديـع الزمان ومؤلفاته.

(٥٦) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **المكتوبات**، المكتوب السادس عشر، ص ٨٦-٨٧.

أجل، أولئك الذين انحرفوا فكريًّا وحسّـيًّا ليس لهم أن يستفيدوا مـن مفخـرة الإنسـانية ﷺ ولا من الإمـام الغزالي والشـيخ الجيلاني ومولانـا خالـد البغـدادي وبديـع الزمـان وأمثالهـم، وإذا كان الأمر كذلـك فعلى الإنسـان أن يتخلّص من المشـاعر المنحرفة والأحكام المسبقة والكبر والعجب بالذات، ومن كل ضروب التعدي والتجاوز حتى تتاحَ له الاستفادة من هؤلاء العظام، ويَجِد ما يستمع إليه صدًى في قلبه وعقله.

تأملوا عصر السعادة: لقد كان أبو جهل إنسانًا عاقلًا مثل خالد بن الوليـد رضي الله عنه علـى الأقل، فكلاهما من بني مخزوم، وهما أبناء عمومة، غيـر أن أحدهمـا انسـاق وراء كِبره وغروره وانحرافه، فتردّى أسـفلَ السـافلين وبقيَ على الجانب الآخر مـن الباب، أما الثاني فقد ارتقى إلـى "أوج كمال الإنسـانية" بتواضعه ومحـوِه وفنائه، وأخذ مكانه إثر الخلفاء الراشدين، وتسامى إلى أعلى علّيّين.

إذًا إن الاسـتفادة التامة من مجالس العِظام تتحقق بالإيمان أولًا، ثم بتجنّب كل ضروب التجاوز، وبالتجافي عن كل أنواع الانحراف.

أولمبياد العلوم

سؤال: ما رأيكم بمشاركة بعض المدارس من مرحلة التعليم المتوسط وفوزِها في المسابقات الأولمبية للمشاريع والعلوم التي تنظم محليًّا ودوليًّا في السنوات الأخيرة؟

الجواب: من المهمّ جدًّا أن تتقدّم مدارس تمثّل الأفكار والآراء المنبثقة من قلب هذه الأمة المختمر بخميرتها للمشاركة في مسابقات الأولمبياد العلمية أو مسابقات المشاريع التي تنظم محليًّا ودوليًّا؛ إذ إنّ على مَنْ سلكوا الطريق منفتحين على المستقبل عازمين على احتضانه بكل ما فيه ألا يغفلوا هذه الحقيقة ولو لحظةً واحدة، لا سيما أن هذه المسألة لم تُدرج حتى اليوم في سياسة الدولة، فصار الاهتمام بهذا الأمر والعناية به مطلقًا واجبًا مهمًّا يقع على عاتق من يحبّ وطنه وأمته، ويمضي بها نحو المستقبل أفرادًا وجماعات، ولو أنّ رجائي يُسمع لرجوت المسؤولين قائلًا: "هلا تجعلون هذا الأمر من سياسة الدولة"، لست أدري هل يوحي إليكم مثل هذا الرأي بشيء يدلّ على أهمية المسألة؟

ويمكــن تأصيل هذه المســألة شــرعًا: لقد لقي هــذا الضربُ من الفعاليــات العلميــة التشــجيع دائمًا، ســواء فــي عصر الســعادة كما فــي بعــض الوقائــع الفرديــة، أم في عصور غــدا فيها الفقــه مدارس وتطــور إلى مذاهــب، وهذا طبعًــا وفقًا لظروف كل فتــرة، وقد تابــع الجميــع باهتمام وفي مقدمتهم الســلاطين والخلفاء تلكَ التطورات التي حدثت في شتى فروع العلم، ومُنحت المكافآت للمتفوق منها، وفــي الواقــع أليســت تلك هي محصلات هذا المفهــوم الذي جعلنا أصحاب الكلمة عالميًّا على مدى قرون طويلة؟

وإن هناك شــبابًّا قادرًا على حماية ذاته وتحصين شــخصيته دون الســقوط فــي عقدة الدونية، يشــاطر أمته الفكر نفســه والــروح عينها بل يشــعر معها المشــاعر والأحاسيس ذاتها ويعيشــها، وإن مشاركته فــي الأولمبيادات العلمية ونجاحه فيها محليًّا ودوليًّا ممثِّلًا لبلادنا له أهميــة كبيرة جدًّا عند العالم أجمع لا ســيما أمتنــا؛ ذلك أن عصورًا مرت تسود فيها دعاية تزعم أنه "لا يخرج من رحم العالم الإسلامي عالِــم"، وهو ما كان يصيبنا بالشــلل عادةً، بل أثــرت فينا هذه الدعاية حتــى النخاع، حتــى إنني كدتُ أصدّقها رغم أننــي مفعمٌ بالأمل داعٍ إليه، لطالما تحدثتُ عنه ســنوات طويلة. أجل، لقد قوّضَتْ وهزمت هــذه النجاحــات التــي تحققــت بلطــف الله الدعايةَ المذكــورة، تلك الدعاية التي استقرّت محلّيًّا ودوليًّا ولدى الصديق والعدوّ.

والحقيقة أن الغرب الذي يسحقنا ماديًّا بقوّته وقدرته منذ عصور يسحقنا نفسيًّا أيضًا بهذا النوع من الدعايات، فتُسيطر علينا جميعًا في

هـذا المقـام عقدة الدونيّة، تسـيطر علينا لأنه لم تكن تلـوحُ في أُفقنا ولـو أمارة فجر كاذب يحـول دون هذا، غير أنه ليس الأمر كما كان، إني أظن أننا سـنتمكن -بعناية الله تعالى- من تحقيق نجاحاتٍ أعظم في مشاريـع أكبر وأكبر في السنوات المقبلة، وذلك بفضل الاطمئنان الذي نعيشه إثر تخلصنا من هذا الانسحاق.

وثمة فائدةٌ محلّيّةٌ لهذه النجاحات: منذ سنوات طويلة كان بعضهم يُطلـق على تلك المدارس اسـم "الكتاتيب" -أعظِمْ بشـأن الكتاتيب وأنعِـمْ-، إلا أنّ هذه المدارس أسـهمت في تقديـم كثير من الأفكار النافعة لبلادنا وأمّتنا، منها: سـبرُ أغوار الكون -انطلاقًا من حقيقة أن "القـرآن يقرأ الكونَ والكونُ يقرأ القرآنَ"-، والوقوفُ على الحوادث الطبيعية التي تجري في العالم، واسـتقراء الأشـياء ودراسـتها بعمق، وبلوغُ الأفق الذي أشـار إليه القرآن على لسان النبي وتقديمُه لخدمة البشـرية؛ ثـم إنّ تحقُّق هذا الهدف، بـل بلوغ قمّته أي تحقيقَ النجاح فـي المسـابقات العالميـة قـد غيّر مـا كان يُقال عن تلـك المدارس، وجعلها موضـع اهتمام الناس من القاعدة إلى القِمَّة؛ فالحمد والثناء كلّه لله الذي منَّ علينا بتلك النعم.

هـذا وقـد طَمْأَنَتْ تلـك النجاحات من يدعمـون بإخلاصٍ تلك المـدارس اطمئنانًا بالغًا، فلقد اطمأنّوا لِمـا فعلوا وهم يتحدّثون مـع النـاس، وصـاروا يفخـرون بالانتسـاب إليهـا وبينما هم فـي دعمهم الصـادق مسـتمرّون حتـى اليوم بأضعـاف مضاعفة صـاروا يتّخذون

من هذه النجاحات وسيلةً للحصول على دعم الآخرين للمدارس، وبدؤوا يستخدمون هذه الوسيلة في كل المحافل.

وعندما تتحقّق هذه الأمور جميعًا فلنعلم أن تلك النجاحات التي تحقّقت، والمستوى الذي بلغناه ليس هو الهدف أو نقطة النهاية، إننا نعدّ تثبيطَ الهِمَمِ إثمًا؛ ولهذا فما تُنجزونه بطريقةٍ بدائيةٍ اليوم هو أرضية وبنية أساسية لمشاريع ستُنجَز بحِرفِيّة في المستقبل إن شاء الله، ستؤسَّس في بلادنا -بإذن الله تعالى- قريبًا بدائلُ وكالة "نَاسَا (*NASA*)" الأمريكية التي يغبطها العالم أجمع، والأيام التي ستنسب فيها براءات الاختراع للعلماء المسلمين قريبة آتية لا محالة.

أمر آخر لا بدّ من تذكره دائمًا، وهو أن ضبطَ مؤشّر القلب ضبطًا جيّدًا في كل مرحلة من ألفها إلى يائها، ومن البداية حتى النهاية وإخلاصَ النية شرطٌ بل فرضٌ، قلنا من الألف إلى الياء، أي بدءًا من الطلاب الحاصلين على ترتيب في هذه المسابقات حتى المدرسين الذين ينشِّئونهم، وأولئك الذين لا يضنّون بالدعم المادّي والمعنويّ، وجميع القلوب المشجّعة من الرجال والنساء الذين يفرحون بهذه النجاحات وليس لهم أيّ دور... أجل، إن على هؤلاء جميعًا أن يضبطوا مؤشرات قلوبهم جيدًا، وأن يشكروا الله "شكرًا مطلقًا" دائمًا؛ فلا بدّ أن يشكر كلُّ إنسانٍ ربّه كما يفعل طبعًا بعد كل نجاح يحققه؛ يشكره وَجِلًا مستهديًا بالبيان الإلهي السماوي: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ: ٧/١٤) وأن يسجد شكرًا لله، ويتوجّه إلى الله تعالى متضرّعًا متحرّقًا بنشوة الشعور

بحقيقة التوحيد في ذاته كلّها؛ لأننا نعلم ونؤمن إيمانًا قاطعًا بأن كلّ شيءٍ نحظى به إنما هو منه تعالى.

ولنختم هذا الموضوع بتحديد هدف: ألا ليت بعض الدراسات تبحث كِلا مرضَي السرطان والإيدز! أجل، فالعثور على علاج لهذين المرضين الفتّاكين الخبيثين يمثل خدمةً عظميةً للبشرية جمعاء، حتى إنه يمكن القول بأنه إذا ما اتحدت مائة مدرسة بطلابها ومدرسيها وبطاقاتها المادية، وصارت دواءً لداء السرطان، فأحيت نفسًا واحدةً فقط، فلعل الله يُدخِل كل هؤلاء المؤمنين الجنة، ناشدتكم الله: لو أنكم كنتم ذلك المريض، وفُتح لكم باب الجنة في الآخرة، ألا تقولون: "يا ربي لا أريد الدخول حتى يدخل هؤلاء الذين أنقذوني من مرضي"؟

شاهدت في برنامج على التلفاز قبل فترة سيدةً أصابتها إبرة ملوّثة بفيروس الإيدز، إنني لا أملك مشاعري كلما لاح لي هذا المشهد رغم مرور شهرين أو ثلاثة عليه، وأجدني لا أتمالك نفسي ولا دموعي، فقد كانت السيدة تبكي؛ فهي سيدة عفيفة، وهذا المرض ينتقل بالعدوى عن طريق الزنا كما شاع وذاع، وربما كانت تلك المرأة تبكي وتموت ألـمًا خشية أن يُظَنّ بها هذا.

أجل، على المتطوعين من أهل العلم والمعرفة أن يبنوا دراساتهم على هذا الفكر والمعتقد عملًا بقوله ﷺ: "**خَيْرُ النَّاسِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ**"(٥٧).

(٥٧) الطبراني: **المعجم الأوسط**، ٥٨/٦.

وضعُنا المؤسف وسُبل الخلاص منه

سؤال: ماذا عن سبل الخلاص من الوضع البائس الذي نعيشه منذ قرنين أو ثلاثة؟

الجواب: لقد عرضت لأمّتنا مصائب كبرى منذ نحو ثلاثة قرون على فترات تترى كل أربعين أو خمسين سنة. أجل، منذ مطلع القرن السابع عشر الميلادي حتى اليوم والمصائب تنهال علينا، وكأن الله ﷻ يقول لنا على لسان الحوادث: "تنبّهوا، واستفيقوا، وعودوا إلى هويتكم الأُمّ!"؛ يقول هذا ليؤدِّبَنا ونحن لا نستوعبُ الدرس اللازم جيّدًا ولا نعتبر؛ لذلك ما زلنا نرتكب أخطاء تنجم عنها مثل تلك المصائب والبلايا، وكأننا ندعو الله بأن يرسل علينا مصائب أخرى.

أجل، لقد قلنا: إن المصائب تتوالى، من ذلك أن البيوت هُدِمَت في الحرب الروسية العثمانية (حرب ٩٣)، وخربت الدور والأنزال ونُهبت البيوت والمنازل وشَنَقَ الجنود الروس الجنودَ الأتراك، وعلقوا كل واحد على شجرة، فانكسرت الأمّة وانقصمَ ظهرها... ثم اندلعت حرب البلقان... ثم الحرب العالمية الأولى، واضطر جنودُنا

إلـى القتال في كل الجبهات... اضطروا لذلك، فذهب معظمهم إلى جبهات مختلفة دون عودة، وصارت كل هذه الأحداث قضايا تُطرَق في الشعر والمراثي والأناشيد. والأبيات التالية غيض من فيض:

هذا هو اليمنُ　　طريقه سهلٌ مُعشِبُ
ذاهبُهُ لا يرجعُ　　يا تُرى ما السببُ؟

وقد ذكرنا أنّ هذه الحوادث المؤلمة هي في واقع الأمر مصائب منّ الله بها علينا حتى نعود إلى ذاتِنا، وفيها بعدٌ من الإحسان للقادرين علـى الانبعـاث مـن غفلتهم، أمَّا إذا مـا فتئنا ندور فـي حلقات تلك الدائـرة الفاسـدة ولم نعتبر بهـذه المصائب كما ينبغي فلا شـكّ أنها ستستمرّ، بل ستحلّ بنا أضعافًا مضاعفة، ولن ترتفـع عنّا؛ وهذا يعني أن هذا المسـتنقـع قُدّر لنا فترةً أخرى حتى نكون بين مصيبتين: نفاق المنافقيـن منّـا وضرر الأعـداءِ المعتدين من غيرنا، لكننـا إذا ما أفقنا وتوحَّدْنـا مـع روحنا وجوهرنا وعدنا إلى ذاتيتنا، فإن الله القادر على كل شيءٍ سيهدينا سبلَ السعادة، لنتوجَّه إليها ونسير فيها.

هل نحنُ وحدَنا دون سوانا عرضةً لهذا الضرب من المصائب؟ لا. أبـدًا، انظـروا إلى سـائر بلاد العالم الإسـلامي سـترون المشـهد نفسـه، لذلـك يمكن القول: إنه قَـدَرٌ جامـع للعالم الإسـلامي إنّه لا مكانة للدول الإسـلامية بين الـدول في هذا العصر، ولا وزنَ لها في التوازنات الدوليّة. أجل، لقد تشرذَم العالم الإسلامي في هذا العصر وصـار لُقيماتٍ سـائغة، بـل جُعِل هكذا، فكثير من هـذه الدول اليوم صـارت مسـرحًا لأنواع شـتى من الظلـم لا يتخيّلها عقـل، علمًا أننا

لم نكن هكذا بالأمس القريب... لم نكن هكذا، لـمّا همّ الفرنسيون بعرْض مسرحيّة "فولتير" المسيئة لسيدنا رسول الله ﷺ، أنذرهم برسالةٍ ذاك الذي يسميه الغرب "السلطانُ الأحمر" عبد الحميد خان الثاني -جعل الله الجنة مثواه-، فرُفِعت فورًا من على خشبة المسرح وكانت قد بيعت تذاكرها؛ ثمّ همّ الإنجليز بعرضها فأنذرهم أيضًا، فاضطروا لإلغاء العرض، جرت كلّ هذه الأمور طبعًا في فترة كان الغرب فيها يسمي الدولة العثمانية "الرجل المريض"، وهذا أمر له مغزًى كبير.

والآن يا تُرى ما الحلّ وما السبيل للتخلص من كل هذا؟ إن أردنا أن تكون لنا الكلمة من جديد في السياسة العالمية وفي إدارتها، ونرتقي إلى مستوى أمةٍ كلمتها نافذة، فلدينا أمر أو اثنان دلت عليهما إحدى الآيات الكريمة في حديثها عن هذا الموضوع، يقول الله جل جلاله لسيدنا محمد ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (سُورَةُ الأَنْفَالِ: ٨/٣٣)؛ ففي هذه الآية أمران يسترعيان الانتباه، ويمنعان العذاب:

الأول: وجود سيدنا رسول الله ﷺ ذاتًا وروحًا؛ وقد وفّى الله تعالى بوعده هذا في عصر الصحابة الكرام ورسول الله ﷺ فيهم جسدًا وذاتًا، أي إنه لم تحل بأمته صلوات ربي وسلامه عليه في عصر السعادة تلك المصائب والابتلاءات السماوية والأرضية التي حلّت بقوم نوح ولوط وصالح وغيرهم من الرسل والأنبياء عليهم السلام.

والآن ليس بيننا سيدنا رسول الله ﷺ بجسده، فجسده غدا في عالم البرزخ، وكلّ مخلوق فانٍ، غير أننا إن أحييناه دائمًا في قلوبنا

وأفئدتنا أمكنَنَا سدّ تلك الفجوة؛ لذلك يمكننا أن نستفيد من الحكم المذكور في الآية برفع العذاب لوجوده المعنوي بيننا ﷺ.

الثاني: الاستغفار وملازمته... أجل، إنّ سادتنا الذين كانوا لنا المرشد والدليل بأقوالهم وأفعالهم وتصرفاتهم وسلوكهم منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان حتى اليوم وفي مقدمتهم سيد الأنبياء محمد ﷺ لَزِمُوا الاستغفار وربما لم تكن لهم ذنوب؛ فقد كان رسول الله ﷺ مثلًا يستغفر في اليوم سبعين مرة أو مائة مرة على اختلاف الروايات[٥٨]، وكان الصحابة الكرام الذين اتَّبَعوه يتوجهون إلى الله فورًا يستغفرونه مما قارفوه أو ظنوا أنهم قارفوه، ويتحرّون سبل غفران الذنوب، فكان مَن بعدَهم يهتدي بهديهم.

تبين إذًا أنّ الاستغفار الذي جعله الله تعالى سببًا لرفع العذاب كان في حياة أسلافنا بكل ما فيه من حيويّة، وكان يُتحَصّنُ به.

والآن أرى أننا -نحن أبناء العالم إسلامي- ابتعدنا تدريجيًّا عن الحياة الإسلامية منذ مطلع القرن السابع عشر حتى اليوم، بعُدنا وخضنا في الذنوب، ولطالما غدت الحياة الدنيوية همّنا، وجفونا القرآن والرسول وأوامرهما في حياتنا، وفوق هذا عجزنا أن ندرك أن كل ما فعلناه ذنب وإثم، وعجزنا عن الاستغفار؛ لهذا أرسلُ الله العدْلُ علينا وابلًا من أصناف المصائب والابتلاءات.

(٥٨) صحيح البخاري، الدعوات، ٣؛ صحيح مسلم، الذكر، ٤١.

والآن وفي ضوء هذا يتبيّن أن سبيل الخلاص من هذه المصائب هـو: أن يسـود الاسـتغفار حياتنـا كلهـا، وأن ننقش حبّ رسـول الله ﷺ فـي قلوبنـا، وأن نتبينَ أخطاءنا سـريعًا، ونبحث عن حلٍّ ومخرج للسير والخلاص. أجل، هكذا ستنهض -إن شاء الله- هذه الأمة ماديًّا ومعنويًّا، وتعود كرّةً أخرى إلى عصور المجد السابقة.

توحيد الأديان(!)

سؤال: انطلاقًا من القواسم المشتركة بين الأديان انتشر في الغرب: "أنَّ مصدرَ الأديـانِ كلّها واحدٌ، فلا بد أن نوحِّدها في دينٍ واحد"؛ فكيف ينبغي أن يكون موقفنا من تلك الأفكار؟

الجواب: بادئ ذي بدء أريد أن أبين أن هذا الأمر ليس مشكلتنا نحن، بل مشكلة من يرون الأديان متعارضة؛ إذ إننا لا نرى اختلافًا بين اليهودية والنصرانية وبين الإسلام من حيثُ المصدر، بل العكس هو الصّواب، فنحن نطلق عليهم اسم "أهل الكتاب" كما جاء في الكتاب والسنة، ونسعى إلى الانضباط بهذا المنهج؛ فيجوز الزواج بالنصرانية أما الملحدة فلا، ويجوز أكل ما يذبحه اليهودي أيضًا... وعلى هذا فإنّ سيدَنا عمر رضي الله عنه سنَّ بالمجوس سُنَّةَ أهل الكتاب؛ لأن مِنْ أمَّهات عقائدهم ما هو قريبٌ من العقيدة الإسلامية، حتى إنَّ ثمة علماء أفاضل في يومنا هذا مثل "محمد حميد الله" يرون هذا الرأي في الديانة البراهمانية، وألحقَ بعضُهم الفئةَ البوذيّة بهذا الحكم أيضًا.

إن كان ما قاله الباحثون صحيحًا؛ كان "بوذا" مصلحًا مثل "مارتين لوثر (*Martin Luther*)"، وعليه فقد تكون البوذيّة مذهبًا في البراهمانية؛ ودلّت دراساتهم أنَّ البوذيَّة استلهمت الأخلاق

من البراهمانية، وجعلت منها نظامًا وطوَّرَتْها، ولم تستلهم الجوانب النظريّة، وإذا كانت البوذية هكذا، فإن إطلاق لفظ "دين" على نظام بهذا المعنى محلّ نزاع؛ لأن الدين اصطلاحًا: "وضعٌ إلهيّ سائقٌ لذوي العقول باختيارهم المحمودِ إلى ما هو خيرٌ لهم بالذات"؛ أمّا لغةً: فيمكن أن يُطلَق على هذا النظام اسم "الدين" بمعنى السبيل أو النظام أو المذهب وإن لم يطلق عليه اصطلاحًا، ومع هذا فالمسألة قابلةٌ للجدل، ومن يدري فلعلّ للنظام البوذيّ أصلًا كسائر الديانات الإلهية، وقد يكون دينًا مختلفًا عن البراهمانية.

وللحديث عن هذا الموضوع أسرد إليكم أمرًا آخر استطرادًا: لو لم يحدثنا القرآن الكريم عن المسيحية الخالصة وعن عيسى ﵇، فكم كنّا سنعاني لنفهمَها بصورتها القائمة المحرَّفة، كنا سنعاني كثيرًا، وكان سيستحيل علينا بيان مفهوم "التثليث" أو "الأقانيم الثلاثة" التي تُختصَر بنحو "واحد في ثلاثة، وثلاثة في واحد"، ولو لم يقدِّم القرآن الكريم بيانًا جليًّا عن كلٍّ من سادتنا موسى وهارون وسليمان وداود ﵈ لتعذّرت معرفة الماهية الحقيقية لهؤلاء الرسل الكرام كما بيّنتها عقيدتنا؛ فالمصادر اليهوديّة تزعم مثلًا أنّ بعضهم فيلسوف، وبعضهم -معاذ الله- سِكِّير، وبعضهم زانٍ يزني ببناته -حاشا وكلا-... إذًا لا يمكن أن يُطلق "دين" على مفهومٍ ينسِب إلى الرسل والأنبياء أشياءَ لن يفعلها حتى أدنأ الناس وأحقرهم في العالم؛ ومن ثمّ يمكن القول: من الممكن أن يكون للبوذية أصل حق إلا أنّها تعرّضت لعملية التحريفِ والتبديلِ كالمسيحية واليهودية.

هـل حدث هـذا للبوذية فحسـب؟.. لا، فهذا "سـقراط" مثلًا، لا تُعْرَف أفكاره من كتاباته هو؛ لأن طلابه هم من نقلوا كلَّ شـيء عنه، فكم تتلمذ "أفلاطون" على يد "سقراط"، وإلى أيِّ مدى فهِم أستاذَه، ونقـل إلينـا ما أخذه عنه؟ كل هذه مجاهيل، وَلَـدَى النظرِ إلى أفكارِهِ العامَّة نجدُ أنَّه كان مؤمنًا بالله.

أجل، لطالما فقدتِ الأفكار صفاءها ونقاءها الأول بمرور الزمن إبَّانَ تداولها بين الأفراد والأجيال، لو أن الأمر وقف عند هذا الحد، لكـن يحتمـل أن مدلولها أيضًا أصابه التغيير عدا فقدانها صفاءها في التعبير؛ إن هذا لهو أحد أنماط التحريف حتى وإن لم يكن بسوء نية.

ومـن هـذه الأمـور: أنه يتعـذر توقّـع مـا آلَ إليه النهـجُ الروحيّ للمسيح عليه السلام بأكمله حينما اصطدم بوثنية "روما"، وبوسعكم مشـاهدة تلك الحقيقة المرة واضحةً حين تدخلون أية كنيسـة؛ ومن ذلك أنّ مفهوم المسيحية المحرَّفة للألوهية يقول: الإله خاملٌ، وعليه أن يدخـل فـي السـيدة مريم ثم يخـرج منها حتـى يصير إلهًـا فاعلًا ويتحول إلى المسـيح، ويغدو المسـيح هو الفاعـل الحقيقي أصلًا، فهـو يفعـل كل ما بوسـعه من أجل الإنسـانية، بل يضحي بنفسـه إذا لم يبقَ لديه ما يفعله، ويحين الوقت ليغدو أضحية(!).

ونعلـم أن اليهـود يقولـون أشـياء كتلـك فـي عزيـر عليه السلام، وهذا يعنـي أن مثـل تلـك الحقائق التي تشـبه الماس قد يـؤدّي الخطأ في تدوينهـا إلى خطإٍ فـي نقلها للأجيال القادمة، أمّا الإسـلام فنصوصُه مدوَّنـة علـى أكمل وجهٍ، والله تعالى قد تكفَّل بحفظ كتابه، ومع هذا

قد تتسلل مثل هذه النوعية من المعتقدات إلى بعض أتباعه، من ذلك نسبة الألوهية إلى سيدنا عليّ ﵁؛ وهذا كأنه العقيدة المسيحية التي ألمحنا إليها آنفًا، فسيدنا عليٌّ على هذا هو الألوهية الفاعلة -حاشا لله-، وما إرسالُ سيدنا محمد ﷺ ونزولُ القرآن الكريم وغير ذلك سوى تهيئة لسيدنا علي ﵁، وهو ﵁ صاحب مقام الجمع، فاجتمع في كيانه كل شيء ومثّله تمثيلًا، ثم تَقاسمَ هذه القوة من ذريته الأئمةُ الاثنا عشر؛ وستجتمع تدريجيًّا تامّةً في الإمام المنتظر باعتباره خاتم الأولياء، وهو الذي سيكشف عن الثلاثمائة أو الأربعمائة آية الناقصة من القرآن، وستظهر الحقيقة، وتتجلى تجليًا كاملًا مرةً أخرى (!).

ويستحيل الجمع بين شيءٍ من هذه الادعاءات الباطلة وأصول الإسلام، وما أودى بهؤلاء في هذه الهوَّة سوى الجهل والتعصّب الأعمى، ولولا اتفاق الأمة وإجماعها، وجهدها الممتد منذ أربعة عشر قرنًا لعانينا كثيرًا في فهم حقيقة سيدنا علي ﵁.

إذًا، وإن تردَّى كل واحد من المسيحية واليهودية والبوذيّة والمجوسية والبراهمانية في هوّة التحريف والتبديل إلا أن لها أصولًا مشتركة قد اتفقت عليها، منها: التوحيد والنبوة والحشر والعدل والعبودية ودفن الموتى والتستر... إلخ؛ فجُلُّ الأديان تتّفق على دفن الأموات عدا شواذَّ خرجوا على أعرافٍ امتدّت عصورًا طويلة، وأوصوا أن "أَحرقوا جسدي"، وأتباع معظم الأديان يرتضون التستر ويعملون به، بل إن كثيرًا من نساء اليهود في بلدان العالم كنّ يغطّين

رؤوسهن حتى وقت قريب؛ إذًا ثمة مجموعة من القيم المشتركة تتفق عليها الأديان، ولا ريب أن كثيرًا من أحكامها وقع فيه تحريف وتغيير وإن لم يحدث مثل هذا في الإسلام.

وعلى هذا يتعذّر تمييزُ ما جاء من عند الله عن غيره أصولًا وفروعًا، وقد أنزل الله ﷻ الأصول التي رضيها على كلّ نبيّ أرسله خلفًا لغيره من الأنبياء، ونسخ ما أراد نسخه من الفروع، وقد أرسل سيدنا محمدًا ﷺ خاتمًا للأنبياء، فحمل مهمة التصحيح والتجديد والتأسيس من خلال الكتاب والسنة.

أجل، إنه مصحِّح لأنه صحّح ما أصابه التحريف في الشرائع السابقة، وهو مجدِّدٌ غيّر كثيرًا من الأحكام لتناسب تغير الأحوال والأزمان، وهو مؤسّس أسّس شرعًا جلُّه جديد من الألف إلى الياء؛ إذًا لا حاجة ألبتة للسعي إلى توحيد الأديان من جديد؛ إن الإسلام -الدينَ الذي شرعه الله- هو اسمٌ لهذا الأمر الذي يفكّرون في تحقيقه، وفي هذه الآيات بيان لهذه الحقيقة: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**﴾ (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٥/٣)، ﴿**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ (سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: ٣/٨٥)، ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ**﴾ (سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: ٣/١٩).

وفي قاعدة "شرعُ مَن قبلنا شرعٌ لنا ما لم يرِد ناسخ"، مؤشرٌ آخر يشير إلى أنه لا حاجة لأمرٍ كهذا.

وهذا الضرب من الفكر والدراسات لا يُحظر إن كان باسم الثقافة لا باسم الدين؛ لأن الدين شيءٌ، والثقافة شيء آخر، ولا يمكن أن نعدّ الدين والثقافة شيئًا واحدًا مهما تضمّنت الثقافة أمورًا تصدر من الدين بل تتغذّى منه، فهذه الأفكار وإن أفادت في الدراسات العلمية والثقافية والحضارية إلا أنها دينيًّا تشبه في التباسها لغة الطقوس الهندية القديمة "السنسكريتية"، فهي عبثٌ محضٌ.

وآخر ما هنا أن هذه الأفكار طُرِقت في عصور خاليةٍ ودراسات سعت لتوحيد الأديان، وباءت جميعها بالفشل في أهدافها، ولعل "أكبر شاه" ذو نيّة حسنة، لكنه إنسان خضع لتأثير الهندوس وقال: "لنأخذ من كلّ دينٍ شيئًا، ونجمع بينها"، فنجم عن فعله هذا الزجّ بقامةٍ عُليا مثل الإمام الرباني في السجن.

وظهر أناسٌ في الغرب (لعل غارودي منهم) في الآونة الراهنة ليدعوا إلى الوجهة نفسها، وهؤلاء أفنَوا جُلَّ حياتهم حُمَاةً لأنظمة مضادّة للإسلام ثم اعتنقوا الإسلام في الظاهر؛ يفعلون ما يفعلون ظنًّا أنه الصواب إلا أنه خطأ محض، إنهم لم يطبقوا الإسلام بعدُ تطبيقًا يجعله جزءًا من أنفسهم أو من فطرتهم لا ينفصم عنها، ولم يطهّروا جوّانيتهم من نُفَايات الكفر، ويلقوها عنهم، فهم كمن يُشمِّر لِلُّجِّ عن ساقه ويَغْمُرُه الموج في الساحلِ.

أجل، إن الإنسان ميَّال للإفراط والتفريط والانحراف بطبعه، فهذا "ابن تيمية" وإن كان شخصية إسلامية عالمية إلا أنّ له آراءً شاذّةً وفيها إفراط، وإن من جعله متشدِّدًا في منهجه هم من كانوا يشعلون

الشموع في المقابر، ويغالون في زيارة الأضرحة يومئذ؛ ولهذا ينبغي أن يكون الناس حذرين يقظين دائمًا، وأن يعنوا عناية عظمى بتجنّب هـذا الخلق الضارّ الكامن في طبعهـم، وألا يخضعوا لتأثير البيئة في هذا الشأن، وأن يسعوا دائمًا لتقييم الحوادث في ضوء موازين القرآن والسنة، وليُعلم أبدًا أن الميل للإفراط والتفريط ابتلاءٌ ملازمٌ لنا.

لـذا ينبغي أن يكبح الإنسـان جماح إرادتـه، ويبحث عن الطرق المؤديـة للكمـال الإنسـاني فـي الديـن الـذي ارتضـاه الله بقولـه: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٥/٣)، وأن يسـلك في تلك الرحلة صراطًا سلكه النبيون والأصفياء والأولياء ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، كي يبلـغ المنزل المقصود، وإلا قد يخسر في وقت هو أدعى للكسب.

الفصل الثالث

حول محور الدِّين

العمل بالرؤيا

سؤال: هل الرؤيا مصدر حكم؟

الجواب: الرؤيا "من المبشرات" كما ورد في الحديث[٥٩]، **فالله** جل جلاله يسوق إلينا البشارات عن طريق الرؤى، وأرى أن هذا من باب الأفضال والألطاف على غِرار ما يُعطَى للأطفال من الحلوى.

ولا شك أن للرؤيا حقيقةً ما، والسؤال عن العمل بها لا عنها، فلنُعنَ بموضوعه، ومن المفيد الإشارة هنا أيضًا إلى حكم العمل بغير الرؤيا من وسائل الاتصال بعالَم الملكوت.

إن ساحة التكاليف هي "اليقظة"، وهذا يعني أن النوم والإغماء ونحوهما عوارضُ يرتفع بها التكليف، فليس فيهما ما يمكن أن تستند إليه الأحكام، والآمر والمأمور في هذا سواء، لذا لا يكفر من تفوه بكلمة الكفر في نومه، وكذا الإغماء علّة لرفع التكاليف الشرعية.

وعندما ننظر إلى المسألة من هذه الزاوية، يتعذر القول بأن ثمة قيمة موضوعية لبشارات الرؤى أو إنذاراتها إيجابيةً كانت أم سلبيةً،

(٥٩) **صحيح البخاري**، التعبير، ٥؛ **سنن الترمذي**، الرؤيا، ١.

فـلا تُقبـل دليلًا أو حجـة ملزمة، والمقبول هنا أن فـي موافقة الرؤى للشـرع الشريف وملاءمتها رسائلَ خاصة للرائي وقيمةً مالم تُعارض الكتاب والسنةَ وإلا فلا.

ولنَفترض أن إنسـانًا تيسَّـر لـه أداء فريضة الحج فلـم يحجّ لأنه رأى رؤيـا أَنْ لا تحـجَّ، فهذا باطل قطعًا؛ فرؤياه هذه ليسـت دليلًا أو مسـتندًا شـرعيًّا ألبتة؛ لأن فريضة الحج ثابتة بالكتاب والسنة، ويلزم كلَّ من وجد إليها سبيلًا أداؤها، وأعذار ترك الحج محددةٌ مبينة في كتب الفقه المستمدة من الكتاب والسنة، ولو أن إنسانًا رأى رؤيا بل مائة رؤيا خلافَ هذا، فلا قيمةَ لها وعليه العمل بالأحكام الفقهيَّة.

واسـتغلالُ الـرؤى لإلـزام الآخرين بشـيءٍ ما خطأٌ فـادح أيضًا، ومعناه معارضة النصّ حتمًا؛ والذي يمكن أن يُسلَّم به هو أن الرؤى موجِّهة لمن يراها فحسب في المباحات؛ ويستحيل القول بأن للرؤيا وزنًا يساوي حكمًا استنبطه المجتهدُ من الكتاب والسنة النبوية...

ومـا قلتـه في العمل بالرؤى ينطبق عنـدي على غيرها من طرق الاتصال بعالم الملكوت:

من ذلك أنه قد يتمثل سـيدنا رسـول الله ﷺ لإنسـان فيلتقي به، ومـن بـاب المحال نفرض أنه قال له أمرًا يخالف الموازين الشـرعية -هـذا فـرضٌ محال وأجدني أرتجف وأرتعش مـن ذكره- فلا يجوز لـه العمل بقـولٍ يعارض الموازين الشـرعية، وليس لـه أن يعدّ لقاءه برسـول الله حجّة ودليلًا. أجل، إن تعظيم سـيد الأنبياء صلوات ربي

وسـلامه عليه وتوقيره مسألةٌ، وكون سـنته حجّةً ودليلًا واتباع حياته ونبوّته مسـألةٌ أخرى، وإنما اخترْتُ رسـول الله مثالًا ليشـمل الحكمُ مَنْ سواه بطريق الأَوْلى، أي لو تمثل الأنبياء حقيقةً لإنسانٍ ما، وكذا الأوليـاء فالحكـم لا يتغيـر، بل يتبـع الرائي الضوابط الشـرعيّة دون سواها ويبني عليها.

ومنهم مَنْ يتوهَّمُ الاتصالَ بعالم الملكوت عن طريق الجنّ، وهنا أقول بلغة واضحة قاطعة: هذا ليس طريقًا ألبتة؛ فالجن مقارنة بالبشر أضعف وأقل قابليةً واستعدادًا، وما يقولونه تسـعةٌ وتسـعون بالمائة منه كذب، لهذا قد تكون القرارات التي تتخذ بناءً على كلامهم تسعةٌ وتسـعون بالمائة منهـا خطأ، والكهانة أيضًا صـارت ظاهرةً في يومنا هـذا، والكُهّان أنفسـهم محتاجون إلى مسـاعدة، لذا فتوقُّـعُ الفائدة منهم ليس إلّا خداعًا للنفس.

وللجن قدرة على الظهور بأشكال وصور مختلفة، ولهذا السبب فليـس ببعيـد أن يخدعوا بعضَ الناس، فكم خَدَعوا واسـتَغْفَلوا بهذا الأسلوب، وبلغ مِن خداعهم أنّ مِن أولئك المساكين من ظن نفسه المهدي، بل النبيّ.

ويلحق بهذا الموضوع المخاطر التي تحفّ بطريق الولاية أيضًا، وحسبنا الإشارة إليها لأنها تحتاج بحثًا مفصَّلًا.

إن مـا يرد من مشـاهدات أو معلومات من طـرق الاتصال بعالم الملكوت كالرؤى وغيرها ليست أحكاما تلزم الإنسان وتقيّده شرعًا،

لا سيما إذا عارضت الموازين الشرعية؛ فهذه يمتنع الالتفات إليها قطعًا، وما ينبغي للمسلم أن يفكِّر في أمرٍ كهذا أصلًا.

وهذا خشيةَ أن يخسر المؤمنون في وقتٍ هو أدعى للكسب بأن يتنكبوا عن الصراط المستقيم -نسأل الله السلامة- سواء بسبب الرؤى أم حالات الواقعة أم باستخدام الجن والشياطين؛ فهذا "غلام أحمد" سقط في مأزقٍ كهذا فخسِرَ، لقد بلغ ما بلغ في تعزيز الروح بقوّة مميّزة في الهندوسيّة وفلسفة اليوجا، ثم سلك الطريق نفسه ليُثبِت رفعة الإسلام، فَضَلَّ، وقضى ستة أشهر بلا طعام أو حاول ذلك، ليبرهن للبراهمة والبوذيين على رفعة الإسلام كما قيل.

ناشدتكم الله هل هذا هو السبيل لتبليغ الإسلام وبيانه؟ ثم قال غلام أحمد: "أنا المهدي، أنا الإمام المنتظر، أنا رسول!" ثم قال -حاشا- "أنا الله!" معتقدًا بالحلول والاتحاد.

إنَّ استخدام الجنِ والشياطين انحرافٌ عن الصراط المستقيم. أجل، إن هذا الضرب من المسائل أي العمل بالرؤى، والركون إلى أحوال الواقعة، واستخدام الجن... إلخ دائمًا ما تبدأ عادةً هكذا في حدود المشاعر والمقاصد الإسلامية النزيهة، ثم إذا بكم قد زللتم، ولمزيدٍ من الإيضاح إليكم مثالًا:

إن اتباع الكتاب والسنة هو الواجب، ولو رقيتم إلى السماوات مثلًا، والتقيتم بسيدنا رسول الله ﷺ فوق الزمان والمكان، وحظيتم

برؤية تجليات الحق تعالى عيانًا، فلا يعادل شيءٌ من هذا تطبيقَ السنّة السَّنيّة.

إذًا علينا ألا نخرج عن عموم دائرة المسلمين، وأن نسيرَ على أرض ثابتة، ونقول: "لَأَنْ نكون جنودًا أفضل من أن نكون قادة"، وليكن أحدنا فردًا من الناس، فهذا سيدنا عمر رضي الله عنه أثنى عليه أحدٌ بعدما أصيب قائلًا: "أَبْشِرْ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ بِبُشْرَى اللهِ لَكَ، مِنْ صُحْبَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَقَدَمٍ فِي الإِسْلَامِ مَا قَدْ عَلِمْتَ، ثُمَّ وَلِيتَ فَعَدَلْتَ، ثُمَّ شَهَادَةٌ"، فتبسم عمر الفاروق بمرارة فقال: "وَدِدْتُ أَنَّ ذَلِكَ كَفَافٌ لَا عَلَيَّ وَلَا لِي"[٦٠] أي وددتُ أني خرجتُ من الدنيا كما دخلتُ فيها، لا أجر ولا وزر؛ وأنا الفقير أيضًا لا أتمنّى لنفسي سوى هذا.

إن الله لن يتخلّى عنكم، وسيمنُّ عليكم بما منَّ به على الأولياء إن اصطبغتم بالمشاعر الخالصة، وتمسكتم بـ"الكتاب والسنة"، وجعلتم الدساتير الماسيّة لـ"الشريعة الغراء" ومعالم الطريق المستقيم دستورًا للحياة.

إن الكتاب والسنة بين أيدينا، فلا شيء يؤخذ به مما لم يصح في ديننا، وحسبُكم من الرُّؤى التي ترونها وأحوال الواقعة أن تطير بكم وتغدو حافزًا لِهِمَمِكم.

---

(٦٠) **صحيح البخاري**، فضائل أصحاب النبيّ، ٨.

سبل الخلاص من الذنوب

سؤال: ما الذي ينبغي مراعاته عندما نقع في الذنوب ونريد الإقلاع عنها والتوبة منها؟

الجـواب: التوبة أكبر حصن لنـا لمواجهة الذنوب، وثمة أمور لا بـد مـن مراعاتها في هـذا لما لها من أهمية عظيمة فـي حياتنا القلبية والروحية:

١- الندمُ على فعل الذنب

ولهـذا الأمر صلةٌ قويّةٌ بحالة الإنسـان الروحية وقتئذ، أي عندما يسـجد العبـد نادمًا على مـا اقترف، ويجأر ويبكـي، ويبتهل متضرعًا يرجـو مغفـرة ذنبـه، ولا يقنـع بالآهات والبـكاء والنـدم، ولا تُطفِئ الصرخـات نـار الفـؤاد، فعسـى أن يكـون هـذا الحزن الـذي يزلزل جوانيتكم أرجى لقبول التوبة وأمضى لها عند الله تعالى.

قد تمر بالسـوق، فيقع بصرك على الحرام خطأً، فتحدِّث نفسك قائـلًا: "آهٍ! مـاذا فعلـتُ؟! زلّ نظري إلى الحـرام وارتكبت إثمًا بينما ينبغـي أن أتوجّـه إلـى الله تعالـى فـي كل لحظـة بعـدد ذراتـي، وقد كان بوسـعي أن أغـضّ بصـري، أو أختار طريقًا سـليمًا آمنًا ولو كان

طويلًا... إلخ"، ثم تسارع إلى مصلى هناك لتخرّ ساجدًا تئنُّ وتتأوَّه، فإن ضاقت عليك الدنيا من هذا الحزن الذي أحاط بقلبك، لم يبقَ بينك وبين التوبة الحقيقية إلا ذِراع. أجل، التوبة في الأصل ندم وحسرة وحرقة في القلب.

والمهم هو أن تستشعر أن العيش في الذنوب كالعيش مع العقارب والثعابين، وتلك هي نظرة المؤمن للذنوب، وهكذا فلتكن، وإلّا فهو شكٌّ بعاقبة الذنوب وعقوبتها.

إن من الأهمية بمكان إظهارَ الندم على فعل الذنب بتسارعِ دقات القلب وسرعةِ تدفق الدم في الأوردة وتغير دورته.

٢- أَجَلُ الذنبِ لا بد أن يكون قصيرًا

إذا ما زلّ أحدكم في موضعٍ ما، وارتكب ذنبًا وانزلقت قدمه في مستنقع الذنوب، فلينهض من فوره، دون انتظار، وليتطهّر بالتوبة والاستغفار، ليتطهّر ولا يؤجِّل ألبتة؛ فمن ذا الذي يملِكُ سندًا أو وثيقةً تؤكِّدُ أنَّه لن ينتقل إلى ربِّه بعد ساعةٍ وهو يحمل وِزرًا على ظهره أثقل من جبل قَافْ؛ إنَّ الأرواحَ الطاهرةَ تجافيها الراحةُ، ولا تَغمض لها عين مالم تتطهر مما ارتكبته من الذنوب.

إنَّ إطالةَ عمر الذنب ولو ثانيةً يضرُّ صاحبَه ولا ينفعه، والأنكى أنَّه توقيرٌ لسوءِ الأدب الذي ارتكبه المذنب في حق الله تعالى، فلا حقَّ لأيِّ ذنبٍ أنْ يعيشَ ولو ثانيةً؛ إذ إنَّه سيغدو ثعبانًا سامًّا يقرِضُ القلب ما لم يُمْحَ بالتوبة فورًا، وإذا ما تكدَّرَ القلبُ مرَّةً تهيَّأ لأكدارٍ

أخرى، وهكذا يتردَّى الإنسان في دائرةٍ فاسدةٍ، ويولّد كلُّ ذنب ذنبًا آخر إلى أنْ يتجلَّى سرُّ الآية الكريمة: ﴿**كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ (سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ: ١٤/٨٣).

ولذلك فمِنَ الأهميّةِ القصوى جذبُ مشاعر الناس وأفكارهم إلى هذه الساحة دائمًا، وتوضيح تلك الحقائق لهم، وتحذيرهم من الذنوب ليكونوا يقظين فطنين لها؛ بل إننا حتى لو تمتّعنا بقوّة الولاية لكان علينا أن نُظهِر لهم الوجه القبيحَ للذنوب ما أمكن وأن نصرِفَهُمْ عنها.

أجل، ها هم أولاء ذوو القلوبِ الفطنة اليقظة والأرواح الحساسة كأني بهم يشتمّون رائحةً كريهةً يجلبها الذنبُ.

٣- بُغْض الذنب

إنّ بُغضَ الذنب من أهمِّ عوامل التوبة عن الذنب، وعدم بغضه يثبّط العزم عن الفرار منه فرار الناسِ من الثعبان والعقرب، فإن عجز الإنسانُ عن الفرار والتقوى استحالت توبته وعزمه وتصميمه على عدم ارتكاب ذلك الذنب مرةً أخرى، وكما يُوَلْوِلُ وينوحُ مَن انكسرت له زهريّة كريستال نادرة جدًّا فكذلك الأمر هنا أيضًا، والمقصود أن مصباح الحياة الذي بأيدينا يتّسخ وينكسر مع كلّ ذنبٍ نرتكبه؛ وفي هذه الحالة ينبغي على الأقل أن نشعر بالحزن والأسى على ما نرتكب من الذنوب بقدر الحزن والأسى الذي نشعر به عند انكسار زهريّة الكريستال، وإلا عُدَّ ذلك استخفافًا بالذنب وإهمالًا.

٤- التوازن بين الذنب والتوبة

لا بُدَّ لكلِّ ذنبٍ من توبةٍ بقدر عمقه وقبحه ووقاحته؛ لأنَّ الوقوع في الذنبِ كالتردِّي في بئر مليءٍ بالزِّفت، فالسقوط في بئرٍ كهذا يسير، أمَّا الخروج منه فعسيرٌ جدُّ عسير.

٥- الاعتراف بحقيقة الذنب

إنَّ كلَّ خاطرةٍ تعترضُ بها قلوبُنا على حكم الذنب أقلُّ ما يُقال فيها إنّها ذنب يعدل ارتكاب ذلك الذنب، فلو حدَّثَ زانٍ نفسَهُ من حينٍ إلى آخر قائلًا: "لماذا حرَّمَ الله الزِّنا؟"؛ ولو أنّ امرءًا لا يُفرِّق بين الحلال والحرامِ قال في نفسه: "ليته لم يُشرَعْ شيءٌ اسمُهُ حرام، كم سيكون الأمرُ ممتعًا حينئذ!"؛ فهذه ذنوبٌ أعظمُ من ارتكاب الذنوبِ نفسِها.

إذًا لا بُدَّ أن نتصدَّى للذنوبِ وأن نصمُدَ أمام أنفسنا قائلين: "أيها الذنب سعيك هباء، فالأبواب موصدة أمامك والدخول مستحيل!".

ولبديع الزمان في هذا الموضوع تشبيهٌ ذو مغزًى عميق؛ يقول: "اجتنبوا -يا إخوتي- الأسباب التي تقدح بالإخلاص وتَثْلِمه كما تجتنبون العقارب والحيات"(٦١)؛ وعدوله عن لفظ الأسد أو النمر هنا إلى لفظ العقرب والثعبان لافتٌ للنظر جدًّا؛ لأن الأسد والنمر يهجمان ببسالة وإقدام، فنشعر بهما قبل أن يهجما فنحتاط؛ والعقرب

(٦١) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **اللمعات**، اللمعة الحادية والعشرون، ص ٢٢١.

والثعبان والحيّة على خلاف ذلك؛ إذ لا يُعرف من أين ومتى تَدْهَمُنا؟ وهكذا الذنب، فهو غدّار مثل العقرب والثعبان.

والحاصل أنَّه لا بُدَّ أن تكون اليقظةُ الدائمةُ إزاءَ الذنوبِ شعارَ المؤمن، وليُعلَمْ أن هذا من الوفاءِ بعهدِ الله تعالى.

يمكن أن ننظر إلى هذه المسألة في ضوء الحديث الشريف: **"أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: اللهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبارَكَ وَتعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبارَكَ وَتعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبارَكَ وَتعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ"**(٦٢).

معلومٌ أنّ كلمتي "ذَنْب" و"ذَنَب" من جَذْرٍ واحد، والذنبُ الإثمُ، والذَنَبُ الذيلُ، وعلى هذا فالعبد الذي يقول "رباه أذنبتُ" كأنه يقول: "اللهم إني ثعلب بذَنَب، أو عقرب يلدغ، ها أنا ذا قد ترديتُ إلى هذا الدَّرْك"، أي كأن العبد باعترافه بذنبه يُقرّ أنه بوقوعه في الذنب قد حقّر وأسفَّ بالمستوى الإنساني والمقامات الإنسانية الموهوبة له، واعترف بأنه أعرض عنها وتبنَّى البهيمية بإرادته، فتردى إلى هذه الدَّرَكَة.

---

(٦٢) **صحيح البخاري**، التوحيد، ٣٥؛ **صحيح مسلم**، التوبة، ٢٩. (واللفظ لمسلم)

وأمـا مـن ارتكب ذنبًا ولم يشـعر به، فالحقيقة أنـه مُنِيَ بالصفعة الـواردة فـي قوله تعالى: ﴿أُولَئِـكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُـمْ أَضَلُّ﴾ (سُـورَةُ الأَعْرَافِ: ١٧٩/٧)، وصـار أدنى من الحيوان رتبةً؛ ولهذا الحكم مثال بديـع دلت عليه نتائج اسـتطلاع رأي الشـباب في أوروبا في السنوات الماضية، فلقد أظهر الاستطلاع أن سمات الشباب الأوروبي هي سمات كلب ضـال في الشـوراع؛ ولا غروَ فـكلُّ طريقٍ غير طريـق الحقيقة يؤدي إلى نتائج مجافية للحقيقة جِذْرِيًّا.

رسولنا والوفود الزائرة

سؤال: كان رسولنا ﷺ يُعنَى أيّما عناية باستقبال وفود بلاد وقبائل الجِوَار لا سيما بعد فتح مكة، وكان يرغِّبُ في أن يُقتدَى بسُنَّتِه هذه، وأن يُواظب عليها مَن بعدَه، وأكّد دعوته في وصاياه في آخر حياته؛ فما الحكمة؟ وما العبر والدروسُ المستفادة إذا ما أسقطنا هذا الأمر على واقعِنا اليوم؟

الجواب: إن عنايةَ رسولِنا ﷺ هذه سلوكٌ جليل، وعلينا أنْ نُعنَى بهذا الأمر أكثر فأكثر؛ لذا ينبغي الوقوفُ عنده حتمًا.

لقد استمرَّ اهتمامه وحفاوتُه تلك ﷺ على أعلى مستوى، لا بالوفود القادمة إليه شخصيًّا فحسب، بل بالأفراد القادمين لاعتناق الإسلام أيضًا؛ فمثلًا حظيت النخبة من أهل مكة مثل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة رضي الله عنهم باهتمام رسول الله إبّان وصولها إلى المدينة، حتى إن أبا بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما لم يحظيا بمثل ذلك يومئذٍ.

إذ قـال رسـولنا ﷺ لخالـد ﵁: "**الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي هَـدَاكَ، قَدْ كُنْتُ أَرَى لَـكَ عَقْـلًا رَجَـوْتُ أَلَّا يُسْـلِمَكَ إِلَّا إِلَـى خَيْـرٍ**"(٦٣)؛ وسـرعان ما مدحه فلقَّبَه: "**سيف الله**"(٦٤)...

وكم نال عمرو بن العاص ﵁ من المسلمين، حتى إنه لطالما كادَ الإسلامَ بدهائه، ولما اعتنق الإسلام، ووصل المدينة استقبله رسولنا ﷺ بحفاوة، ولم يذكِّره حتى بأصغر أمر من سوابقه، ولما قال عمرو: "يَـا رَسُـولَ اللهِ، إِنِّـي أُبَايِعُكَ عَلَى أَنْ تَغْفِرَ لِي مَا تَقَـدَّمَ مِنْ ذَنْبِي" قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**يَا عَمْرُو، بَايِعْ، فَإِنَّ الْإِسْلَامَ يَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهُ**"(٦٥).

وهذا جرير بن عبد الله البجلي: "دَخَلَ عَلَى رَسُـولِ اللهِ ﷺ وَعِنْدَهُ أَصْحَابُـهُ، فَنَظَـرَ النَّبِـيُّ ﷺ يَمِينًا وَشِـمَالًا، فَلَمْ يَرَ مَوْضِعًـا، وَضَنَّ كُلُّ رَجُـلٍ بِمَجْلِسِـهِ، فَأَخَذَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ إِلَيْـهِ، فَتَلَقَّاهُ بِنَحْرِهِ وَوَجْهِـهِ، فَقَبَّلَـهُ وَوَضَعَهُ عَلَى عَيْنَيْهِ، وَقَـالَ: أَكْرَمَكَ اللهُ كَمَا أَكْرَمْتَنِي، ثُمَّ وَضَعَهُ عَلَى ظَهْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَإِذَا أَتَاهُ كَرِيمُ قَوْمٍ فَلْيُكْرِمْهُ**"(٦٦).

أمـا اسـتقباله عكرمة بـن أبي جهل ﵁ بكلمـات مِلؤُها الحفاوة، فهي لوحةٌ ذات عبرةٍ متميزة جدًّا في هذا الموضوع.

(٦٣) الواقدي: **المغازي**، ٧٤٩/٢؛ البيهقي: **دلائل النبوة**، ٣٤٩/٤.

(٦٤) **صحيح البخاري**، فضائل الصحابة، ٢٥؛ **مسند الإمام أحمد**، ٢٤٦/٣٧، ٢٥٨.

(٦٥) **مسند الإمام أحمد**، ٣١٥/٢٩.

(٦٦) الحاكم: **المستدرك على الصحيحين**، ٣٢٤/٤؛ أبو نعيم: **حلية الأولياء**، ٢٠٥/٦.

أجـل، إن هـذه السُّـنَن من المبـادئ الثابتة عند رسـولنا ﷺ، وفي ضوئهـا كان يعامل الوفود والأفـراد القادمين دون فرق؛ وهي زاخرة بغايات كثيرة ملأى بالحكم:

أولًا: هـؤلاء القادمـون حديثًـا، ولـم تطمئن نفوسـهم للإسـلام تمامًا، كان يسـاورهم القلق والخوف من تغيير الدين، ولو لم يعثروا علـى منـاخ دافئ آمـنٍ يخلّص أنفسـهم من المخـاوف لربما اتجهوا وِجهة أخرى، وهي خسارة كبيرة لهم أنفسهم، إذًا إنّ عنايته وحفاوته العظيمة ﷺ بمن وفدوا يتنسمون عبير نسمة من الإيمان كانت حِصنًا لهـم من قـرارٍ خاطئ كـذاك، وهذا من الأمـور التي ينبغـي الوقوف عندها والعناية بها أيَّما عناية اليوم وغدًا.

ثانيًـا: كان فـي الوفـود القادمـة أنـاسٌ يحظـون عـادةً بالاحترام والتبجيـل فـي أقوامهم وقبائلهـم، إنهم أناس اعتـادوا على مثل هذا الاهتمـام وتلك العناية في مجتمعاتهم؛ فوجب أن يحظوا بمثل ذلك التقدير والعناية حتى لا يستوحشوا من المجتمـع الجديد الذي وفدوا إليه، أي من شـأن هـذه الحفاوة والعناية أن تشـعرهم بالألفة وترفـع عنهم كُرْبة الغربة.

ثالثًـا: كان معظـم تلك الوفود رسـميًّا، ولما صار الإسـلام دولةً كانـت القبائل والدول المجاورة ترسـل وفودها إلـى المدينة لتبحثَ الأمر بحسـب رؤيتها هي، ولم تكن تلك الوفود من عامّة النّاس؛ إذ كان لغالبِهم فلسفة حياةٍ وتقديرات خاصّة للأمور، ومن المسلَّم به أن

يرجعوا إلى قومهم بانطباعات خاصّة عن زيارتهم تلك، وكان لآرائهم الجديدة تأثيرٌ بيّن على بلادهم وقبائلهم؛ لذا كان من الضروريّ أن يتزوَّد هؤلاء برؤية إيجابية، وهي تأثُّرهم عن قربٍ بالاستقبال الحارّ والحفاوة بهم.

رابعًا: كان أهل الكتاب يعرفون أخلاق رسولنا ﷺ وشمائله؛ لأنها مذكورة في كتبهم، ومن الوفود مَن يأتي ليتقصّى حقيقة هذا الأمر، أمَّا رسولنا ﷺ فكان واثقًا من نفسه؛ فهو الرسول الذي بشَّرت به التوراة والإنجيل، ومن وسائل ترغيب المخاطب برسالته تقريبُه منه كي يشهد الأمرَ عن قرب.

أجل، كان رسول الله يُدنيهم منه، وكأنه يقرِّبهم من رؤيةِ علامات النبوة وأماراتها، فكانت حاله وأطواره المباركة سدًّا تتحطّم وتتفتّت عنده الشكوكُ والظنونُ التي من شأنها أن تمزّقَ كل شيء، وإذا بأكثرية الوافدين يغيّرون أحكامهم المسبقة، ويستعدون للقيام بتبليغ الإسلام إذا ما عادوا إلى بلادهم.

ربط المسألة بواقع عصرنا:

علينا أن نقرّ أنه لا أحد ألبتة يستطيع أن يقوم بسلوك رسول الله ﷺ نفسه؛ فلا طاقة ولا قوة لأيِّ شخصٍ على فعل هذا، تدبّروا الأمر! لقد حمل رسالةَ القرآن الكريم، وهي كما جاء في القرآن حِمْل عظيم ثقيل تتصدع منه الجبال، لقد صمد صمودَ الرواسي،

فلـم تهـزّه أية حادثة ألبتة، ولم يُثْنِه أيّ تصرّفٍ يخالف مبادئه، إننا قد نمـلّ ونضجر، أمَّا هو ﷺ فيسـتحيل أن ترِدَ عليـه الخواطر في أنماطٍ من الضعف كهذه.

وعلـى هـذا فمن الصعب أن نطبّق ونتمثّل تمـام التطبيق والتمثل مودَّتَه وحفاوتَه ﷺ في استقباله الوفود، أو في تقبّله بعض الأشخاص، وتناسـيه عيوبهم السـابقة كلها تمامًا، ولكـن لا مناص من فعل ذلك بقـدر طاقتنـا، فالتقاعس عنه فيه حطٌّ من قدر هـذه الخدمة العالمية، وخيانة لهذه الغاية السامية.

وقـد عُنِـيَ الرسـول ﷺ في آخـر وصايـاه بنمط اسـتقبال الوفود والحفـاوةِ الواجبـة في هذا الأمر، وأشـار إلى تفاصيل هذه المسـألة وأبعادها المستقبلية، وهو أمر مهمّ جدًّا للمستقبل القريب والبعيد.

وهذا لأنَّ الرسالةَ لم تنتشر بعدُ خارج جزيرة العرب، وما رسائل بعـض الملـوك وهداياهـم إلا مودة وحفاوة شـخصية؛ وسـيأتي يوم تضيِّـف "الدولة الإسـلامية" مئات بـل آلاف الوفـود لترامي أطرافها المنتشرة في أنحاء العالم كافّةً، وعليها أن تكرم وفادتهم، ورسول الله ﷺ هو مَنْ سنَّ الأصول والأساليب اللازمة للقيام بهذا الأمر الخاص بالمراسـم، والحقيقـة أنه ما من معضلة وقعت فـي عقدين ونيّف إلّا كان لها عنده حلّ، ومنها استقبال الوفود.

مسألة المساواة بين الرجل والمرأة

سؤال: كثرت الأقاويل في السنوات الأخيرة عن مسألة المساواة بين الرجل والمرأة، فماذا عنها في الإسلام ؟

الجواب: لنحدِّدْ أولًا معنى "المساواة" قبل بحث المسألة:

إذا أُطلقت كلمة المساواة فإنها تعني الوحدة في الطبيعة والصفة والقيمة والأبعاد، وعدمَ الاختلافِ في كل منها، وعدمَ التفريق في الحقوق مطلقًا.

تُرى ما هي مكانة المرأة للرجل في ضوء هذا التعريف؟

أ- اختلاف الفطرة:

من كلِّ شيء في الكون خلق الله زوجين، ولا يمكن الادعاء بأنَّ كلًّا منهما مساوٍ للآخر في كلّ شيء، ﴿**وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ (سُورَةُ الذَّارِيَاتِ: ٥١/٤٩).

إنَّ كلَّ شيء من الذرات إلى النباتات، ومنها إلى الذكورة والأنوثة في الحيوانات والبشر أزواجٌ بعضُها يحتاجُ إلى بعض، فالموجب محتاج للسالب والإلكترون للبُروتون، والليل للنهار، والصيف للشتاء، والأرض للسماء، والرجل للمرأة، والمرأة للرجل؛

وثمّةَ كثير كثير من أزواج لا قِبَلَ لنا بمعرفتها الآن، وقد نعرف بعضها بتقدّم العلم والتقنية إن يسّر الله لنا.

وهكـذا خَلْقُ المـرأة، خلقها الله كما خلـق البروتون للإلكترون، والسـالب للموجب، والبذرة الأنثـى للبذرة الذكر، فتكوّنت من تلك الأزواج وحـدة واحـدة؛ وكمـا أن الإلكتـرون لا يسـاوي البروتون، والسـالب لا يسـاوي الموجـب؛ فالمـرأة أيضا لا يمكن أن تسـاوي الرجـل، وهـذا مـن قوانين الفطـرة التي لا تتغير؛ هذا وكل ما سـوى الله الأحـد قائـم بغيره، والقائمُ بغيرِهِ لا يسـتغني عـن الغيرِ في بقائه، فالرجل والمرأة ناقصان يجتمعان معًا؛ فيكملان بعضهما، ويشـكلان وحدة واحدة، وهذا هو الأصل في كل مخلوق.

فالرجلُ والمرأة ليسـا متساويين، بل هما متكاملان، وهي حقيقة عبَّر عنها رسول الله ﷺ بقوله: "**إِنَّمَا النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَال**"(٦٧).

وكلمة "شقائق" لغةً: جزء الكلِّ المقسوم نصفَيْن تمامًا، أي إنَّ كلَّ جـزءٍ من الجزأين اللذين يمثِّلان الكل الواحد "شـقيقٌ" للآخر، وبناءً على هذا فإنَّ الرجل والمرأةَ نصفان متساويان من حيثُ الإنسانية، غير أنَّـه لا أحدَ فيهما عينُ الآخر ألبتة؛ أي إنّ فطرتيهما وبنيتهما الروحية والنفسـية متباينـة كلَّ التبايـن، ويسـتحيلُ أن تسـاويَ المـرأةُ الرجلَ أو الرجلُ المرأةَ نفسيًّا وجسديًّا؛ أمَّا بيولوجيًّا فالرجل ليس أكثر تطورًا مـن المرأة شـكلًا، والعكـس بالعكس، فعلـى كلِّ إنسـانٍ مؤمنًا كان

(٦٧) سنن الترمذي، الطهارة، ٨٢؛ سنن أبي داود، الطهارة، ٩٥؛ سنن ابن ماجه، المقدمة، ١١.

أم غير مؤمن أن يدعَ أوهامَ المساواة، ويرضى بواقع الرجل والمرأة كما هما، لأنه لا يدَ لأحدٍ من البشر في اختلاف النوع.

ناهيك أنَّه يمتنع القول بوجود مساواة كاملة، ليس بين الأجناس المختلفة فحسب، بل بين الأجناس المتشابهة أيضًا؛ والسعي لتحقيق أُمنيةٍ كهذه سعيٌ لتغيير قوانين الفطرة، وهذا النوعُ من الجهودِ هباء وعبثٌ محضٌ، وليس في اختلاف خِلْقةِ النِّساء هذه ما يقتضي استحقارهنَّ وازدراءهنَّ، بل العكس هو الصحيحُ، فالحقُّ تعالى يقول: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ (سُورَةُ الأَعْلَى: ٣/٨٧)، وهو مَنْ خلق الرجل والمرأة "في أحسن تقويم"، وأرشدهما إلى سبل الرِّفعة والوصول إليه، وهو من جعل كلًّا منهما مكمِّلًا وحصنًا ولباسًا للآخَر.

ب- اختلاف الوظيفة:

بينّا أنّه لا يمكن أن تساوي المرأة الرجل في الفطرة وكذلك في الوظيفة؛ فتكليف المرأة بوظائف الرجل ظلم بيّنٌ لها؛ لأنه اتضح وضوحًا لا سبيل لإنكاره أنّ المرأة جسديًّا وبيولوجيًّا ونفسيًّا تختلفُ كثيرًا جدًّا عن الرجل.

والاختلافُ في بعض الحقوق والواجبات الناجمة عن اختلافِ الفطرة أمرٌ مسلَّمٌ به، فالرجل مثلًا أقوى من المرأة وأقدر، وما أصعبَ أن تقومَ المرأة بما يمكن أن يقوم به الرجل في هذا! وهذا ليس نقصًا في المرأة ألبتة، والمرأة أكثر شفقةً ورحمةً وظرَفًا وعاطفةً، ولا يمكن للرجل أن يباريها في هذا، لقد زُوِّد كلٌّ منهما بِطاقات تقتضيها

وظائفـه، وتلك هي العدالة والنَّصَفة حقًّا حقًّا؛ فالصوابُ دراسـةُ كلٍّ مـن الرجل والمـرأة على حدة في ضوء فطرتهما، وتقييم أمرهما بناءً على ذلك، لا على أساس المساواة بينهما.

أجل، إنَّ للمرأةِ حقوقًا ووظائفَ معيّنةً تناسب خلقتها وقدراتها، وإذا عملـتْ فيما خُلقت له فالحصـول على نتائج أفضل وأجود أمر ممكن.

إن المـرأة هـي التي تلد الأجيـال وتربيها، وتقدِّم للبشـرية أفرادًا أخيارًا بيدها المباركة الفيّاضة، لا سـيما أنَّ الله زادَها إحسانًا، فمتَّعَها بالشـفقة لتربيـةِ الأجيال؛ فهـي بهذا صرحٌ جديـر بالتقدير والاحترام بيـن كل أفـراد العائلـة، فهي فـي بيتها المربِّيـة المعلمـة القيّمة منبع الطمأنينـة، يطمئن الرجل عندها، وينشـأ الطفل على صدرها الحاني وينمـو ويترعـرع حسَّاسًـا عاطفيًّا شـفيقًا سـليم الفكر، وإذا عاشـت عفيفةً تحصَّنَ الطفلُ في كنفِها بعيدًا عن التفسخ والانحلال، وعُصِمَ المجتمعُ من التآكُل والاضمحلال.

أجـل، إن كلَّ الألطـاف التـي منحها بعـضُ الخلقِ للمرأة باسـم المسـاواة ليظلُّ شـاحبًا أمام الألطاف الإلهية التي وهبها الحق تعالى إياهـا، بـل كلُّ مـا سـتُمنحه مـن حقوقٍ وإحسـان بدعوى المسـاواة ستكون مضحكة تافهة كمن يعلِّق ميدالية نحاسية على عنق من تَزَيَّن بميداليات ذهبية من رأسه إلى أخمص قدميه.

أجـل، إنَّ الله ﷻ كَسَـا المـرأةَ ملابـسَ زينـة كتلـك، وكلُّ لباسٍ ستلبَسُه من بعد ما هو إلا كسَرْجٍ أو ثياب خيش.

لقـد أعطـى الله ﷻ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، وبهـذا صانَهُ عن أن يكون طاغيًا أو هُزْأَةً، وكلُّ حقٍّ يُمْنَحه بعد هذا ظلمٌ وإجحافٌ.

وإذا كانـت المـرأة سـتضطلع بعمـل، فلا بُـدَّ أن يكـون ملائمًا لبنيتهـا الجسـديَّة والنفسـيَّة والرُّوحية، أمَّـا تكليفُها بمـا لا تطيق من أعمال وتوظيفُها في أعمالٍ تُخرِجها عن فطرتها فهو أمرٌ لا علاقة له بالمساواة ولا بالمنطق الإنساني، بل العكسُ هو الصحيح؛ إن عدوانًا كهذا فيه سلبٌ لكثيرٍ من حقوق المرأة.

وما أبدعَ تعبيرَ الحديثِ النبويِّ عن هذا الأمر وأعظمَ وَقْعَهُ:

"**بَيْنَمَا رَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَى بَقَرَةٍ التَفَتَتْ إِلَيْهِ، فَقَالَتْ: لَمْ أُخْلَقْ لِهَذَا، خُلِقْتُ لِلْحِرَاثَةِ**"(٦٨).

والخلاصة أن لكلِّ شيء غايةً في الخلق، ولا بد من تكليف كلِّ مخلوقٍ فيما خُلِقَ وتأهَّل له، حتى تسودَ العدالة الحقيقية.

---

(٦٨) **صحيح البخاري**، الحرث، ٤؛ **صحيح مسلم**، فضائل الصحابة، ١٣؛ **سنن الترمذي**، المناقب، ١٦.

مصعب بن عمير رضي الله عنه

سؤال: ما خصائصُ شخصيَّةِ مصعبِ بن عمير رضي الله عنه؟

الجواب: لم يكن مصعب بن عمير رضي الله عنه أجلَّ الصحابة الكرام، ولا شك أنه أدى في حياته السَّنيّة رسالةً تَعدِلُ أعظم الصحابة، وفي هذا عبرة لنا لنتذكَّرَ أنَّ الله تعالى منَّ على الإسلام في فترات معيّنة بأناس كهؤلاء، أغلبُهم لا نظيرَ ولا نِدّ له، ولو عاشوا في عصرِنا أو في أيّ عصرٍ آخر لما استطاعوا أن يؤدُّوا بتلك الطمأنينة ما أدَّوه من رسالات يومئذٍ، لقد كان مصعب بن عمير صحابيًّا عظيمًا جدًّا لا يقلُّ عمَّن حملوا رسالات تاريخية أمثال حمزة وعبد الله ابن جحش رضي الله عنهم.

أجل، لقد كان سيدنا مصعب بن عمير وحمزة وعبد الله ابن جحش رضي الله عنهم مثالَ البطولة والخلود في الصحابة الفضلاء؛ وهل كان هؤلاء فحسب؟ كلا ألبتة.

كان من البواسل الذين أرسَوا أسسًا يبني عليها مَنْ بعدَهم مِنَ الدّعاة إلى يوم القيامة، وبهذا كُتب له الخلود في صدورنا ومشاعرنا وفكرنا، فما ينبغي ونحن نبحث في حياة أمثال هؤلاء أنْ ننسى رسالاتهم التاريخية ألبتة.

هذا ولم تجد سهام الحرام إلى عينَي مصعبٍ سبيلًا، ولا عرف زيغ الجاهلية، أي إنه يوم أن تفشى الحرام في مكة حتى داخل البيت كان منجذبًا لمفخرة الإنسانية وجاذبيته القدسية، ويطوف حول نوره طواف الفراش حول النار، وما أَلَمَّ بحرامٍ قطُّ، ليس هذا فحسب بل كم من مشاقّ وأزماتٍ وهمومٍ ومعاناةٍ كانت له رَصَدًا.

أجل، كان يمرّ بأكثر فترات مكة معاناةً ومحنةً وما كان يُعير سمعَه لتهديدات أمه ألبتة، ويسعى دَأَبًا ليحافِظَ على قربه من سيدنا محمد ﷺ، فسما به هذا القربُ إلى درجة التخلق بـ"الأخلاق العالية"، بل بلغ به قمة الإنسانية؛ فرسول الله ﷺ لما أُتِيَ به إليه كان لا يزال طينةً يسهل تشكيلها، فوضعه في قالب خاصّ، وشكّله كما أراد.

مصعب بن عمير رضي الله عنه هذا هو الرجل الكُفْءُ لمهمّةِ شرحِ المنهج القرآني الماسي على ضوء قاعدة "الظهور على المدنيين المثقفين إنما هو بالإقناع لا بالإجبار..."[٦٩]. أجل، إنه عندما انعدمت الحكمة واختل توازن القوى وسادت القوة الغاشمة وغابت حرية التعبير استطاع أن يتصرف بحِنكة وحِرفية أدّى بها مهمة التبليغ والإرشاد على أكمل وجه، وكأنه -إن جاز التعبير- قد بُرمج على هذا الأمر، لم يكن نموذج مصعب بالغَضوب الذي يرتفع ضغطه فجأةً وينهزم أمام مشاعره ليُطلق صرخات وصيحات، ويفرّ من الميدان إذا أعضلَ الأمر، بل العكس هو الواقع: إنَّه قوي الإرادة، يعرف كيف يُسَكِّنُ

(٦٩) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **سيرة ذاتية**، الحياة الأولى، ص ١١٦.

الغضـوب دون أن يغير نهجه وسـلوكه وإن بُصق فـي وجهه، أي إنه كان إنسانًا كاملًا في التوازن والفكر والإرادة.

تـركَ كل شـيء في مكـة فجأةً، وكان بوسـعه أن يعيش في رغد، فهو وحيد أبويه، ثم اختار بمحض إرادته سـبيلَ سـيد الأنبياء الشاقَّ، فـدلّ هـذا أنّ إرادتَـه هـذه هي أهمُّ خصائصـه، ما قـارَبَ خمرًا، ولا قارف امرأةً قطُّ، وكان يعرف كيف يساير أمه ويعاملها دون أن يكسر خاطرها أو يؤذيها رغم كلِّ ما كان منها، وكان يحرص على أن تكون صلته برسول الله ﷺ قويَّةً عميقةً حيويّةً دائمًا.

وهذه السلوكيّات كلّها تقتضي إرادةً كما تبيَّن، وقد نجح فيها رضي الله عنه، كان فخـر الكائنـات ﷺ خبيرًا باختيار وتقييم من يـكل إليهم المهامّ، وهـذه خصِّيصـة لا نلبث إلا أن نشـهد بين يديها أنّ "محمدًا رسـول الله"، وقد اختار رسول الله ﷺ مصعبًا لمهمة التبليـغ والإرشاد فأرسله إلـى المدينـة، اختيرَ مصعب وفـي القوم أبو بكر وعمـر وعليٌّ رضي الله عنهم، فاسـتنبتَ رضي الله عنه الطمأنينة في القلوب بأسـلوبه الجادّ، ولم يسـاورْه أيُّ نوعٍ من الهلعِ والذُّعْرِ في المدينة، وهكذا شـرُفَت بالإسـلام قاماتٌ سامقة مثل أسيد بن خضير وسعد بن معاذ وسعد بن عبادة رضي الله عنهم.

أجل، كان رضي الله عنه داعيةً حقًّا، اطلع على ما وراء الأشـياء، مسـتعدًّا للقاء الموت مستبشرًا به؛ وقد قضى حياته وختمها على هذا المنهج، ولما استشهد يوم أحد لم يجدوا ما يكفنونه به ويغطِّي جسده. أجل، لـم يجـدوا، فكُفِّنَ نصفه بمئزرٍ كان عليه، وسـائرُهُ بنبات الإذخر، ثم دُفِن.

مصعب بن عمير ﷺ صاحبُ هذه الحالة الرُّوحية لما قطعت يده اليمنى -وهو يقاتل عن رسول الله ﷺ- أخذ اللواء باليسرى، فقُطعت، فحنا عليه بعضديه، ومضى يقارع سيوفًا أشهرت حقدها وبغضها في وجه رسولنا حتى سقط شهيدًا(٧٠)، وواضحٌ من هذا أن حياته تدور في فلك الإرادة دائمًا، وتذعن للمشيئة الإلهيّة، إنها حياة اكتنفها الشعور القائل: "أنعم الله عليّ بهذه الإرادة، فلا بد أن أناضل من أجلها في حياتي كلِّها".

وحمادى القول أنَّ مصعبًا -الذي من معاني اسمه الصعوبة والمشقّة والعقبة المنيعة- قد استطاع بفضل الله تعالى أن يجتاز كلَّ عقبة وعائق عرَضَ له، وانتقل إلى رحمة الرحمن الرحيم، وتوّجَ نضاله برتبة الشهادة التي لطالما حَلَمَ بها كثيرون يومئذٍ.

---

(٧٠) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، ١٢١/٣؛ ابن عساكر: **تاريخ دمشق**، ٣٤٧/٦٠.

نبذة عن الشيطان

سؤال: هلّا تبصروننا بماهية الشيطان، وعمله، وطرق إغوائه، وسبل الوقاية منها، والحكمة من خلقه؟

الجواب :

١- اشتقاق كلمة شيطان:

الشيطان مخلوق مطرودٌ من رحمة الله، واشتقاقها من جذرين الأول "شَطَنَ": بعُدَ عن الله وعن رحمته، والثاني "شَاطَ-يَشِيطُ": احترق وهلك، وأشاطه: أذهبه، وكلاهما صحيح في الشيطان، لأنه مخلوق طُرِدَ من رحمة الله؛ فاستحقَّ الحرقَ والإبعادَ.

٢- هل يمكن إطلاق كلمة "شيطان" على غيره؟

يمكن شرعًا إطلاق كلمة "شيطان" بمعناها المذكور على كل طاغٍ باغٍ، وقد سمَّى الله جَلَّ جَلَالُهُ من يُغوي الناس من الجنِّ والإنسِ بزخرف القول شيطانًا: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ**﴾ (سُورَةُ الأَنْعَامِ: ٦/١١٢).

وقد أطلق سيدُنا حمزةﷺ لفظَ شيطان على حصان جامح أُركِبه، فقال: "أركبتموني على شـيطان"، وسـمى رسـولنا ﷺ الكلب الأسود شيطانًا(٧١)، والبعير النادّ شيطانًا(٧٢).

يُستنبط من هذا أن كلَّ متمرِّد جامحٍ إنسًـا كان أم جنًّا أم حيوانًا يمكن أن يطلق عليه -بمعنى ما- لفظ "شيطان"، أمَّا الشيطان موضوع السـؤال فهو إبليس الذي ابتُلِيَ به البشـر، وأبى أن يسجد لسيدنا آدم عليه السلام، وكفر بتمرّده على الله تعالى، وصار عدوًّا أبديًّا لكل البشر.

٣- لماذا طُرد الشيطان من رحمة الله تعالى؟

إنما طُرِد الشـيطان من رحمة الله لإساءته توجيهَ قدراته ومشاعره الجِبلّيّة.

لقد خلق الله الإنسـانَ مظهرًا "لأحسـن تقويم" بما أُودِعَ فيه ماديًّا ومعنويًّـا، وبيَّنَ سـبحانه هـذه الحقيقة بقولـه: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَـانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾ (سُورَةُ التِّينِ: ٤/٩٥)، وماهية الإنسان حقًّا كالتقويم، تجتمع فيها الحقائق الخاصة بجميع المخلوقات، وتحتوي على جوهر كلِّ شـيء؛ فالإنسانُ تقويمٌ يدلّ على الكون كلِّه، وهو في روعة فهرست فيـه كلُّ مـا كان خلال سـنين وقـرون، زِدْ على ذلـك أن ماهيته غنيّة بمشـاعر متنوعة مثل السـرّ والخفـي والأخفى والقلـب، وهو كمال الباطن ومرآةُ الظاهر.

(٧١) سنن أبي داود، الصلاة، ١٠٩؛ سنن ابن ماجه، إقامة الصلوات، ٣٨؛ مسند الإمام أحمد، ٢٥٠/٣٥.

(٧٢) سنن أبي داود، الصلاة، ٢٥؛ سنن ابن ماجه، المساجد، ١٢؛ مسند الإمام أحمد، ٢٧/٢٢.

هكذا خلق الله البشر جميعًا غير أن منهم من ترقَّتْ لطائفُهُ كسيدنا رسول الله ﷺ ففاقَ جبريل، ومنهم من وجَّهَ ملكاته توجيهًا سلبيًّا مثل أبي جهل؛ فتردَّى في دَرْكة تُخزي الشيطان نفسَه.

وهكذا طُرِدَ الشيطان وأُبعد عن رحمة الله عندما أساء استخدام طاقاته، تأملوا هذا المعنى؛ فهو لم يخلق بعيدًا عن رحمة الله، وإنما أُبعد عنها بعد ذلك عندما أساء استخدام طاقاته.

٤- من أي المعابِر يتسلل الشيطان إلى الإنسان؟

نستهلّ حديثنا عن سبب عداوة الشيطان للإنسان، ثم نستنتج مما جاء في الآية الكريمة على لسان الشيطان نفسِه أضرُبَ حِيَلِه لإغواء الإنسان.

وصارت للشيطان جِبِلَّة أخرى بسخطه على الله وحقده وغيظه وكرهه لبني البشر بعد أن نال هذه الصفعة: ﴿**قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ**﴾ (سُورَةُ الْحِجْرِ: ١٥/٣٤). أجل، إنَّه طُرِدَ من الرحمة الإلهية لأنّه أبى أن يسجد لآدم عليه السلام، ولما طردَه الله أظهر عداوته له سبحانه.

أجل، إنّ امتحانَه بآدم عليه السلام ورسوبه فيه أثَّر فيه كثيرًا، فأقسم قائلًا: ﴿**قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾ (سُورَةُ الْحِجْرِ: ١٥/٣٩-٤٠)، أي بسبب تلك الأحداث طفح قلبه حقدًا على بني آدم جميعًا في شخص آدم عليه السلام، وأي قلبٍ يطفح حقدًا لن يكون فيه شيء من التوازن قطعًا، وهكذا الشيطان كان، لقد

عبَّـر عن غيظه وحقده كما جاء في القـرآن الكريم: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ١٦/٧-١٧).

أي لآتينَّهم من أَمامِهم بأن أرسمَ لهم مستقبلًا كلُّه جحودٌ وظلام حتى يقولوا: "لا بعث بعد الموت، ولا جنّة ولا نار..."، وأحطّم آمالهم حتى يقولوا دائمًا: "اليوم أسوأ من الأمس"، وأوسوس لهم بأنه كُتب عليهم أنهم أسرى للكفار إلى يوم القيامة، ولا أزال أُشيع الظلمات أمامهم.

ولآتينهم من خلفهم بأن أحول بينهم وبين تراثهم المقدّس الذي به يثقون، وأصوره لهم أنه مَزَارٌ موهوم، لأحطِّم آمالهم كلها وأهيّج مشاعر اليأس والقنوط لديهم.

ولآتينَّهم عن أيمانهم قائلًا: "أنتم أهل الحق والحقيقة، فلم تَدَعُوْنَ الآخرين يخدُمون الدين؟ هلا تقومون أنتم بها؟"؛ فأُشعِل الحسد فيهم، وأَعُوقُ خدماتهم، وسأحملهم على الحديث عما فعلوه، وأغرقهم في الرياء وإن أدّوا عباداتهم ظاهرًا.

ولآتينهم عن شمالهم بأن ألطِّخ أذهانهم بفلسفات مضطربة منحرفة، وأفكار يسارية، وأنفث في أرواحهم أمورًا خاطئةً دائمًا؛ فإذا أكثرهم جاحدون ولك لا يشكرون.

أجل، كم وكم ذكَّر القرآن الكريم بعجرفة الشيطان هذه بحقد وبغضٍ بين يدي الحقِّ تعالى.

٥- لماذا لا يهتدي الشيطان؟

وإليكم مثالًا أو مثالين لنتبيّن لِمَ لا يهتدِي الشيطان: هبْ أنّ امرءًا أسلَمَ قلبه للحقد والكره لأسباب شتَّى، وفي حالةٍ ولحظةٍ كهذه تراه يعتدي على ما تحت يده، ويطوِّحُ بكل ما تصل إليه، ولا يتورّع عن فعل ما بوسعه حتى يتغلب على الآخرين؛ لأنه لا اتزان عنده، ولا محاسبةَ للنفس، ولا تفكيرَ سليمًا، أي إن اختلال التوازن هو مِقود ساعات هذا الإنسان ودقائقه ولحظاته وثوانيه، بل إنه أحاط بروحه، حتى غدت له جِبلّةً أخرى، فراح يفعل ما تقتضيه، وهذا الضرب من التصرفات ضرورة تفرضها جِبلّته عندئذ.

مثال آخر: لو أنَّ امرءًا غشيت قلبَه وكل مشاعره ظلماتُ الكفر، فلا ريب أن الشبهات والشكوك القسريّة ستهزه هزَّ الرياح النَّافِجة، فالشبهات الشيطانيّة في الله ﷻ أو رسوله ﷺ تغزو عالمه الفكري، وتزجُّ به في أودية الشكّ والشبهات.

فإن فرَّ إلى الله عندئذٍ، وسلك طريقًا يباعد بينه وبين تلك الشبهات، برِئ منها بعناية الله، أمَّا إن استمر ذلك الحال فقد يهمّ بالانتحار وتغلبه الهموم، وتلك هي حال الكافرين في الواقع، أي إن هذا الضرب من الأزمات والهموم لا يدعه ولو ساعة بل يطارده دائمًا؛ ذلك أنَّ الكفر لا يبرحه.

وبهذين المثالين يتبين لنا لِمَ عصى الشيطان: فمثل الشيطان في الأول مثل من أجهزَ طوعًا على كل مَلَكةٍ في جوهره المهيّإِ للخير

والجمال، وأظهر كل ملكاته الشريرة، حتى طفَحَ صدره بالكفر وما بقي للإيمان مكانٌ؛ فقد أحاط الشر بحياته كلها ثوانيها وهنيهاتها إحاطةَ السوار بالمعصم، فمثله مثل ذلك الغضوب الذي يمتلئ حقدًا وكرهًا في كل آنٍ من حياته.

ذلكم هو الشيطان، لقد صار الجحود جبلَّة وركنًا في سجيته؛ فالأملُ في هدايته وبذل الجهد لإقناعه بما يُبيَّنُ له إن هو إلا كالرّقْم على الماء، لا سيما أنّه يعادي كلّ من آمن بالله حقدًا وبغضًا...

ولو أنه سلك طريق الرجل الثاني بأن فرّ إلى الله تعالى، واجتهد في الخروج من المأزق الذي زلَّ فيه، لنجا منه بعناية الله واهتدى.

٦- ما حكمة خلق الشيطان؟

كُتبت في هذا كتب منها رسالة الإمام بديع الزمان، فهي جديرة بالقراءة(٧٣)، فحسبنا الإشارة إلى هذا بكلمات:

إن الله ﷻ منزَّهٌ مبرّأ عن العبث في أفعالِه، فهو حكيم له ألفُ حكمةٍ وحكمةٌ في الخلق، ومن الجهل به وعدم المعرفة تخيلُ العبث منه، فهذا تخيلٌ ممتنع ولو لم ندرك تلك الحِكم.

بعد ذكر هذه القاعدة التي هي أصلٌ راسخ في عقيدتنا نقول: إنَّ خلق الشيطان وتسليطه على الناس يحملهم على الحذَر، وقد حملهم؛ ولهذا سوف يفعّل الإنسانُ آلية اتقائه الشيطان والوقاية

(٧٣) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **اللمعات**، اللمعة الثالثة عشرة، ص ٩٨-١٢٣؛ **المكتوبات**، المكتوب الثاني عشر، السؤال الثاني ص ٥٣.

منه، فصار تسـلط الشـيطان محرِّكًا لعملِ آليّـة الوقاية هذه على نحو أفضل، فالعقارب والثعابين السـامة في الحقول تحمل العاملين فيها على اليقظة والحذَر، وتكشـف قدراتهم في التنبه، والصقر لما سُـلِّط على العصفور نمت مهارات العصفور؛ وهكذا تسـلط الشيطان على الإنسـان؛ لقد نمت بهذا مهارات الإنسـان وقدراتـه على الهرب من الشـيطان والتخلـص منـه ونقضِ حيلـه كلّها، بل غدا وسـيلةً للجوء الناس إلى الله، وإلى قلعة السنة السنية، وأشار القرآن الكريم إلى هذا مـرارًا، مـن ذلك قوله: ﴿**وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّـيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْـتَعِذْ بِاللّٰهِ إِنَّهُ سَـمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ٧/٢٠٠) وفي الأمر بالاستعاذة بالله تعالى منه قال: ﴿**وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّـيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ**﴾ (سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ: ٢٣/٩٧-٩٨).

٧- كيف نتقي تسلط الشيطان علينا؟

أ. الاعتصام بالله

إن الاعتصـام بـالله، والاسـتعاذة به هـي -كما قدّمنا فـي الآيات الكريمـة- أعظـم حصنٍ وآليـة للوقاية من إغواء الشـيطان وتهييجه، وهذه الآلية شـرط في كل الأحوال، وفي الحديث الشـريف: "**أَقْرَبُ مَـا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَـاجِدٌ**"(٧٤)، فنسـأله سـبحانه أن يوفقنا للتحقـق بسـر هذا الحديث لنسـجد له داعين: "اللهـم إني أعوذ بك منـك، أعوذ برحمتك ومرحمتك من جبروتك وجلالك، وأعوذ بك من الشيطان".

(٧٤) انظر: صحيح مسلم، الصلاة، ٢١٥؛ سنن أبي داود، الصلاة، ١٤٨؛ سنن النسائي، التطبيق، ٧٨.

ب. ترك التكاسل

يَهْجُمُ الشيطان غالبًا على الكسالى الخاملين، ويراود العاطلين القابعين كالمساكين خاصةً من لا يقدِّمون لدينهم أيَّ شيءٍ إيجابيّ، لذا لزِم بحث الخمول أو السلبية في مسألة التحصُّن من الشيطان، أي ما دام الشيطانُ يستثمر خمولنا غالبًا فلا ريب أنه يتحيّن فُرَصَ فراغنا، فيُلقي فينا خيالاتٍ وأوهامًا غريبة عنّا، لنفكِّر في الخبائث ونقرأ عنها، لذا يجب علينا أن نملأَ بالفكر والعمل كلَّ فراغ يلج منه ويعبث فيه، ولنملأ شعورنا وأفكارنا بالله تعالى، بل ينبغي أن نطالع الآيات الكونية دائمًا، ونُشغَل برابطة الموت لنمتلئ خوفًا وخشية، وبتبليغِ دين ربّنا لمن حولنا؛ لئلا ينفذ الشيطان إلى قلوبنا فيوسوس لنا ويزعزع إيماننا.

هذا مع المداومة على الأذكار والأوراد، ولو أنَّا جعلنا حياتنا زاخرة بخدمة دينه تعالى، لما تركَنا ربُّنا للشياطين ببركة ما سنفعله، ولَبلغ بنا برّ الأمان في ظل هذه الأعمال المباركة.

ج. الوفاء بالعهد

إن الوفاء بالعهد لا يقلّ أهمية عما ذكرنا من أمورٍ نتقي بها إغواء الشيطان. أجل، فمن وفَّى بعهده، ونصر دين الله فلن يسلمه سبحانه للشياطين والضلال، ألم يقل الله تعالى: ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ (سُورَةُ البَقَرَةِ: ٢/٤٠)؟

أجـل، طالما استمســك العبد بهذه الرؤية وهـذا الاعتقاد، وطبَّقَه فعلًا، فسـيكفيه الله بلا ريب تسـلّط الشـيطان بأن يذكّـره بآية أو يريه برهانًـا، ويرفـع الغشـاوة عن بصـره، ويحفظه حقًّا، ومـا أكثر الأمثلة علـى هذا في حياة الصحابة والأصفياء والأولياء، وكلّها تكشـف أن برهانَ الله قد تجلَّى لهم حينما تاهت عقولهم وغُشِي على أبصارهم، فهداهم سـبحانه فورًا إلى الاسـتقامة، ومن يدري كم وكم أنقذَنا من التردي والتعثّر عدمُ إصرارنا على اسـتخدامنا إرادتنا استخدامًا سيئًا، وحظينا بنعم ربنا تلك.

إن من وفَّى وأخلص له تعالى يحظى بوفائه وعنايته بمقتضى الآية الكريمة: ﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللّٰهَ يَنْصُرْكُـمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (سُورَةُ مُحَمَّدٍ: ٤٧/٧)، بل منْ قصدوه بإرادتهم المحدودة حظوا بنعمه التي لا تُحَـدّ، وهنا ينبغـي علينا -نحن رجال الدعوة المباركة- أن نمضي في هذا السبيل الذي ينتهي بنا إلى جمال الله وجنته، وألَّا نتخلى ولو هنيهة عن الوفاء بالعهد، وألا ننسى ولو لحظةً أننا تحت مراقبة ذلك الرقيب المهيمن، إيمانًا منَّا بأنه سبحانه معنا مطلـع علينا أنى وحيثما كنّا، فلنراقب أنفسنا هكذا، ولنسيطر على جوانيتنا دائمًا.

د. تجنب الوحدة

تجنّـبُ الوحـدة أمضـى سـلاحٍ للتحصُّن مـن إضلال الشـيطان وإغوائـه، ولا بُدَّ من إشـهاره دائمًا على أيَّة حـال، وأقلّ ما يتحقق به ثلاثـة أصدقـاء فأكثر كما جـاء عن رسـول الله ﷺ(٧٥)؛ أي إننا بصحبةِ

(٧٥) سنن الترمذي، الجهاد، ٤؛ سنن أبي داود، الجهاد، ٨٦.

أهل سوقِنا وبيتنا وحياتنا كلِّها ممن يشعر ويحس مثلنا ويؤمن مثلنا لَنَتعالى عن أن نكون لعبةً بيدِ الشَّيطانِ.

أجل، إنَّ الخواطر السَّيئة كالبذرة المدفونة فينا، تنمو يومًا إثر يومٍ، وتتكشف برعمًا، فما أجمل أن تُقطع هذه الخاطرة السيئة وهي برعم وتُلقى بعيدًا! وإلا نمت وكبِرت وتفاقمت، فهدمت بنيانها الذي سمقت فيه، فلنستأصل منذ البداية صغار البذور التي نثرها الشيطان في أرواحنا، وإلا فربما يطول الزمن، فتغدو أمرًا يستحيل التغلب عليه، فتخلّ بتوازننا ومنطقنا بل بمخيّلتنا، وتكاد تتعذّر النجاة عندئذ.

لذا ينبغي تجنبُ الوحدة فعلًا حقًّا لئلا تتجذر مثل تلك الخواطر الخبيثة في بنيتنا، ثم تتغوَّل فتأسرنا. أجل، إنَّ عزيمتنا ورُقيَّنا الروحيّ وحياتنا القلبية ربما لا تكفي لتحصيننا؛ إذ إن صلتنا بالله ليست كما ينبغي، وكذا اختلال صلتنا بالآخرة نتيجةَ الفوضى الاجتماعية القائمة.

نعم، لنا أصدقاء تنطق وجوههم بالحقيقة، وتتجلى إرادة الله في إرادتهم، إنْ نأتهم ونشاركهم المناخ والبيئة نفسها فقد نكتسب منهم قوةً من يجالس وليًّا؛ فكلماتهم وأحاديثهم تبدو نارًا تُذيب صَلْدَ المشاعر والخواطر الخبيثة فينا، وأحيانًا ما نكون نحن أيضًا هكذا، فيأتوننا، فيستفيدون هم منا.

أجل، إنّ الله ﷻ خلق الإنسان اجتماعيًّا بفطرته، وهو ذو حاجات مادية ومعنوية تقتضي أن يعيش في مجتمع على هذه الشاكلة، فعلينا

ألا نفـارق جماعـة على هذا النحـو، وألا نعتزل الأصدقـاء الخيرين الطيبين الأبرار.

هـ. استماع الوعظ والنصائح

الإنسـان كائـن يحتـاج إلى أن يخفق قلبـه يوميًّا، وتدمـع عيناه، ويجـدِّد جوّانيتـه بضـع مرات، وقد عظَّم القرآن شـأن مـن يتصلون بربهم، ويخرون للأذقان سـجّدًا من شـدة خشيتهم إياه، وقد تبلـغ بنا المواعظ والنصائح أحيانًا هذا الأفق، ومن المؤسـف أننا عامةً جيل منكوب محروم من الاستماع إلى هذه النوع من الوعاظ والمرشدين الدالين على الخير، ليت لدينا مئات وآلافًا من الوعاظ الذين يَحْدُون قلوبنا، فيبلغون بنا حالة العشق والشوق.

أجل، ليت عندنا آلافًا من الوعاظ الذين تغصّ حناجرهم بكلماتهم من البكاء، فلا يُفهم ما يقولون على المنابر كما كان حال فخر الدين الرازي! ليت هذا يحدث، وإن لم نفهم شـيئًا على الإطلاق، فحسـبنا الاتعـاظ بحالهـم، ليت عندنا مئات وآلافًا من المرشـدين يروون لنا حياة الصحابة والتابعين وتابعيهم ويُضفون عليها روحًا من روحهم، فنسـتمع إليهـم، ونُغضـي حيـاءً مـن إنسـانيتنا، ليتنا نشـعر بالحاجة إلى التفتيش في حياتنا ونمطِها، وننظم أنفسنا.

وعندئذ قد ترقُّ قلوبنا، وتزول الأصداء التي تشوّشـها، وتحيطنا التجليات الإلهية التي تنعكس على أرواحنا؛ فنبعد بهذا عن الوساوس والدسائس الشيطانية كافَّةً.

وأعيذك أن تقول: "أعلم هذا فلن أقرأه مرةً أخرى، لقد سمعت هذا من قبل، ولا حاجة لأن أسمعه مرة أخرى!"، إن لحياتنا المعنوية وقلبنا وروحنا وضميرنا ومشاعرِنا كلِّها حاجاتها كما نحتاج إلى الطعام والشراب، وهي حاجات متكررة، فوجب أن نقف بباب مرشد ونلوذ به، ونلج مناخ ولي الله هذا الذي يذيب كل شرٍّ، ويحول دون نفوذ الشيطان إلى نفوسنا، فلنجدّد أنفسنا دائمًا.

٨- ما الأدعية الواقية من شر الشيطان؟

لو أننا أطلقنا على الأمور التي تحدثنا عنها "أدعية فعلية" في هذا الشأن، فثمّة أدعية قولية تردفها، وكلاهما كالوجهين لشيءٍ واحد، إذ إن فعل أحدهما وإهمال الآخر أو تركه ربما يمنع تحقّق النتيجة المستهدفة.

إذًا ينبغي أن نحافظ على الأدعية القولية حيثما وأينما كنّا، ولا نهملها.

وإذا ذكر الدعاء القولي فمن البدهي أن تتبادر إلى الذهن أدعية رسول الله ﷺ، فكم من مناسبةٍ لا تُحصى في مقالة سردًا وشرحًا قد استعاذ فيها سيدنا رسول الله ﷺ من الشيطان: عند الطعام ودخول الخلاء والجماع... إلخ، وعليكَ بكتبٍ ومجلاتٍ جمعت أدعية في هذا الموضوع وغيره، وإليك نموذجًا من دعاء علّمَناه رسول الله ﷺ عند الخوف من الشيطان.

علمنـا رسـول الله ﷺ هذا الدعـاء للتحصن من الشـيطان: "**أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ مِنْ شَـرِّ مَا خَلَقَ وَبَرَأَ وَذَرَأَ، وَمِنْ شَـرِّ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّـمَاءِ وَمِنْ شَرِّ مَا يَعْرُجُ فِيهَا، وَمِنْ شَـرِّ مَا ذَرَأَ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمِنْ شَـرِّ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ طَارِقٍ إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَا رَحْمَنُ**"(٧٦).

اللهـم تـولَّ أجيـال القـرن العشـرين التَّعِسَـة البائسـة، الشـاردة عـن طريـق مسـجدها ومنبرها ومحرابهـا، التي تتيه فـي أودية الكفر والضـلال، وكلّما تاهت غرقت، والتي تحتاج إلى الهداية والإرشـاد بقـدر تيهها وغرقها، اللهمّ فاحفظها من شـرّ شـياطين الإنس والجنّ وأعوانهم، اللهمّ آمين...

---

(٧٦) **مسند الإمام أحمد**، ٢٠٢/٢٤؛ ابن أبي شيبة: **المصنف**، ٨٠/٦.

تغييرُ المنكر

سؤال: كيف نفهم الحديثَ الشريف: "مَنْ رَأَى مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ"؟[٧٧].

الجواب: هذا الحديث أخرجه مسلم وأصحاب السنن، ومعناه أن على من رأى أمرًا ينكره الدين أن يغيّره بيده؛ فإن لم يستطع تغييره بيده، بأن لم يكن قادرًا على الدخول في الأمر فعلًا، فليغيِّرْه بلسانه أي بالقول اللين والنقاش الحسن والمجادلة الحسنة والوعظ والنصيحة، فإن لم تُتح له الإمكانيات والمناخ لتغييره بلسانه أيضًا، فعليه أن يبغضه بقلبه، وهذا أضعف مراتب الإيمان.

إننا مُنينا بجرثومة تقرض حياتنا الاجتماعية، جرثومةٍ تقوّض بنيان المجتمع رويدًا رويدًا كالزنا والمخدرات والربا والاحتكار، وإنّ أعداءَ الأمَّة وحبائلَ الشرِّ لَتُعْنَى بإحياء هذه الأمراض، وتعلمون وتشهدون يقينًا كيف تُزلزل هذه العللُ المجتمعَ وتقصمُ ظهرَه، ومن المستحيل تغيير هذا بيد الفرد، فتعيّن على أصحاب المسؤوليات أن يغيّروه باللسان، أي بالموعظة الحسنة، وذلك بأن يبيّنوا أنَّ الربا

(٧٧) صحيح مسلم، الإيمان، ٧٨؛ سنن الترمذي، الفتن، ١١؛ سنن أبي داود، الصلاة، ٢٣٩.

جرثومةٌ تقرض الحياة الاجتماعية، وأن الزنا سرطان وغرغرينا، فيثير اشمئزاز الناس منه ويبغضهم فيه ويخوّفَهم منه ويصرفهم عنه، وذلك بالكلمة الطيبة والقول اللين ومنهجِ التبليغ المستفاد من مقاصد القرآن الكريم.

أجل، كانت للحكام كلمتهم في هذه الأمور يوم ساد الإسلام، وقام الجيش وقوات الأمن بمهمتهم أيضًا، وحالوا دون انتشار ذلك المنكر في حياتنا الاجتماعية، وهذا من ضروب التغيير باليد، وهذا الضرب من التدخل لتغيير المنكرات لا نراه في يومنا هذا، كما لا يُرَغَّب في الأمور الحسنة والفضائل كما ينبغي، ولو أنك اليوم منعت شارب الخمر في السوق لوجدته يلطمك، فتغيير المنكر باليد له زمانه ومكانه.

أما تغييره باللسان؛ فإذا كانت الدولة لا تقوم بمسؤوليتها ووظيفتها هذه، أي لا تقوم بمهمة "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" فلا تأمر بما أمر الله، ولا تحظر ما حرم الله، بل تفتح أبوابها لجميع الأمراض التي تنقرضُ بها الحياة الاجتماعية، فمثلًا يُرتكب الزنا تحت قانون ونظام معين، وكذا الخمر والربا... تُرتكب هذه الموبقات ولا تستطيعُ تغييرها بيدك، فواجبك أن تغيّرها بلسانك.

والحمد لله كثيرًا أن لنا اليوم أن نتحدث ونبيّنَ هذه الأمور، بينما هناك فترات وبلاد يتعذر الحديث فيها عن هذا في العالم الإسلامي وخارجه أيضًا؛ ففي هذه الحالة يجب علينا قطع صلتنا بمن يرتكبون تلك الموبقات إلا للإرشاد والتبليغ، والشعورُ بلوعة الأسى عليهم

لِزامًا، وهذا أقل الواجب، أمَّا مجالسة مرتكب المنكرات واستحسان سيئاته -عافانا الله- فهو انحطاطٌ وسقوط، ومثلُهُ استحسانُ مَنْ يرتكب موبقة الزنا ويضعف أمام شهوته؛ وبهذا قد يعُمّ العذاب الإلهي الخلقَ عامَّةً.

وهنا أستميحكم عذرًا في أمر آخر: قد يرتكب مجتمعٌ مفاسد شتى؛ ولو أنّ فيه وعيًا جماعيًّا فعّالًا مرِنًا سريع الحركة يدفع تلك المفاسد ويقضي عليها لارتدَّت تلك المصائبُ بهذا الفكر وهذه الحركية اللذَين هما بمثابة مانعِ الصواعق فينجو المجتمع، هذا وقد تحلّ بنا المصائب والبلايا ولا تردُّها الموانع إن لم يكن ثمة وعيٌ جماعيٌّ نشِطٌ على ذاك النحو يقاومُ مساوئَ المجتمع، أو مرشدون مناضلون يتصدّون لهذه المفاسد كأنَّهم رجال إطفاءٍ يكافحون الحرائق.

لذا يتعذَّر على المؤمن أن يُجالس مرتكبي المنكرات جهرًا، أو يتواصلَ ويلتقي معهم من أجل علاقاتٍ شخصيّة، والواقع أن المؤمن يمكنه أن يتواصل مع الجميع بدرجةٍ ما، بل مع مرتكب الموبقات أيضًا بنيّة تعريفه بمحاسن الإسلام، وإنقاذه من السَّفه المنغمس فيه، على أن يكون هذا كله لوجه الله ليس إلّا، وبهذه النية يغدو تواصُلنا مع هذا المسيء عبادةً.

نعم، إنَّ بغضَ القلب لمرتكبي المعاصي هو أضعف الإيمان. أجل، سنبغض من لا يحبون الله ويحقرون نظام الكون الإلهي، ولهذا البغض شرط: أن يدفع صاحبه إلى إزالة تلك المساوئ

عن أصحابها؛ يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "**إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي بِمُدَارَاةِ النَّاسِ كَمَا أَمَرَنِي بِأَدَاءِ الْفَرَائِضِ**"(٧٨)، أي كما أمرني الله تعالى بالفرائض أمرني بإدارة البشر بحكمةٍ وإحكام.

أجل، يجب أن نحدِّثَ ذلك الإنسان بالكلمة الطيبة لا بغلظةٍ وفظاظةٍ، لا بدَّ أن نُدني منه حقنةً مليئة بالنور بلطفٍ وإحسان حتى يمكن علاجه بها، وكي لا تُقابل مقترحاتنا وأفكارنا بردّ فعلٍ عكسيّ؛ من أجل ذلك أمر الحقُّ تعالى سيدَنا موسى وهارون عليهما السلام بقوله: ﴿**فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**﴾ (سُورَةُ طَهَ: ٤٤/٢٠)، أي حاوِرا فرعون، وحدِّثاه عن الحق والحقيقة دون أن تُقَطّبا وجهكما... حدِّثاه حتى يكون للتبليغ معنًى، وكي لا تذهب الجهودُ المبذولة في هذا السبيل سدًى...

مجمل القول: تحدثْ وقابلْ مَن تحدثه وتلتقي به من أجل الله فحسب؛ وتحمّل كل شيء في سبيل الدلالة على الله وتبليغ أوامره، وواجِه كلَّ شيء، وأَبْغِضْ من تبغضُه من أجله تعالى فحسب.

(٧٨) البيهقي: **شعب الإيمان**، ٢٢/١١؛ الديلمي: **مسند الفردوس**، ١٧٦/١ (واللفظ للديلمي).

الإرادة والامتحان

سؤال: كيف ينبغي أن نفهم مسألة "الامتحان بالإرادة"؟

الجواب: إنَّ عالم الخلق هو ميدان البحث في مسائل كيان الإنسان الماديّ والجسماني مثل ملامح الوجه والتركيب البنيوي والأحياء، وعالم الأمر هو ميدان البحث في الأمور الروحية والمعنوية مثل الأصول الأربعة: الإرادة واللطيفة الربانية والوعي والشعور، وكذا السرّ والخفيّ والأخفى، فكلٌّ منها بعدٌ مهمّ من أبعاد اللطيفة الربانية.

مَعالِمُ عالم الأمرِ هذه لها صلة مباشرة بالروح؛ وبشائر دنيوية وأخرويّة لأرباب "السير والسلوك"، وطبعيٌّ أن تكون لمن يُكرَم بأمورٍ كهذه غايةٌ خالدة مُستهدفة، يكِدُّ في حياته كلِّها ليبلغَها.

وينبغي ألا يُنسى أبدًا أنَّ قدرةَ الإنسان على بلوغ هذه الغاية رهنٌ بكونه "إنسانًا كاملًا"، وأيًّا كانت هذه الغاية، أهي إشباع الشهوات الجسدية، أم التنعم بالجنة، أم رؤية جمال الله تعالى، لَن يتحقّق منها شيء إلا بتفعيل المشاعر والاستعدادات والطاقات الموهوبة له، ويشترطُ لتحقق هذا كثرة العمل والتدريبات؛ وبذلك يمكن أن يشعر الإنسان ويتمتع ويتلقى الواردات أي أن يكون "الإنسان الكامل" الذي تحدَّثَ عنه "عبدُ الكريم الجيلي" في كتابه المسمَّى بهذا الاسم.

أجـل، إن الإيمـان بـالله هـو أسـمى غايـةٍ للخلـق وأعظـمُ ثمار الفطرة الإنسـانية، وتنبـع عنه معرفةُ الله ثم محبتُه جل شـأنه، فالذوقُ الروحاني، ثم ذروةُ هذا الذوق الروحاني وهو العشقُ، وأثره في روح العبد "الشوقُ" و"الوجدُ" وهو: الغياب عن شهود الذات، و"التواجدُ" أحيانًا لبلوغ الوجد، و"المواجدُ" وهي: أضعاف الوجد، و"الجذبُ": ولـه طريـق ومدخل آخر مغايـر لهذه الأحـوال، و"الانجذابُ" حيث لا تبقى إرادة، وآخِر الانجذاب ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (سُورَةُ الْحِجْرِ: ١٥/٩٩)... أجل، قد يصل الإنسان بهذه الأمور كلها إلى مستوى الإنسان الكامل غايةِ الخلق وثمرةِ الفطرة.

أمـا الإرادة فهي كمـا بيّنا من الأصول الأربعـة للضمير في عالم الأمر، فهي كما عبّر عنها الإمام بديع الزمان بأسلوبه الأنفسِ السهل الممتنع: "الميلان أو التصرف في الميلان"[٧٩]. أجل، إن هذه الحقيقة التـي عبر عنها الأسـتاذ النورسـي تعبيرًا وجيزًا جدًّا أفـرد أعلامُ أئمة علـم الكلام أمثال السـيد الشـريف الجرجانـي والتفتازاني صفحاتٍ لبيانها وشرحها.

أجل، إنَّ الإرادة ميلانٌ محض أو تصرفٌ في الميلان، أي هي بذلُ الإنسان المخيّر بين شيئين جهدًا وسعيًا لاختيار أحدهما، وهي شرط عـادي فقـط، ولا تُلتمـس أيّة علاقة بينه وبين النتيجـة في إطار قانون السـبب والنتيجة، وهذا كالعلاقة بين الإنارة والضغط على زر شـبكة كهربائية تنير الدنيا، وكانهيار الأنظمة العملاقة أو قيامِها بنفخةٍ منكم.

(٧٩) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **الكلمات**، الكلمة السادسة والعشرون، المبحث الثاني، ص ٥٣٥.

وتبيَّـن مـن الأمثلـة أنَّـه لا علاقة بين السـبب والنتيجـة قطعًا؛ إذ يسـتحيل أن يؤدي ذلك السبب إلى هذه النتيجة في الواقـع وفي ظل الظروف الطبيعية، وتسمى هذه الإرادة "إرادةً نسبيَّةً اعتباريّة".

وبعد هذا التمهيد الوجيز إليك مسألة الامتحان بالإرادة:

١- إننـا نُمتحَن بإرادتنا، فكيف لأمرٍ صغيرٍ "الميلان أو التصرف في الميلان" أنْ يأتي بنتائج عظيمة كهذه؟ لا تناسب معقولًا ومنطقيًّا بين السـبب والمسبَّب، وهذا يُظهر لنا عظمة الله المطلقة، ويبين بعدًا مهمًّا جدًّا من أبعاد هذه العظمة، وربما أخطأتُ بإسـناد لفظ "البُعد" إلى الله تعالى، لأنه لفظٌ يعبرُ عن الكمّ والكيفية، غفرانك اللهم وعفوك إن أخطأت... أجل، فكما ذكر الإمام بديعُ الزمان: إنّ خروج شجرة صنوبـر عظيمة من بـذرة صغيرة جدًّا، وخروج الفرخ من البيضة -أو بعبـارة أدقّ "مـن عقـدة حياتية صغيرة جدًّا داخـل البيضة"- كلُّ هذه تجلياتُ قدرةِ الله تعالى وقوته[٨٠].

وما إرادتنا إلا شـيءٌ كهـذا، أي إنَّ دورَ البذرة أو العقدة الحياتية في الشجرةِ والفرخِ أيًّا كان هو أيضًا دور إرادتنا في الأمورِ التي نقوم بها وفي نتائجِها مهما كانت عظيمة، والحقيقة إن كلًّا منها يدل على حقيقـة "الله أكبـر"، لذا نـردّدُ "الله أكبر" أو نسـمعها ثلاثيـن مرةً على المـآذن خمس مرات في اليوم، بل إن المؤمنين الذين يرقَون في أفق "هل من مزيد؟" لا يكتفون بهذا؛ فيكبِّرون في أعقاب كل صلاة ثلاثًا وثلاثين مرة قائلين "الله أكبر"، ليعلنوا هذه الحقيقة مرّةً أخرى.

(٨٠) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **الكلمات**، الكلمة الثالثة والعشرون، المبحث الثاني، ص ٣٥٩.

٢- أيًّا كانت ماهية الإرادة، فلا بدّ من اعتبارها والاعتداد بها طالما علّقَ الله تعالى بعض الأشياء عليها؛ لأنّه تعالى قدَّر مستقبلنا وفقًا لإرادتنا، أي كأن الإرادة خطة ومشروع بالنسبة لمستقبلنا؛ ولما قدَرْنا نحن أهلَ السنة الإرادةَ حقَّ قدرها حققنا التوازن وتجنبنا إفراط المعتزلة وتفريط الجبرية. أجل، إن بعضهم يزعمُ أنه لا قيمة للإرادة مطلقًا، ومنهم من يرى أن الإرادة هي كلُّ شيء، حتى إن بعضهم يزعم أن لها وجودًا خارجيًّا"، أما أهل السنة فإنهم يقولون: الإرادة أمر اعتباري، وما دام الله ﷻ علَّقَ أشياء كثيرة على الإرادة، فلا نلتفت ولا ننخدع بصغر الإرادة ولا بعظم الخلق والمخلوق، وبهذه الرؤية ننجح في الامتحان ونبلغ درجة الاستقامة في الفكر.

إننا أهل السنة بهذا نقدُر الإرادة قدرها وننظر إلى المستقبل والذنوب من وجهة النظر هذه.

٣- استخدام الإرادة في الوجهة التي شرعها الله أمرٌ مهم جدًّا؛ فإن كنتم تسعون باستماتة في سبيل الدعوة التي تدافعون عنها لكنكم تبخسون إرادتكم حقَّها، ولم تستخدموها بتوازن ولم تغذّوها بعناصر تقوِّيها، فمن الممكن أن تقعوا في أخطاء لا عاصم منها؛ أي ستخفقون في امتحان الإرادة إن اجتهدتم دون أن تعتمدوا طرز عصر السعادة وتُراعوا الظروفَ الجارية وعنصرَ الإنسان وإرادته، وقلتم: "سنتظاهر من أجل خدمة الدين، ونناضل بالسلاح، ونجرب الطرق السياسية، ونقاوم العالم بقوَّةٍ وقسوةٍ، ونمضي نحو الهدف من هذا الطريق"؛ إنه ما ينبغي أن تصطدم الإرادة بالفراغات المنطقية

والحسية، بل ينبغي أن تُمَدَّ دائمًا بعناصر داعمة متنوعة، وأن تتآزرَ الإرادةُ والشعور مطلقًا في هذا الاتجاه، لتصل إلى عمق أبلغ، وهنا قد تُعزَّر الإرادة بِحِرَاكٍ فاعلٍ من لدن اللطيفة الربانية التي هي مهبط الوحي والإلهام.

عندئذ ستصل الإرادة تحت سُرُج الوحي أو الإلهام النيِّرة إلى أبعاد متنوعة، سواء في مجال الخدمة أو العبودية، فيضاعف الله أجر العبادة والخدمة الواحدة منها آلافًا، ويتحقق النجاح في الامتحان بخدمات إرادية من هذا القبيل، أعني تلك التي تتم دون تردٍّ في الفراغات المنطقية والحسية.

٤- ومن أبعاد المسألة من حيث العلاقة بين الإرادة والامتحان: أنْ نقومَ بما علينا، ونكفّ قطعًا عما هو من شأن الربوبية. أجل، فهذه أيضًا مسألة إرادة؛ لأنّ طلبَنا لأمورٍ لا يقوم بها إلا الله أمرٌ يفوق إرادتنا، ويفضي إلى التردي في اليأس ونخفق في الامتحان؛ ولينظرْ إلى هذا الأمر أيضًا في ضوء ما ذكر الإمام بديع الزمان أن "جلال الدين خوارزم شاه" كان في طريقه إلى الحرب فقال له الوزراء: "ليُظْهِرنَّك الله على عدوك، ولينصرنك عليهم"، فأجابهم: "عليَّ أنْ أجاهد في سبيل الله طاعةً لأمره سبحانه، ولا حقَّ لي فيما هو من شؤونه ولم أُكلّف به؛ فالنصر والهزيمة بتقديره سبحانه"[٨١].

أجل، لطالما حملت ظروفُ الماضي القريب في هذا البلد أمثالَ محمد عاكف وسليمان نظيف على ضروبٍ من اليأس؛ ولعلّ عدم

(٨١) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **اللمعات**، اللمعة السابعة عشرة، المذكرة الثالثة عشرة، ص ١٧٩-١٨٠.

استيعاب مسألتنا هذه من وجوهها كلّها أودى بقامات سامقة في اليأس يومئذ، "يوم أن كثرت هزائم أمتنا" كما قال نجيب فاضل.

إذًا علينا القيام بمهمة العبودية؛ فتصرُّفٌ يتضمن المساومة في معاملتنا مع الله مثل: "هل تفعل لي كذا إن فعلتُ كذا" إسفافٌ، لا يمكن تصوره في باب العبودية أبدًا، فلنقم بواجباتنا لعلنا نفوز في امتحان الإرادة ما لم نقحم أنفسنا في شأن الربوبية.

وقد يرد سؤال: "أليست الإرادة ذاتها طريقًا للنجاح في امتحان الإرادة؟" أجل، يكون النجاح في امتحان الإرادة بالإرادة أيضًا؛ فوجب شحذ الإرادة دائمًا، والدعاء والاستغفار عنصران مهمان جدًّا، يقول الأستاذ النورسي: "إن الدعاء والتوكل يمدان ميلان الخير بقوة عظيمة، كما أن الاستغفار والتوبة يكسران ميلان الشر، ويحدان من تجاوزه"(٨٢).

إن الإنسان أحيط وطُوّق تطويقًا بالشهوات التي حُفَّت بها جهنّم -كما جاء عن الصادق المصدوق ﷺ- أي بشهوة الطعام والشراب والنوم والدعة والخواطر والمشاعر المثيرة لرغباته الجسمية، حتى إنّ أيَّ خطوة في هذا الاتجاه ربما تكون هي نفسها ضياعًا وانغماسًا في خضمّ الشهوات، فمن علِقَ بأي منها وقع فريسةً لنفسه الأمارة وهلك، وسيأتيه يوم يكون فيه ضعيفًا أسيرًا لها كليّةً، والاستغفار كتعويذة تجتَثّ جذور كل أنواع الشر وكل ميلانٍ إليه.

(٨٢) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **الكلمات**، الكلمة السادسة والعشرون، المبحث الثاني، ص ٥٣٦.

نعـم، إنَّ الاسـتغفارَ الذي يجتـثُّ جذورَ الميلان إلى الشـرِّ هو: الندمُ على الذنوب السـابقة، والثبات على الاسـتقامة الراهنة، والعزم علـى عـدم العودة إلى الذنوب في المسـتقبل، والإصـرارُ على هذا، والأهمُّ هو تعزيزُ هذا، أي شعور الوجدان التامُّ بالتوجُّه إلى الله تعالى.

أمـا تعزيز الميل إلـى الخير بالدعاء، فالقـرآن الكريم يحثّنا عليه في مواضـع عدَّة، منها: قوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (سُورَةُ غَافِرٍ: ٤٠/٦٠)، وقولـه : ﴿وَإِذَا سَـأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيـبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (سُورَةُ البَقَرَةِ: ٢/١٨٦)، أي حذارِ أن ييأس عبادي؛ فأنا أقربُ إليهم من حبل الوريد، فإن عجزوا عن الدعاء العملي فعليهم بالقولي، فإن عجـزوا فليتوجهـوا إليَّ بقلوبهم، أي إن كان ما يقولونه بألسـنتهم لا يطمئن نفوسهم فليسلموا أنفسهم إلى سَعَةِ ضمائرهم، ويقولوا:

"إلهي! سألتك ببعض الأدعية ما سألتُ وما أكثر ما سألَكَهُ الأنبياء والأصفيـاء والأوليـاء والمقربون والأبرار مما ينبغي أن أسـألكه ولم أفعـل لعجـزي عن معرفتهـا وإدراكها، وهـذا عبدك يتأمَّـلُ هذا كلّه، ويتوجَّـهُ إليـك ثانيـةً بذراته كلّهـا، ويقف على أعتـاب باب رحمتك وكلّه أنينٌ".

أجـل، علينا أن نعلـوَ بهممنا، ونوجِّه وجوهنا لربنا ببصيرة عميقة أي إنه توجّهٌ لغني مطلق لا تنقص خزائنه مثقال ذرة ولو وَهَبَنا جنانًا يوميًّا لا إلى مخلوقٍ عاجزٍ ضعيف.

هـذا والحقيقة المذكورة في الآية الكريمة: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ (سُورَةُ الفُرْقَانِ: ٧٧/٢٥) تكشـف أن توجُّهَ الإنسـانِ إلى اللهِ بالدعـاءِ جانـبٌ مهمٌّ جدًّا؛ لأن الدعاء يـكاد يكون أخلص العبادات؛ فبعض العبادات عُرْضة للرياء والسـمعة، بل قد تُؤدَّى كَرْهًا بمقتضى ما يظهر من أسـباب، أمَّا الدعاء فهو سـلاح نتوشَّـحُه عندما تتهاوى الأسـباب جذريًّا، فلا ينبغي الاعتماد على الأسـباب في الدعاء، ولا يدخله الرياء والسـمعة غالبًا، إذ يتوجه الداعي بقلبه أجمع حيث لا أحد معه مطلقًا، يمدّ يديه وهو يتلَّوى ويتضرَّع ويبتهل إلى ربه تعالى ساجدًا قد أَغرقت عيونُه مُصَلّاه.

ودعـاء كهذا يعـزز الميل إلى الخير، أي يُكسـب إرادة الإنسـان القـوة والقـدرة على فعل الخيرات، فهذا رسـول الله ﷺ يسـتغفر في اليوم سـبعين(٨٣) أو مائة(٨٤) مرة، ويلازم الدعاء في شـؤونه كلّها عند كل حالة من أحواله تقريبًا، بدءًا بسماعه صياح الديك إلى ارتدائه ثوبًا جديـدًا، وهكذا يمكن أن نصبح يومًا فيومًا أهلًا للدعاء والاسـتغفار بملازمتنـا لهما، ولو بأن نُكره أنفسـنا قليـلًا بادئ الأمر، فهذه الأمور كلّها من الامتحان بالإرادة في مقام العبودية.

ولـ"يونس أَمْرَه" مقطوعة في الإرادة يحسن أن نختم بها:

وأُقعِدتُ لَمَّا غلبَتْني نفسٌ قد عتتْ
جَشِعةٌ لا تشبـع من دنيا بها رتعَتْ

(٨٣) صحيح البخاري، الدعوات، ٣؛ سنن الترمذي، تفسير القرآن، ٤٧؛ سنن أبي داود، الوتر، ٢٦.
(٨٤) صحيح مسلم، الذكر، ٤١؛ سنن الترمذي، تفسير القرآن، ٤٧؛ سنن ابن ماجه، الأدب، ٥٧.

عميَتْ إذ ما قميصَ الغفلة ارتدَتْ
فغدتْ عاجزةً جاهلةً بأن دنياها انقضت

ربّ هل أَسلمَ مَن لقميص الغفلة ارتدى
وغدا يتبع أمر النفس والهوَى الرَّدَى؟

يكسب ما يكسب ثم يفنى
ويضنُّ بالمثقالِ في أمر الهدى

مولاي ارفع غفلةً قد غشيت
عيْنِي ولا تسوّد الوجهَ إذا ورَدت

فهلمَّ واستمسكْ بنصح يونُس المصيب
إذ ليس لذي الدنيا يوم القيامة نصيب

العبادات المالية والبدنية

سؤال: العبادات ماليّة وبدنيّة، فهلا توضّحون المسألة خاصّة العبادات المالية للمؤمنين الموسرين؟

الجواب: العبادات أصلًا قسمان: مالية وبدنية، ويُخطئ من يظنّ أن هذا التقسيم يعني أنهما متباينان لا صلة قريبة أو بعيدة بينهما، فكلٌّ منهما متعلّق بقسيمه ومعزّز له.

فالصلاة مثلًا عبادة بدنية لكنها لا تنفصل عن المادة جذريًّا، فالزمان والمكان فيها عناصر مادّية، وهما جَلِيَّانِ عند النظر إلى شروط الصلاة قبل الدخول فيها وبعده.

والزكاة عبادة ماليَّة، وهي بدنية أيضًا من حيث إنَّ الفردَ يكدُّ في السوق ويسعى حتى يغدوَ أهلًا لوجوبِ الزَّكاة عليه.

والحجّ عبادة لها وجه مالي هو النفقة وآخر بدنيّ هو الرحلة الطويلة والمناسك من طواف وسعي ووقوف ورجم للشيطان وغيرها، وهكذا الصوم.

إذًا العلاقة قوية وعظيمة جدًّا في هذه الأركان الأربعة، فكأنّ ما نتقرب به إلى الله في باب العبودية لا ينفك عن المادة.

وبعد فموضوع السؤال أنَّ للمادة دورًا رائدًا في الدفاع عن القرآن والإيمان والسعي في نشرهما اليوم، ومن هذا الجهادُ بالمالِ في سبيل الله، أي بذله في سبيل الحق بالزكاة ونحوها كالهبة والوقف والصدقة.

وتنبغي الإشارة إلى دقيقةٍ لطيفةٍ قد تُفهَمُ خطأً: إن من وهبهم الله المال لا تُغني زكاتهم ولا أضعافُها من الصدقات عن السعي بأبدانهم في سبيل الخدمة، وقد ذكرت آرائي هذه مرارًا في مناسبات كثيرة، وأُوجزُها هنا لمناسبتها:

كان أبو بكر ﵁ من أثرياء مكة يوم أن عرف مفخرة الإنسانية ﷺ، أما يوم توفي فميراثه معلوم. أجل، إنه لما عرف رسولَ الله ﷺ أنفق كلَّ ما يملك، وأفناه في سبيل الإسلام، وأقدمَ بنفسه في كل نضال ومعركة لا سيما الهجرة إلى المدينة فشهد بدرًا وأحدًا والخندق وخيبر وتبوك وغيرها.

فما كان إنفاق المال كله في سبيل الله لِيَعُوقَه عن الكفاح بنفسه، ولو فرضنا محالًا أنه﵁ لم يشهد أحد هذه المشاهد، فليس ببعيد أن يقول له رسول الله ﷺ ما قاله لكعب بن مالك ﵁ لما تخلف عن غزوة تبوك، وأن يهجره ولا يكلمه وينهى عن كلامه حتى يأتي بيان سماوي بتوبته كما فعل بكعب وصاحبيه.

أجل، إن المادة أحيانًا كانت في الصدارة في خدمة الإسلام والقرآن، وهذا ليس مطلقًا، بل يختلف باختلاف الزمان والمكان وأحوال الأفراد.

وهذا الضبط للمسألة يتيح بحثها من وجهين:

١. إنفاق الناس ما قلّ أو كثُر مما يملكون، وصرفه في سبيل الله تعالى.

٢. التضحية الممكنة في هذا وَفْقَ المقادير الشرعية.

أجل، اليوم لدى المسلمين فهمٌ معوجّ جدًّا وخاطئٌ بقدر اعوجاجه، يقول بعضهم: "لستُ من أولي السَّعة، فلا ثروة لديَّ، لذا لستُ معنيًّا بالعبادات المالية من زكاة وهبة ووقف وصدقة وغيرها". كلا، إن هذه رؤية خاطئة قطعًا، فكلٌّ مكلف بعبوديته تعالى بقدر ما وهبه من إمكانيات، فمن عنده عشر ليرات ومن عنده مائة ألف ليرة كلاهما يؤدِّي حقوق الله تعالى مما أوتِي، ويسعى للإنفاق ونيل رضا ربه بأداء حق العباد منه، وأخصّ يومنا هذا، فعلى الجميع أن يُسهموا، أي كلّ من يؤمن بهذه الدعوة العظيمة، كلٌّ بقدر ما أُوتِي من أجل إعلاء كلمة الله وعلوّها، لذا لا يصدر عن المؤمن بل يستحيل أن يصدر عنه كلام مثل "ما زلتُ فقيرًا، وعندما أُصبح غنيًّا سأنفق في سبيل الله".

يقول بديع الزمان: "إنّ ذرة من عمل خالص لهي أفضلُ عند الله من أطنان من الأعمال المشوبة"[٨٥]؛ فالله سبحانه عندما يزن الأعمال لا ينظر إلى قلتها أو كثرتها بل إلى ما فيها من إخلاص.

(٨٥) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **اللمعات**، اللمعة السابعة عشرة، الذكرة الثالثة عشر، ص ١٨٢.

والخلاصةُ أنَّ كلَّ إنسانٍ مكلَّف بالتعبئة في سبيل الله تعالى بما أُوتِي، فلو أنَّ لأحدهم فرسًا لوجب أن يلحق بالرَّكبِ، ولو أن لآخر سيارة للزمه أن يلحق بالجيش كذلك، ولو كان لآخر مع خيله معدات عسكرية فليأخذها ويذهبْ؛ فيستوي الجميع في الجهاد، ولعلهم يتساوون عند الحقّ تعالى، فهم في الأجر سواء، ذلك أنهم جميعًا جيَّشوا كل ما يملكون.

ومن المفيدِ التطرُّق إلى أمرٍ آخر: الإنفاقُ الكثيرُ مع الحفاظ على الإخلاص صعبٌ جدًّا، إنَّه صعبٌ ولكنَّ ثوابَه جزيلٌ جدًّا بناءً على قاعدة: "الغُنْمُ بالغُرم". أجل، إنّه لَأمرٌ يأتي بالثواب والأجر قطعًا أَنْ يحافظ المرءُ على إخلاصه وصدقه وصلته بربِّه في فترةٍ المادّةُ فيها رفاهيةٌ أو تعِدُ بالرفاهية، بل تفتح أبوابَ الرياء والسمعة.

وللمسألةِ وجهٌ آخر وهو معيار التضحيةِ في الإسلام، ولا أعلم معيارًا ثابتًا في هذا الموضوع. نعم، جاء في النصّ مقادير وأنصبة ثابتة للزكاة، تبيّن أقلّ ما يكلَّف به المؤمن بالزكاة وأقلّ ما يرفع عنه المسؤولية.

وكما لا نستطيع إنقاصَ عدد الصلوات الخمس ولا زيادتها، ولا تغيير أوقاتها أو عدد ركعاتها، كذا فلنفهم مسألة أنصبة الزكاة ومقاديرها، وفي حديث الترمذي: "**إِنَّ فِي المَالِ لَحَقًّا سِوَى الزَّكَاةِ**"(٨٦)؛ قال شُرّاح الحديث: لرئيس الدولة أن يطلب ذلك من رعاياه عند الحاجة؛ هذا ولم تُطلب الأموال فحسب، بل الأرواح

(٨٦) سنن الترمذي، الزكاة، ٢٧.

أيضا يوم صارت سيادة الدولة والأمة عُرْضة للخطر، فضحت الأمة بهذا عن طيب نفس؛ إذ يلزم فعلُ ما يجبُ فعله مطلقًا ولو بأن تنفق أموالٌ أضعاف مقادير الزكاة لكيلا يُلِمّ بها هذا الخطر.

ولو تأمّلنا يومنا هذا من خلال هذا المنظور، لَبَدا أن الدين المبين انتُهك، وثمة محاولات لتنسية الأجيال ذكرَه الجميل ﷺ؛ ولا وجودَ على وجه البسيطة اليوم لمجتمعٍ إسلامي شريفٍ محترمٍ له وزنه، ولا مجال للحديث عن وجود مجتمع قوي قادرٍ على حمايةِ المسلم وحقوقه والدفاع عنه ضد القوى الظالمة، وعُتاة القوة الغاشمة.

وحسبُنا هذه الأسباب ليقدِّمَ المسلم روحَه في صُرَّة، لا نصفَ ماله أو مالَه كلَّه فحسب، وينهض للنضال والكفاح في سبيل الإسلام. أجل، هذا السعي من الأعمال الضرورية التي يلزم القيام بها كي يتغير طالع المسلمين النكد، ويجريَ كل شيء في مصلحتهم، وهذا لا يتحقق بربع العشر فحسب، فعلى كل من وعى الدعوة أن يعمل بجد لتحقيق التوازن بين الدنيا والعقبى، وأن يشارك هذا الركبَ بأوجه الإنفاق التي يبذلها بقدر إيمانه واعتقاده زيادة على الحدِّ الأدنى في الزكاة، بل إنه مضطر للمشاركة في هذا الركب؛ وأعتقد أنه ما من نفقةٍ ينفقها اليومَ في سبيل الله إلا حظيت بالقبول عند الحق ﷻ، وسيُثاب على الواحد بالآلاف.

أجل، إن كل إنسان مكلفٌ بالخدمة في سبيل الله -بنفسه وماله- بقدر إيمانه، ولا حدّ لهذا أو هو نسبيّ، فعلى قدر إيمان الفرد بالله، وشعورِه بوجوبِ رفعِ اسمه تعالى الأعظم في أفقنا، ويقينه بأنَّ اسمه

الجميل ﷺ شفاء لصدورنا، تكون التضحية بالروح لا بالمال فحسب، يضحي الفرد ويقول: "آهٍ، لو أن لي أربعين نفسًا لضحيتُ بها" كما فعل سيدنا عبد الله بن حذافة السهمي رضي الله عنه، فلقد أسره الروم وأذاقوه من صنوف العذاب ما لا يخطر ببال ولا يتخيله عقلٌ أو خيال، فمن غطسٍ بقِدرٍ يغلي ماؤها إلى سحبٍ على الوجه وهو موثق بذيل الخيل، إلى غير لك من صنوف العذاب... فلما رأوا رباطة جأشه راحوا يحلمون ويتمنون لو أنه تنصَّر، ثم قرّروا قتله، فأخذ يبكي، فعجبوا لبكائه وهو من تحمل كل أنواع العذاب تلك، عجبوا أيّما عجب، فقيل له: ما يبكيك يا عبد الله، أتخاف الموت؟ فقال رضي الله عنه:

"إِنِّي إِنَّمَا بَكَيتُ لِأَنَّ نَفْسِي إِنَّمَا هِيَ نَفْسٌ وَاحِدَةٌ، تُلْقى فِي هَذِهِ الْقِدْرِ السَّاعَةَ فِي اللهِ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ يَكُونَ لِي بِعَدَدِ كُلِّ شَعْرَةٍ فِي جَسَدِي نَفْسٌ تُعَذَّبُ هَذَا العَذَابَ فِي الله"(٨٧).

هكذا فلنكن، نستقلّ ما ننفقه كي ننهض بالحقيقة التي نؤمن بضرورة رفعها ولو أنفقنا كل ما نملك كما فعل ذلك الصحابي الجليل، فلنشاركه مبدأَه: "يا ليتني كان لي من الأنفس عدد كل شعرة فيَّ، ثم تسلط عليَّ فتفعل بي هذا".

---

(٨٧) ابن عساكر: **تاريخ دمشق**، ٣٥٨/٢٧؛ ابن الأثير: **أسد الغابة**، ٢١٣/٣؛ ابن كثير: **التفسير**، ٥٢١/٤ (في تفسير الأية ١١٠ من سورة النحل).

الفصل الرابع

المِجهر

الدين والحكمة والقوة

سؤال: ترون أن "ثمّة ثلاثة عناصر مهمة تُحيي الأمم: الدين والحكمة والقوة"، فليتكم تبيّنون لنا هذا؟

الجواب: أولًا: الدين: "وضعٌ إلهيّ سائقٌ لذوي العقول باختيارهم المحمودِ إلى ما هو خيرٌ لهم بالذات"، وهذا التعريف الإجمالي موافق لما في الكتاب والسنة ولو لم يرد فيهما بهذا اللفظ؛ فالدين نظام إلهي أو مجموعة أنظمة إلهية، وأهم ما يميزه عن الأنظمة البشرية أنه وضع إلهي؛ لذا أُطلق على الأنظمة الأخرى "الوضع البشري" أو "القوانين الوضعية" أي قوانين وضعها البشر؛ وسَوْقُ الناس بالدين إلى الخير أمرٌ خاصٌّ بالله ﷻ، لكن هذا السوق لا ينفي إرادة الإنسان، فالناس ذوو إرادة وإن كانت نسبيةً؛ لذا لا يُساقون كالجمادات من نقطة إلى أخرى؛ والنتيجة أن الدين نظام إلهيّ كليّ متمثلٌ بالكتاب والسنة، وصفوة اجتهادات السلف الصالح فيهما.

ثانيًا: أما الحكمة فلها تعريفات، قال الله ﷻ مخاطبًا الرسول ﷺ: ﴿**وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**﴾ (سُورَةُ النِّسَاءِ: ١١٣/٤)، فعطف الحكمةَ على الكتاب؛ لذا قال كثيرٌ من المفسّرين: إن الحكمة غير الكتاب، لأن المعطوف غير المعطوف عليه، وقال تعالى: ﴿**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ (سُورَةُ البَقَرَةِ: ٢٦٩/٢)؛ والسنةُ مصدرٌ لخير عظيم وفير يُضاعِفُ الواحدَ إلى الألف، ويوسّع الدائرة، فهي تفصِّل مجمل القرآن، وتخصص عامَّه، وتعمّم خاصَّه، وتقيد مطلقه، وتطلق مقيده؛ لذا يرى المحدثون أن السنة هي المقصود من الحكمة المذكورة في الآية؛ فالسُّنةُ خير كثير، ورسولنا ﷺ هو أول وأعظم ناهلٍ من هذا الخير.

وقد حُملت الحكمة أيضًا -كما أشار الأستاذ النورسي- على أنها تبيان القضايا الإسلامية التي عُلِّمْناها حقًّا وحقيقةً بالكشف والمشاهدة، والاطلاع على ما وراء الحجب؛ إننا نرى حولنا بابًا ونافذة وأربعة جدران فحسب، أما الصادق المصدوق ﷺ فيقول: "**إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلهِ، وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ**"[٨٨].

(٨٨) **سنن الترمذي**، الزهد، ٩. (وروى بعضه البخاري ومسلم في صحيحيهما، انظر: **صحيح البخاري**، الكسوف،٢؛ **صحيح مسلم**، الكسوف، ١).

وقد بُحث في مفهوم الحكمة الاطلاع على ما وراء الحجب بهذا المعنى، ويتحقق هذا الاطلاع بانكشاف الحدس وسعة الخيال وبالكشف والمشاهدة، وما نعلمه نحن علم اليقين ونستدل عليه بالعقل يكتشفه أهل الله في ضمائرهم، ويحسّون به، بل يعيشونه، وهذا خير كثير أيضًا.

واستُخدمت الحكمة بمعنى الفلسفة أيضًا، فمعظم المحقّقين تصدوا للفلسفة منذ زمن بعيد. نعم، تسللت إلينا أفكار فلسفية من تهاوننا حينًا من الدهر، لكن علمَ الكلام وما فيه من أدوية وعلاج يشبه المضادات الحيوية قضى على تلك العدوى والفيروسات والجراثيم؛ فإذا تحدّث الفلاسفة مثلًا عن التسلسل أبطله علماء التوحيد، وواجهوهم بسهولةٍ بما زعموه دليلًا على فلسفتهم.

وما زالت مقاومةُ العلماء المحققين كالإمام الغزالي للتهافتات الفلسفية ملحمةً تتناقُلها الألسنة. أجل، إن الإمام الغزالي عَلَمٌ بارز في إبراز تهافت الفلاسفة، فقد فضح أمام الناس تهافتهم وترديهم، وتصدّى المفكرون الكبار كالإمام الغزالي وبديع الزمان لبعض العقليين والوضعيين القدامى والمحدثين، واختبروا مسائلَ العلوم "المنطقية" و"العقلية" بطرقٍ ومناهج ليست من الكشف والمشاهدة في شيء، بل كأنهم خبراء في تلك العلوم أيضًا، ولو عُد هذا فلسفةً، فهي فلسفة توافق قيمنا ومبادئنا، ويمكن إدراجها وبحثها في مفهوم الحكمة.

وما كاد الإمام الغزالي يكفِّرُ الفلاسفة إلّا لأن في آرائهم ومعتقداتهم ما يلزم عنه الكفر مثل دعواهم أن العمل بالنص هو ضرب من الحماقة، وأنّ عِلم الله محدود، وأن الفلاسفة أفضل من الأنبياء، وإنكارهم حشر الأجساد؛ إلّا أن تصرفاتهم هذه ردّ فعل لأهل الظاهر منا من جهة ما. نعم، علينا ذكر السابقين بالخير وحسن الظن بهم، إلّا أنهم يستحقون وصفهم بـ"ذوي العقول المتحجرة" التي تُجمّد الفكر الإنساني مطلقًا، حتى إنها توجب العمل بكلّ ما صحّ، وتعجز عن الترجيح عند تعارض النصوص والروايات؛ إن إفراط هذه الفئة من أهل السنة هي من أسباب تفريط الفلاسفة.

هذا وإن لم نعد الفلسفة المشوبة بالبِدَع حكمة، لكنا نعد من مفهوم الحكمة النظر في قضايانا المعاصرة في ضوء المنطق لمواجهة تلك الأفكار، أي ننظر فيها من خلال مبادئ العلوم التجريبية والاجتماعية في ضوء منهج "عقلي" و"منطقيّ" موافق للكتاب والسنة.

ومن مفهوم الحكمة أيضًا البحث عما بين قوانين الكون وقوانين الحياة البشرية ومبادئها من تطابق، وإدراك فإبرازِ ما بين الكتاب المسطور والمنظور من توافق. أجل، لو تبدت لامرئ اختلافات بين الكتابين بأن كان يرى أحدهما نقيضًا للآخر دومًا لاستحال أن يُوفَّقَ هذا في الحياة الدنيا ولو كان من أهل الجنة.

إن إدراك تطابق الكتابين وتطبيقه على الحياة وقوانينها لهو أهم ركن في الحياة الدينية وفي تحقّق الفلاح في الدارين، ومن ثمرة

هـذا الإدراك ونتاجه المهم: التفقه والفقه الإسـلاميّ، فالفقه الحنفي هـو فقـه القياس والرأي، حتى إن الحنفيـة أصابهم نقد كثير في هذا، والحقُّ أنها مدرسـةٌ فقهية تبرز العلاقة بين الدين والإنسـان والكون علـى أفضل وجه، وغدَت الأسـاسَ الديني والقانونـي لإدارة الدول الكبـرى مثل دولة السـلاجقة والعثمانيين بل العباسـيين أيضًا، لأنها ملائمة للتطوّر والتمدّن أيّما ملاءمة.

إنمـا اتخـذت دول الخلافـة فقه الحنفيـة أصلًا التزمتـه لمرونته وسعته في القضايا الكليّة؛ وليست مواد القانون آخر العصر العثماني سـوى تنظيم لمدوَّنات القرن السـادس الهجري، وهذا وجهٌ آخر من الحكمة.

ثالثًـا: إنّ منزلـة القوة تلي الدين والحكمة، إذ لو لـم تُجهّز قوانين الحكمـة ودسـاتير الدين والدولـة بالقوة، لبقي كل شـيء حبرًا على ورق، ولمـا أمكـن التأثيـر علـى الناس كمـا ينبغي، وتعسَّـر أو تعذَّر تطبيق الحكمة في الحياة؛ فلو انتفت القوة فأنى للحكمة المكنونة في أدراج المكتبـات والعقول والقلـوب أن تُطبّق على الحياة؟ فالماضي والحاضر شـاهد على هذا؛ ذلك أن عتاة القوة الغاشـمة لم يسـمحوا بهذا؛ إذ أداروا ظهورهم للعلم والحقيقة، وظنوا أن كل شـيء يمكن حلـه بقـوّة الذراع؛ ولهذا فمـا تفعله أيّ أمةٍ في سـبيل قيمها الوطنية والدينيّة قد يذهب كثيرٌ منه سدًى ما لم تُعْنَ تلك الأُمةُ بالقوة عنايتَها بالحكمة.

ثــم إنه ينبغي أن تجتمــع الثلاثة وتتّفق: الديــن والحكمة والقوة معًا، وإلا غدت القوة بلا دينٍ ولا حكمةٍ سيفًا مصلتًا للظلم والقمـع، والحكمـةُ بـلا دينٍ خداعًـا، والدينُ بلا قوة أمـرًا وجدانيًّا صِرفًا، فلا تتحقّق غايةُ وجوده كاملًا.

عوائدُ الكَرَم

سـؤال: "كان كرمُ رسـولِ الله ﷺ لحكمة، فلم تذهب ذرة من كرمه سُدًى، بل غدَتْ قوةً للإسلام"، فكيف ذلك؟

الجواب: الكرم فطرة وركن ركين لدى مفخرة الإنسانية ﷺ وعمق مـن أعماقـه، والأصل أن كل ما عنده من صفة عـادت عليه أضعافًا، ذلك أنه أحسن توظيفها وأحكمَها فالكرم والمروءة والجود والسخاء شـيء واحدٌ وتشـير إلى النقطة نفسها وإن تباينت بفروق يسيرة، وقد تخلّق ﷺ بأخلاق الله تعالى، وأتقن استخدامها ولم يفُته منها ولو ذرة واحـدة؛ فضاعـف الحق تعالى له ثـواب التخلّق بهـا وأعادها عوائدَ مضاعفة.

أجل، استثمر مفخرة الإنسانية ﷺ هذا الخُلُق ففاق الخَلْقَ جميعًا، بـل والملائكـة أيضًا، لأنه مفخرة العالميـن أجمع؛ وهذا واقعٌ لكل إنسـان، أي كل مـا يبذلـه المـرء في سـبيل الله سـيعود إليـه أضعافًا، والقـرآن صريـحٌ بهذا، من ذلـك قوله تعالى: ﴿مَـنْ جَاءَ بِالْحَسَـنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ (سُورَةُ الأَنْعَامِ: ٦/١٦٠). أجل، لو أن إنسـانًا أحسـن مرةً فقط لضاعفهـا الحق تعالى أضعافًا كثيـرة، وأعادها إليه كرةً أخرى، وهذا أقـل الفضـل الإلهي؛ فثمة مائـةُ ضِعفٍ وألفُ ضعفٍ وبلا حسـاب،

ومـردّ هـذا إلى إخـلاص العامل، بل قـد تُضاعف أحيانًـا آلافًا وفق عنايـة العبد بالعبادة والطاعة، بل مليونًا في أيام مخصوصة أو بنسـبة تضحيته وإيثاره، وتطوّعه وصلته الوثقى بالله.

إذًا هذا ممكن لكل إنسـان، ولكنَّ اسـتثمارَ طاقة اسـتيعابية على هذا النحو، وتوظيفها بشـكل تام من خصائص سـيدنا رسـول الله ﷺ فحسـب، حتى إنه ليس فيمن نسـلِّم بمكانتهم من أنبياء عظام وأولياء كرام وأصفياء فخام من اسـتطاع مطلقًا أن يسـتغلّ مثل نبيّنا ما وهبه الحق تعالى؛ لذلك لم يعودوا بالقدر نفسه من عطاء الحق تعالى.

والكـرم والكرامة والإكرام: من جذر واحد، فالكرم هو أن يغدو حـبُّ الخيـر مدارَ عناية الإنسـان ومُسْتَمْسَـكَه، أو أن يتملكه شـعورٌ بفعـل الخير للآخرين، وهذا الشـعور لدى كلّ إنسـان بقدرٍ تامًّا كان أم ناقصًـا، لكن من الناس مَن يخمد هذا الشـعور جذريًّا، ومنهم من ينمّيـه بتفعيله دائمًا؛ ينمّيه حتى يصبحَ طريقُ الكرم جادته المطروقة، فيعيـش جوَادًا ينثر لآلئ الكرم من حوله دائمًا دون أن يضلَّ أو يزيـغ يمينًا أو يسارًا قطّ.

إن العطـاء الإلهي والموهبة الربانية لمفخرة الإنسـانية محمد ﷺ عطـاء عظيـم وموهبة عظيمة جدًّا بقدر رسـالته التي سـيحملها، ولا غرو فهو الإنسان المصطفى حقًّا؛ وقد أُعِدّ وجُهِّز وفقًا لعظم رسالته مـن نـوى يمكنها أن تحمل هذه المسـؤولية الثقيلة، ثم نمّى ﷺ تلك النوى التي أودعها الحق تعالى فيه، فجاء منها ما لا يخطر ببال.

إنه سبحانه ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (سُورَةُ الأَنْبِيَاءِ: ٢١/٢٣). أجل، لا يُقال له: "لماذا فعلت هذا هكذا؟"، ونعتقد في هذا الصدد: أن الله سبحانه وتعالى تفضّل على رسوله ﷺ ابتداءً بكماليّاتٍ خاصّة لتمام علمه بأنه ﷺ سيستغلّها على وجهها الأمثل، وأنعم الله عليه في علمه الأزلي المحيط بعظمةٍ لا يبلغها بشرٌ ولا شيء من خلقه، فعاد هذا اللطف والإحسان الإلهي على مفخرة الإنسانية في حياته الخاصة وحياة الأمة الإسلامية سواء.

وكرمُه ﷺ من هذا القبيل، ومعناه أولًا عنده ﷺ: رغبةٌ في حبّ الخير أو الباعث على فعل الخير مع التهيُّؤ والأهلية لأن تصدر عنه الكرامة، فهو كلما أنفق وجاد أغدق عليه الله تعالى العطاء، ونسمي خوارق العادات عند الأنبياء معجزاتٍ لأنها تصديق لدعوى النبوة؛ والمعجزة: "أمر خارق للعادة، يُقْصَدُ بها إظهار صدق من ادعى أنه رسول من الله"، وهو ما كانت الماهية الأحمدية مؤهَّلةً له.

والكرمُ خصلةٌ محبوبةٌ في ذاتها، بل إننا نحب الناس لكرمهم، ومن لطيف الأمثال: "الإنسان عبدُ الإحسان"، فللكرم فاعلية نحقِّقُ بها مهامَّ كثيرة، ونجتاز بها صعابًا عسيرة.

والعربُ يومئذ أهلُ الكرم، وعُنِيَ الشعر الجاهلي منذ مطلعه بمشهدين مهمين: الكرم، والشجاعة. أجل، لقد عنوا بهما جميعًا منذ "امرئ القيس" حتى "طرفة بن العبد" إن صحت تلك الأشعار عنهما، فلقد كان ذلك من بقية دين إبراهيم عليه السلام يومئذ، ومما يُحكى ويرِدُ عن كرم إبراهيم عليه السلام الأسطوري:

أن الملائكـة قال بعضهم لبعض: اتخذ ربُّنا من نطفة خليلًا، وقد أعطـاه ملـكًا عظيمًا جزيلًا، فأوحى الله تعالى إلـى الملائكة: اعمدوا إلى أزهدكم ورئيسـكم، فوقـع الاتفـاق على جبريل وميكائيل، فنزلا إلـى إبراهيـم في يوم جمـع غنمه، وكان لإبراهيـم ﷺ أربعة آلاف راع، وأربعة آلاف كلب، في عنق كل كلب طوق من ذهب، وأربعون ألف غنمة حلابة، وما شـاء الله من الخيل والجمال، فوقف الملكان فـي طرفي الجمع، فقـال أحدهما بصوت عذب: "سُـبُّوح قُدُّوس"، فجاوبـه الثاني: "ربُّ الملائكـة والرُّوح"؛ فقال إبراهيم ﷺ: أعيداها ولكمـا ربـع مالـي، ثم قـال أعيداها: ولكمـا نصف مالـي، ثم قال: أعيداها ولكما مالي وولدي وجسدي، فنادت ملائكة السموات: هذا هـو الكرم، هذا هو الكرم، فسـمعوا مناديًـا من العرش يقول: الخليل موافق لخليله.

"**سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلائِكَةِ وَالرُّوحِ**"(٨٩): هذه الكلمات مختارةٌ بدقّـةٍ لتقديسِ الله تعالى وتسـبيحِه، وللتسـبيح ألفاظ دقيقـة، كما أنّ البلاغيين وفرسـان البيان يدركون أسـرار الشـعر وكلماته، ويقولون: "مـا أعذبهـا من كلمـات! لقد وقعـت من موسـيقى الشـعر موقعًا"؛ وهكـذا تـدرك معانيَ التسـبيح العميقـة أرواحُ فريـدة عرفت الذات الإلـهيّة وانكشفت لبصيرتها، وهذا حال إبراهيم ﷺ؛ لذا عجب كلَّ العجب لما سمـع تسبيحًا كهذا من الملائكة، فقال ما قال؛ فإذا كانت

(٨٩) صحيح مسلم، الصلاة، ٢٢٣.

علاقة الثروة بهذه المشاعر وثيقةً، فإنها لا تناقض النبوة بل هي دعامة مهمة جدًّا.

نعم، إن بقايا كرم إبراهيم عليه السلام لم تكن غريبةً على المكّيّين، فضربَ كلٌّ منهم بنصيبه منه بحسب حاله؛ غير أنه لا أحد منهم قطّ بلغ به كرمه أن ينافس سيدنا رسول الله ﷺ ولو قبل النبوّة؛ لأن رسول الله ﷺ آخر ثمار شجرة إبراهيم عليه السلام ومجمعها؛ فكأنه ﷺ وَرِثَ كرم إبراهيم عليه السلام كلَّه؛ وعظُم هذا الكرمُ لا سيما بعد الرسالة، وكأنه تجسّد على الأرض؛ لا سيما في شهر رمضان كان أجود بالخير من الريح المرسلة كما روت السيدة عائشة رضي الله عنها[٩٠]؛ فما كان يبيت وعنده شيء يأكله ذو روح.

ولقد كانت مهمة تبليغ الرسالة له ﷺ مثاليةً عظمى، بل معشوقه؛ حتى إنه يكاد يموت حين يعوقه عن أدائها عائق، فيخفف الله تعالى عنه ويخاطبه مواسيًا: **﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾** (سُورَةُ الْكَهْفِ: ٦/١٨)، وقوله: **﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾** (سُورَةُ الشُّعَرَاءِ: ٣/٢٦).

لذا بذل سيدنا رسول الله ﷺ كل ما وهبه الحق تعالى في سبيل دعوة الحق، أي قدَّم كل ما أعطاه الله لإحياء دينه، لقد وهبه إقدامًا فائقًا، فحطم ﷺ بهذا الإقدام كل غارة يجب تحطيمها، وتَخلَّق باسم الحق تعالى "الجواد" على أكمل وجه؛ لكنه لم يبدد طاقاته هنا وهناك بلا حساب؛ بل وضعها في طريق الحقِّ بحيطةٍ وحَذَرٍ على نحوٍ لم

(٩٠) سنن النسائي، الصيام، ٢.

يُعهد من قبل، ونثر ما أنفقه نثر البذور المكفورة في باطن الأرض، فأنبتت كلُّ حبةٍ نثرَها سنبلةً بل سبعَ سنابل.

وكان لسيدِنا رسول الله ﷺ وأمِّنا خديجة رضي الله عنها ثروةً عظيمةً في فترةٍ ما؛ وما أتت عليهما سنتان أو ثلاث من البعثة وفي بيتهم شيء يُؤكَل؛ لقد أفنَتِ الدعوة تلك الثروة العظيمة، إذ أُنفقت على مآدب الضيافة، أو تألُّفِ هذا وتطييب قلب ذاك والحدِّ من النزاعات؛ استُهلكت تلك الثروة العظيمة، وما مضت على مفخرة الإنسانية محمد ﷺ خمس سنوات أو ست حتى غدا يربط على بطنه حجرًا لئلّا يشعر بالجوع؛ أنفق ما أنفق في موضعه بحكمةٍ مبرمة، فألّفَ قلوبًا كثيرة إلى الإسلام، وكشف عن سرِّ "الإنسانُ عبدُ الإحسان" بكلِّ ما فيه من جاذبية وسحر.

كَشَفَ عن ذلك حتى إنّ من عميت أعينهم عن فضائله وأمانته ووفائه سلَّمُوا قطعًا بكرمه ﷺ، وهكذا كان حتى آخر عمره؛ وهذا الخُلُق النبوي جعل الناس يومئذٍ يوقنون أنه قد يبلغ الإنسان هذه المنزلة من الكرم بتوكله على الله فحسب، وتلك أَمارة النبوة.

أجل، هكذا كان سيدنا رسول الله ﷺ يدخل القلوب قلبًا قلبًا، وينال بهذا الكرم العُجاب ما لم ينلْه بصفات الوفاء والصدق والأمانة. أجل، فكلُّ إنسانٍ تعرّف إلى واحدٍ من جوانب عظَمة النبيّ ﷺ أذعن له ورضيه، فقد أحسن ﷺ توجيهَ كرمه، واستثمره حتى بدت كل حبة من ثروته كأنها سنبلة أنبتت سبع سنابل، بل سبعين سنبلة، بل سبعين ألف سنبلة، فحَسَبَ كل مسألة على هذا النحو في عالم التخطيط

والمشــروعات، ونَثَرَ ثروته هكذا كالبذور، وسرعان ما أثمرت بعناية الله وكرمِه سـنابل، شَـمَخَتْ وتفتحت أزهارها حتى صارت الأرضُ كلُّها ربيعًا.

وهذا شأن الأبطال الفدائيّين الذين نذروا حياتهم في سبيل رسالة الإحياء في يومنا هذا، أصحابِ رسالة مهمة، ورثةِ دعوة النبوة.

لقد أحيا سيدُنا محمد ﷺ شعور الكرم في عصره، وبلـغ به أسمى درجة، فعلى ممثّلي دعوة النبوة في يومنا هذا أن يقتدوا به في ذلك.

دلَّ هذا أنَّه يمكن استثمار كلّ ما وهبنا الله ﷻ في الدعوة وغايتها السامية مثلما فعل مفخرة الإنسانية، دون أن نضيـع ولو عود زرنيخ؛ وأن نعجِّـل حركةَ التطورات الإيجابيـة التي نصل إليها وتخدم ديننا. أجـل، إنَّ الكرمَ آتى وسـيؤتي ثمارًا مهمّةً جدًّا لمسـتقبل هذه الأمة، وقيّمةً وجديرةً ببذلِ كلِّ تضحية.

مجتمع المعرفة

سؤال: ما معنى "مجتمع المعرفة" في هذه المقولة: "إنَّ احتضانَ المستقبل لا يكون إلا من مجتمع المعرفة"؟

الجواب: أهميّةُ العلم حقيقة يقينيّة منذ القدم، أليس العلم هو الذي يميز الإنسان ويفضّله على غيره من المخلوقات؟ وهو الحكمة من سجود الملائكة لآدم عليه السلام -أيًّا كان معنى هذا السجود الانقياد له أم الإقرار بعظمته-، لقد فضّل الله جل جلاله آدم بتعليمه "الأسماء"، ويستحيل عقليًّا الفصل بين الأسماء والمسمّيات، وهذا يعني أن آدم عليه السلام عُلِّمَ حقيقة الأشياء، وأُوتِيَ سيدُنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بمعنًى ما الخصوصية نفسها، والفرق أنّ ما أُعطيه سيدنا آدم عليه السلام إجمالًا أُعطيه رسول الله صلى الله عليه وسلم تفصيلًا؛ فكان آدم عليه السلام يعرف الأسماء وفقًا لمستوى أمته ويُنشئ ويقدِّم تركيبات ملائمة لهم.

أجل، علّم الحقُّ تعالى آدمَ عليه السلام الأسماءَ والمسمّيات وحقائق الأشياء؛ ثم آتاه القدرة على التدخّل في الأشياء والحوادث، فانظروا من هذه الزاوية إلى الخلافة التي أُوتيها، وقولوا: "إنّ الخلافة هي الإذن بالتدخل في الوجود من الله صاحب الوجود"، ولا يمكن أن تتحقّق مزيّة كهذه إلا في ضوء العلم فحسب.

والتدخّل في الأشياء واقع اليوم أيضًا، لكن له آثاره السلبية لأنه يقع من أيدٍ دخيلة، آثار لا قبل لنا بدفعها، ولهذا نواجه كثيرًا من المشكلات، أمَّا النهج النبوي فلم يكن فيه شيء من هذا.

أجل، ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ (سُورَةُ البَقَرَةِ: ٣١/٢)، إن ما أُعْطِيَه آدمُ عليه السلام هو إما العلم نفسه وإما أصلُ العلم وهو الحقائق الثابتة التي يصل إليها الإنسان ببحوثه ودراساته وذهابه وإيابه الدائبين من السبب إلى النتيجة ومن النتيجة إلى السبب.

نعم، العلم هو ما به فُضِّل آدم عليه السلام على الملائكة، وترقَّى هذا العلمُ أكثر عند نوح عليه السلام، وتسارع أكثر عند إبراهيم عليه السلام، وتضاعف أكثر عند هود وصالح عليهما السلام، ثم بلغ الذروة، وفُصِّل تفصيلًا تامًّا عند مفخرةِ الإنسانية محمدٍ ﷺ؛ إنه خاتم النبيين، فينبغي ألا تُعارض ألبتة الاكتشافاتُ والنتائج الحديثة التي ستُظهر ما أُنزل عليه من الكتاب أو السنة.

ولنا أن نقول: إن الله جل جلاله منّ علينا بأن كلفنا بالشريعة الغراء كي نجول بسهولة في مدارج كتاب الكائنات الذي كتبه بقدرته وإرادته ومشيئته.

نعم، أقام القرآنُ جسورًا بين الإنسان والوجود، فنجا بها الإنسان من استيحاش الوجود؛ فصار يرى الوجود وكأنه "أنيسه وجليسه"، ومن هذا الوجه لنا أن نقول: ما ترك سيدنا رسول الله ﷺ شيئًا في الوجود إلا بيَّنه منذ أربعة عشر قرنًا، ولن يأتي العلم بما يعارضه

أو يخالفه مهما تقدم وتطور إلى يوم القيامة؛ وما ينبغي أن يفهم هذا كما وهم بعضهم بأنَّه ﷺ أخبر من قبل بكل ما تم اكتشافه في الفيزياء والكيمياء والرياضيات والأحياء والتشريح، فما نريد قوله هو أنه ليس في هذه العلوم ما يعارض ما جاء به مفخرة الإنسانية ﷺ، بل إنها تعزِّزُه وتؤكّده، وهذا يكشف أهمية العلم، ويتيح لنا أن نقول: "كل شيء ينبني على العلم"(٩١).

أجل، إنَّ مصير المستقبل بيد العِلْم بنسبةٍ ما؛ إذ يتعذَّر تحقيقُ أية نتيجة بدونه، بل إن أهميته باتت مطَّردة بعولمة العالَم، لذا دفعنا الثمن غاليًا كثمن تخلفنا عن الثورة الصناعية الغربية حين قامت في فترةٍ ما، ولطالما عانينا -وما زلنا- من أضرار ذلك، ولم نصحُ حتى الآن من صدمة التخلّف عن ثورة التكنولوجيا، ولا ريب أننا إن عجزنا عن بلوغ ما بلغه العالم اليوم، وفاتنا الرَّكْبُ مرة أخرى فهيهات أن يُتيح لنا أعداؤنا الفرصة ولو أن نرفع رؤوسنا.

وهذا يوجب علينا أن نؤمن بالله تعالى إيمانًا قويًّا، ونوقّر سيدنا رسول الله توقيرًا عظيمًا، ونستوعب كل دقائق الإسلام الدين المبين، وأن نحيط بالحياة كلّها أيضًا؛ أي ينبغي أن نملك أفضل مراكز البحوث، وأشهر المؤسّسات العالميّة مثل "ناسا"، وأن نبني نحن المدن في الفضاء، وإلا خرجنا صفر اليدين من ساحة التوازنات الدولية، فتُولَد الأحداث العالمية وتتفاقم ضدّنا.

(٩١) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **الكلمات**، الكلمة الثالثة والعشرون، المبحث الأول، ص ٣٤٥-٣٤٦.

إن تعجّلْنا فربما أضررنا في مسألة ينبغي فيها التأني والحركة بمنهج ونظام؛ ويستحيل القول بأنّه تم إعداد أَكْفَاء في أيّة ساحة بعد.

وأشير استطرادًا إلى أنه وجبت مراجعة الفقه الإسلامي في عصرنا، وتقنينه تقنينًا يلبّي حاجات العصر، ثم تنسيقه وتنظيمه، والمؤلم أنَّه لا يمكن الحديث عن مؤهلين لهذا العمل في الكفاءة أو العدد؛ وإعدادهم يستغرقُ فترة زمنية معينة قطعًا؛ هذا وينبغي حتمًا تحميلُ الفقه كله على الحواسيب، وهذا بلا ريب يحتاج وقتًا طويلًا جدًا، فلا يكفي تحميلها؛ بل لا بد من ابتكارات آلية للاستفادة من تلك المعلومات، وأكرّر مضطرًّا أنه من المؤلم خلوّ عالمنا من هيئات قادرة على تحقيق هذا العمل كما يجب، فكما لا ننكر أنا لا نملك هيئات مؤهلة لإدارة "ناسا" ونحوها من مؤسسات البحوث الكبيرة جدًّا، وهكذا الأمر في العلوم الإسلامية لا بد أن نعترف بنقصنا في هذا المجال، ولا مبالغة في هذا ولا هو تحقير للموجود، بل هذه صورة وتقرير عن الواقع.

إن من يتطلعون لقضايا عظيمة بدون كفاءة قد يسوقون المجتمع إلى إخفاقات متوالية باسم الإسلام، وبتصرف خاطئ كهذا قد يوقعون به هزائم لا تُقاوم؛ فغالبًا يعسر استرداد ما ضيعناه من فرص في حالٍ كهذا، ولن نحقق شيئًا في أية مسألة ذات قدر بمناهج غِرَّة، وإذا لم نعدّ ونربِّ أناسًا مثل: أبي حنيفة وأبي يوسف في الفقه؛ والبخاري ومسلم في الحديث، والسيد الشريف الجرجاني والتفتازاني في علم الكلام، والإمام الغزالي والإمام الرباني والأستاذ بديع الزمان في

الأخلاق والتصوف، فإنّ القيام بأية معالجة للمجتمع خطأٌ تنتج عنه مثالب وأخطاء تعقبها نكساتٌ لا تقوم لنا بعدها قائمة.

قد يُقال: "لِمَ هذا التيئيس؟" فأقول -وسأُسأل عن ذلك أمام الله تعالى- إن ضميري مطمئنٌّ جدًّا، ومستعدّ للحساب؛ لأنها مسألة لا هَزْلَ فيها ألبتة، ولا مجاملة فيها للهازلين.

أجل، ولو أجملنا لقلنا كما نصَّ السؤال "احتضان المستقبل لا يكون إلا من مجتمع المعرفة"؛ إن الأمر كذلك؛ لأن العلم هو استيعاب ما تنطق به الأشياء والحوادث، والشعورُ بأثر الأوامر التكوينيّة وما تعرضه وتكشفه لنا، وحدسُ مقاصد الخالق السامية؛ فالمخلوقُ المؤهَّلُ للحكمِ على الأشياء يرى ويقرأ ويدرك ويتعلّم، ثم يبحث بوسائل تذلّل الحوادثَ لينظمها في كلامه، ولهذا سخّر الخالق الجليل الأشياءَ للإنسان فأذعَنت له كما أذعن الإنسان نفسه بها لخالقه، وصار عبدَه طَوعًا.

ومن الناس مَن يعتقد أن إدارة العلمِ للعالم تُفرز كوارث منها أن يغدو الإنسان آلة والمجتمع آليًّا، وهذا خطأ قطعًا؛ إذ لا يتصوّر وجود مستقبل بلا علم، كما لم يكن ماضٍ بلا علم، ذلك أن نتائج كل شيء رهنٌ بالعلم، ولا شيءَ يمكن أن يقدِّمَه العالم للإنسان بدون علم.

نعم صار الإنسان مجرّدَ آلة في بلادٍ كثيرة، فلا مشاعر إنسانية ولا صحة ولا فضائل إنسانية، كلّها اندرست، لكن من الجور تحميلُ هذا

القصور على شـمّاعة العلـوم والتكنولوجيا؛ فـوزره يعود إلى علماء تنصَّلـوا مـن تحمّل مسـؤولياتهم؛ فلو أَدّى رجال العلـم الذين وعوا المسـؤولية الاجتماعيـة ما هو منتظـر منهم، لَمَا وقعـت اليوم معظم هذه الوقائـع المقلِقة.

الربانيّون ومجالس العلم والذكر

سؤال: تقولون: "لمجالس العلم والذكر قَدْرها في خدمات الربانيّين وحياتهم"، ما معنى هذه المقولة؟

الجواب: نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الربانيّين، وأن نسير على دربهم في كلِّ ما نأتي ونذر، فتلك أفضال الله ﷻ يؤتي منها ما يشاء لمن يشاء، فلنستشفع بعجزنا وفقرنا راجين رحمته الواسعة، أي إننا إن كنا فاعلين فإنما نلتمس ثمرة الخدمة بافتقارنا لا بعلمنا وعملنا؛ اللهم ارحم عجزنا وضعفنا، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين إلى أن نلقاك.

تعلمون أن سيدنا المسيح عليه السلام بشّر بنبينا ﷺ وصحابته وسماهم "القِدّيسين"[٩٢] أي الربانيين، فالربانيون مطهَّرون، وهم من لم تدنسهم الدنيا، ولم يركعوا لها قطّ ولم تلطّخ ثيابهم بأدنى قذر وإن عمت البلوى.

ولا يلزم من هذا أنهم معصومون عن الخطإ؛ فابن آدم منذ بَدْءِ نشأتِهِ خطَّاء، فكأنه والخطأ توأم؛ والحقّ أن هذه سنّة إلهية ولن تجد

(٩٢) الماوردي: **أعلام النبوة**، ص ١٥٠.

لسنة الله تبديلًا؛ وفي هذا يقول رسولُ الله ﷺ: "**كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ**"(٩٣). أجل، كلٌّ يخطئ لكن لا بد من رفع هذا الخطإ وتخطيه كما أشار ﷺ بقوله: "**وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ**"(٩٤)؛ أي أفضل مَن يخطئ هو من يُتْبِع السيئة بتوبةٍ تمحوها.

ولا نقصد بقولنا: "مُطَهَّر" من لم يرتكب إثمًا مطلقًا؛ بل نقصد أنهم وقفوا حياتهم ونذروها ابتغاء مرضاة الحقِّ تعالى؛ فهم يعلمون كيف ينهضون إذا ما عَثَروا، ويبحثون عن سبل التقرب إليه سبحانه إذا ما ابتعدوا عنه، ويبتغون رضاه تعالى ليل نهار، ويضطلعون بكل ضروريٍّ لإعلاء كلمة الله تعالى أي ليرتفع اسم الله الجليل كَرايةٍ خفّاقة في أنحاء الأرض كافّة، ويضحّون بكلِّ شيءٍ في هذا السبيل.

قد تزلُّ أقدامهم، أو يبعدون عن مساراتهم الخاصة، لكنهم يمتازون عن غيرهم بأنهم سرعان ما ينهضون مما غلبتهم عليه أنفسهم، إنهم ما إن يزلّون هكذا حتى يقولوا مثلما قال سيدنا آدم عليه السلام: ﴿**رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا**﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ٢٣/٧)، أو مثلما قال سيدنا يونس بن متى عليه السلام: ﴿**لَا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ (سُورَةُ الأَنْبِيَاءِ: ٨٧/٢١)؛ ويفرّون من ظلم النفس إلى الحق تعالى. أجل، إن الربانيين يقدسون الله دائمًا وينزهونه، ويردون عقبى كل شيء إليه، فهم بهذا يعرفون كيف يستثمرون كل أحوالهم؛ ليستنزلوا رحمة الحقِّ تعالى لأنفسهم، ويستمطروها في أرضهم، أو قل: إنّهم

(٩٣) سنن الترمذي، القيامة، ٤٩؛ سنن ابن ماجه، الزهد، ٣٠.

(٩٤) سنن الترمذي، القيامة، ٤٩؛ سنن ابن ماجه، الزهد، ٣٠.

يقدّمون عجزهم وفقرهم وضعفهم وحاجاتهم بقولهم: "لَا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ"؛ ويدعون الله قائلًا: "إنّك أعلم بحالي، وغنيٌّ عن سؤالي، فامنن عليّ بما أنا مفتقرٌ إليه".

الربانيُّ هو أيضًا من يستمسك بالطاعة، ويفرُّ من المعصية، ويكره أن يعود في الإثم بعد إذ نجّاه الله منه كما يكره أن يُقذَف في النار، فاستبدال التوحيد بالشرك أسمى المُثُل ومنتهى الغايات لدى إنسان كهذا؛ لذا خصَّ سيدنا المسيح عليه السلام باسم "الربَّانِيّين" أمّة محمد ﷺ أقوى الأمم وآخرها، التي تُطهّر الأرض من الشرك ورجسه.

وللربانيين عهدان: أحدهما التجلي الأصلي والظهور الكلي، بدأ بسيدنا محمد ﷺ، وبلغ الذرى في فترات تَترى بمددٍ من العهد الأول فغدا دولًا ثم خلافة ترفرف رايتها على سلطنة الدول ومُلكها؛ والآخَر: أن يكون المسلمون في آخر الزمان كما بشّر به الصادق المصدوق في منزلتهم التي ينبغي أن يكونوا عليها.

وبهذا يضرب رجال البعث الثاني في آخر الزمان بسهمٍ من تسمية أمة محمد ﷺ "الربَّانِيّين"؛ فالربانيّون في العهد الأول جاؤوا إلى الدنيا فأدَّوا ما عليهم، ثم رحلوا كما قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ (سُورَةُ البَقَرَةِ: ٢/١٣٤)؛ وصلتُنا بهم أن نذكرهم بالخير، وننمّي آثارهم باستغلالها واستثمارها، والأعنى في هذا حسنُ الانتفاع من الربانية الثانية.

وإذا ذُكِـر الربّانيون، ذُكِر أربابُ حركة إحياء شـاملة حيثما حلَّت أحيَتْ كأنّها الخضر ﵇، وتنهض مجدَّدًا برؤيةٍ مثاليّة سامية كخدمة الإنسـانية والإيمان في آخر الزمان؛ حتى عَدَّ بعضُهم ظهورَ المهدي وجهًا من وجوه حركة الإحياء هذه.

ولا ريـب أنَّ رسـالات الأنبيـاء جسـدت أكبر حـركات الإحياء وأعظمهـا، وهذا ما دلّت عليه الآية الكريمة: ﴿**اسْـتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُـولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾ (سُورَةُ الأَنْفَالِ: ٨/٢٤). أجل، أجيبوا الدعوة لتُبْعَثَ فيكم من جديد الروحُ والمعنى والقلب والوجدان والحسّ والعاطفة والفكـر والمنطق... والخلاصة أنه بعثٌ في كلِّ شـيء، وبهذا يمكن القـول: إنَّ أوسـع حـركات الإحيـاء نطاقًا تجسـدت في رسـالات الأنبياء، ثم خلَفهم عليها الربّانِيّون.

وأَهَمُّ ميزة للرّبانيين هي تتبُّعُ مجالس العلم والذكر، ولمجالسهم هذه رؤيةٌ مثالية وغاية سـامية، أي إن مجالسـهم ليست عادةً، بل لها هـدفٌ وغايـة؛ فينبغي بحثها ودراسـتها بخصوصيّة أكثـر، وما ينبغي أن تُسـوَّى باجتماع الناس على مطعمٍ أو مشـربٍ في مقهى أو مسرح أو رحلة.

إنّ مجالـس العلـم والذكر رفقـةٌ يتذاكر فيها المشـاعر والأفكار قـومٌ يسـتهدفون التعمّق فيهمـا، وفي الحديـث: "**مَا اجْتَمَـعَ قَوْمٌ فِي بَيْـتٍ مِـنْ بُيُـوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُـونَهُ بَيْنَهُـمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّـكِينَةُ، وَغَشِـيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَـةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ**

فِيمَـنْ عِنْـدَهُ"(٩٥)، وفـي هـذه الرفقة تتحـد المقاصد والـرؤى دائمًا؛ فتخفق القلوب كلُّها بالقضية عينها، وبالحسّ والشعور نفسه، فتتآلف الأرواح بهذا التعارف كأنها روح واحدة: ترِدُ الانفعال نفسه، وتتنعّم وتتألم بنعيم أختها وألمها، وعلى هذا فليس من هذه الرفقة في شيءٍ اجتماعُ من يقلّون عند الفزع، ويكثرون عند الطمـع.

إذًا هيهات أن نبلـغ أفق الرفقة الحقيقية إلّا إن فدينا وطننا وغايتنا فاجتزنـا معًـا -دون أن تُضَـارَّ رفقتُنـا- معضلاتٍ عظيمةً يسـتوجب حلُّها عزمًا نبويًّا وصبرًا جميلًا، ولا يضيرنا عندئذٍ أن نسـتأنف خطّتنا ونظامنا -ولو فسَدا- كل عام سبعين مرة.

ولا بقاء لأي رفقة في الآخرة، ولا قيمة لها في الدنيا إن لم يكن لها أثرٌ في معرفة الإنسـان نفسَـه، وتكاملِه مع ذاته، وبلوغِه رضا الله تعالى، وفي سقوطه في التراب بذرةً لتنمو وتثمر في الجنة.

وفـي هـذا يقول سـيدنا رسـول الله ﷺ: "**إِذَا حُضِرَ الْمُؤْمِـنُ، أَتَتْهُ مَلَائِكَـةُ الرَّحْمَـةِ... فَيَأْتُـونَ بِـهِ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَهُمْ أَشَـدُّ فَرَحًا بِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِغَائِبِهِ يَقْدَمُ عَلَيْهِ، فَيَسْـأَلُونَهُ: مَا فَعَلَ فُلَانٌ؟ مَا فَعَلَ فُلَانٌ؟ فَيَقُولُـونَ: دَعُوهُ، فَإِنَّـهُ كَانَ فِي غَمِّ الدُّنْيَا، فَإِذَا قَـالَ: أَمَا أَتَاكُمْ؟ قَالُوا: ذُهِبَ بِهِ إِلَى أُمِّهِ الْهَاوِيَةِ**"(٩٦).

وكم جاء في الكتاب والسـنّة أنَّ اسـتمرار الرفقة في الآخرة رهنٌ بالرفقـة في الدنيـا، ويعزز هذا بإيجازٍ جامعٍ حديـثُ: "**الْمَرْءُ مَعَ مَنْ**

(٩٥) صحيح مسلم، الذكر والدعاء، ٣٨؛ سنن أبي داود، الوتر، ١٤.

(٩٦) سنن النسائي، الجنائز، ٩.

أَحَـبَّ"[٩٧] وكـذا آية: ﴿**وَمَنْ يُطِعِ اللّٰه وَالرَّسُـولَ فَأُولَئِكَ مَـعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّٰه عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا**﴾ (سُورَةُ النِّسَاءِ: ٦٩/٤).

إنَّ رفقتنـا رفقةٌ ثريَّةٌ منفتحة على أبعاد شـتى، وذاتُ معان عميقة جدًّا، أهلها ذوو شعور واحد ووجهةٍ واحدة ودعوة واحدة يتقاسمون الأشـياء نفسـها، وتتعمق رفقتهم بالبحث في الأمور الإلهية، وسـيرةِ مفخرة الإنسـانية، والتوحيدِ والتهليل والتسبيح والتحميد؛ والنصيحةُ جانبٌ حيويٌّ مهمّ جدًّا فيها؛ إنها رفقة أخرويّة لا يحول القبر دونها، ولا يفرقها الموت. أجل، لا شيء في الدنيا مطلقًا يستطيع أن يمنع رفقةً قامت على أنه: "لو كان أحدنا في الشرق والآخر في الغرب، لو كان أحدنا في الشمال والآخر في الجنوب، لو كان أحدنا في الآخرة والآخر في الدنيا، فإننا جميعًا معًا"[٩٨].

والنصـحُ والتذكيـرُ أحـدُ الأبعـاد الثريّـة الرحبـة لهـذه الرفقـة، فـالأخ يذكّـر أخاه إذا أخطأ كما نذكّر مَن يمشـي على الجليد بقولنا: "إيـاك، إيَّـاك! فأنـت على جليد قـد تزلَق به قدمك، فتقـع!"؛ لذا عُدَّ مـن ضروريـات هذه الرفقة القيامُ بما تقتضيـه الأخوة والوفاء بتذكير صديق أشـرف على الهلاك، والإمسـاك به، والحيلولة دون سـقوطه كأن نقول: "إياك، إيّاك! فزلة الدنيا قد تزل بك في الآخرة".

(٩٧) **صحيح البخاري**، الأدب، ٩٦؛ **صحيح مسلم**، البر، ١٦٥.

(٩٨) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **سيرة ذاتية**، ص ٦٧٤؛ **الملاحق**، ملحق أميرداغ -١ ص ١٦٠؛ **الشعاعات**، الشعاع الرابع عشر، ص ٥٣٥.

تحقَّـقَ هذا النوع مـن الرفقة والصداقة والأخـوة والصحبة على أكمـل وجـهٍ في عهد رسـول الله وفـي "أصحاب" رسـول الله ﷺ، إن الأخـوّة هـي الآصرة بينـه ﷺ وبين الصحابـة الكرام الذين يتنفّسـون رحابـةَ صحبته، ويسـتفيدون مما فيها من وعظٍ وإرشـاد، ويسـلكون بالذكر والفكر سـبيل التقرب إلى الله تعالى، ويدركون فلسـفة الوتيرة الأبدية للصداقة.

وفـي الكتب السـماوية القديمة إشـارات إلـى أن المواعظ ركن ركيـن مـن البعث في آخر الزمان، فمجالس ملؤُها الوعظُ والإرشـادُ لهـا قدرُهـا، لها لما لِلَقبِ "ناصح" من أهميـة لدى رجال إحياء هذه الأمة في آخر الزمان.

أجـل، لا يؤخـذ بما في الكتب القديمـة مطلقًا، بل هو محل نظر إلا إنْ عارض الكتابَ والسنةَ فتُردّ، لأنّ رسول الله ﷺ خيّرنا فقال: "**لَا تُصَدِّقُـوا أَهْـلَ الكِتَابِ وَلا تُكَذِّبُوهُمْ**، وَ﴿**قُولُوا آمَنَّا بِـاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا**﴾ (سُورَةُ البَقَرَةِ: ٢/١٣٦)"[٩٩].

---

(٩٩) صحيح البخاري، الشهادات، ٢٩.

اللطف الجبري وأبعاده

سؤال: كثيرًا ما تذكرون "اللطف الجبري" في أحاديثكم، فما هو وما أبعاده؟

الجواب: اللطف الجبريّ: النعم التي يتفضل الله تعالى بها على عبده ابتداءً ولا إرادة للعبد فيها ولا اختيار، وكلّ ما للعبد لطف جبريّ؛ ابتداءً من وجوده بعد أن لم يكن شيئًا مذكورًا، إلى خلقه إنسانًا لا حيوانًا أو نباتًا، وولادتِه سليمًا في بلد مسلم... أي يطلق اللطف الجبريّ على النعم التي لا تُحصى من ألفها إلى يائها.

أما أبعاد اللطف الجبري فالإيمان رأسها، فلنُعنَ به، إنه فضل الله على الناس؛ فهو لطفٌ جبريٌّ وعناية إلهية، فلنبحث فيه في ضوء هذا؛ ويبرهن على ذلك أننا قد نرى من يقول "لا إله إلّا الله" في ظلّ الكنيسة، كما نجد عند المسجد من يقول "بلغتُ السبعين وأنا ملحد، فلن أقول بعد هذا كله إنني مؤمن"، أو "لو شختُ وخرفتُ، وقلت في الإيمان قولًا، فحذارِ أن تصدقوها أو تأخذوا بها".

قلنا بدايةً إن الإيمان رأسُ اللطف الجبريّ. نعم، تأمّلوا من حولكم، فكم من عاقلٍ يطوّف في الشوارع على غير هدًى، وكم من أشياء حرَمَهم منها زيغُهم السابق، ورؤيتهم وتقديرهم الخاطئ

للمسألة، بل احدودبت ظهورهم من ذلك وما اعتدلت، وعجزوا عن رؤية الحق، بل تعذرت عليهم رؤيته؛ ما أصعبَ أن يعتنق الإسلامَ من قضوا أعمارهم في أوهامٍ وفلسفات خاطئة؛ فتشدّقوا بماركس ولينين وإنجلز وماو، لا سيما الروّاد، ما أصعب أن يقولوا لجماهيرهم بعد أن أبعدوا النُّجعةَ في مسارات متعرِّجة: "قضينا أعمارنا في وهمٍ، وضللنا فيما وجّهناكم إليه".

لقد عجز من هم أعقلُ منّا عن العثور على جادّة الإيمان الصحيحة، وتخبطوا في أودية الحيرة والغفلة؛ لذا ينبغي أن نبحث اهتداءنا إلى الإيمان في ضوء اللطف الجبري؛ فأرواحنا قرابينُ لربٍّ يعرجُ بنا إلى هذه القمم الشامخة.

ومن اللطف الجبريّ أننا تعرَّفنا على منهج يرشدنا إلى غاية علوية سامية وهي إعلاء كلمة الله وتبليغها إلى القلوب بطريقة وسطية توحّد أفراد المجتمع كافةً، وهذا المنهج اقترح على عالمنا الفكري أسسًا أزالت من دائرة اهتمامنا التعصب والتطرف، ولطالما ذكَّرنا وأكَّدَ أنّ علينا أن نتقبّل كل من يقوم بالخدمة أيًّا كان، ومهما كان، وأن نقف له إجلالًا وإكبارًا، ولا نقدح فيه ألبتة، وأن نقدر قدر كل من يخدم الدين مثل المشايخ العظام في بلادنا أمثال الشيخ سليمان أفندي، والشيخ سامي أفندي، والشيخ أسعد أفندي، والشيخ محمد أفندي، والشيخ محمود راشد أفندي، والشيخ الحاج خلوصي أفندي...(١٠٠)

(١٠٠) مشايخ أكبر الجماعات الدينية والطرق الصوفية في تركيا.

أجـل، لطالمـا ذكَّر هذا المنهج وأكَّد أنّ علينـا أن نبتهج بأعمال البر والنجاح لهؤلاء العظام الذين نسجوا المشاعر الإسلامية والفكر الإسلامي على منوال الإسلام في العالم كلّه، وأن نحيّيهم أيضًا.

أجل، إنّ الإسـلام نظامٌ إلهي يسـتوعب النـاس جميعًا، ويقبلهم بخصائصهـم كلّهـا: بمشـاربهم وأذواقهـم ومذاهبهـم وأحاسيسـهم ومشاعرهم...، ونحن من نجمّد هذا النظام، ونقدّمه صلدًا صُلبًا نحن مَن ضيَّقنا واسعًا وقلَّصْناه، وصغّرناه حتى وهِمَ بعض الناس أنه دينٌ لا يعترف للآخرين بحقِّ الحياة.

هـذا الفهـم العقيم والأفق الضيق أفـرز تصرفاتٍ غدت منذ زمن بعيـدٍ عائقًا عن فهم الإسـلام الرحيب الفسـيح، وزَجّت بآخرين في مخاوف عدّة.

ولهـذا نماذج شـتّى يغَصُّ بهـا تاريخُنا القريب، وإليهـا مردُّ جلِّ مخـاوف الآخرين منـا؛ إذًا أليس من واجبنـا أن نمنـع تجدُّدَ حدوث شـيء كهذا في عصر أُثيرت فيه العواصف والزوابـع، واتحد الأعداء في الداخل والخارج تحدوهم رغبة في الحكم على المؤمنين بالعدم والفنـاء؛ إننـا نحتاجُ اليوم أكثر مـن أيِّ وقت مضى لأن نطبق نصيحة بديـع الزمان في هذا الخصوص.

وللطفِ الجبريِّ بُعْدٌ آخَر يُبحث هنا، وهو: تجسيد الروحِ والفكرِ اللذين تمثَّلا في سـيدنا الحسـن بن علي رضي الله عنهما[١٠١]. أجل، قد تُدْرَأ في

(١٠١) إشارة إلى تنازل سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما عن الخلافة درءًا لنشوب نار الفتنة بين المسلمين.

القريب العاجل فتن كثيرة عند التزاحم على المنافع والمصالح باستغناء فدائيين يؤثرون على أنفسهم، ويجسدون الروح الحَسَني؛ ففي مناخ النضال تدافُعًا على المنافع ترى الواحد منهم يدفع كلَّ شيء بظهر يده، ويمضي حياته في عزلة عن الدينا قائلًا: "لا حاجة لي بهذا".

هذا الاعتقاد وهذا الفكر لطف وتفضيلٌ إلهيّ ينفع مجتمعنا؛ فقد قطع الفدائيون أنهم لن ينازعوا مسلمًا أيًّا كان السبب، ودستور حِراكهم: "لا حقَّ لمن يثير الشحناء في زماننا حتى وإن كان محقًّا"، وإذا مرّوا بمن يثيرون الشحناء مرّوا كِرامًا.

وأجلّ أبعاد اللطف الجبري ألا تكون لنا إرادةٌ في هذه النعم وأوجه الإحسان الغفيرة التي منّ بها ربنا علينا؛ والإرادة في أهمِّ المسائل شرطٌ عادي لا غير، ويمتنع أن يقال إن لإرادتنا تأثيرًا في هذه النعم.

لقد كرَّمَنا اللهُ بأن خلقنا من بني آدم: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا﴾ (سُورَةُ الإِسْرَاءِ: ١٧/٧٠)، وليس هذا فحسب، بل خَلقَنا في مناخٍ يسمو بالإنسان إلى درجة "الإنسان الكامل"، وأحسن إلينا بألطاف خاصة، أي إنّه منحَنا العواملَ والقواعدَ التي سترفعنا إلى هذه الآفاق السامية، ولا شك أن هذا كله إحسانٌ ولطفٌ لا تطوله إرادتنا.

إذًا علـى الإنسـان أن يعدّ هذه النعم أمانـةً قيمةً أودعت عنده، لا كمن صادفها في الطريق، ثم ليبذلْ وُسـعه لتسـتمر وتدوم، فعلى من حظي بنعمة أن يحيطها بوعي وشعور خاصّ، وأن يحافظ عليها، وأن يُعنَى بها أيّما عناية كيلا تضيـع.

أجل، لا بد من معرفة قدر هذا كلّه وقيمته، ولا بد من مقابلة نعم الله الغفيرة بالشُّكر.

قوة الإيمان

سؤال: كيف نوفَّقُ إلى خِدمة الإسلامِ مع ما يُناصَبُهُ من عداءٍ عالميّ، وما هو طريق الكفاح؟

الجواب: إن الظروف الحالية تجعل للنضال والكفاح معنى آخر، ومستندنا في هذا فهم بديع الزمان نفسه، يقول: "الظهور على المدنيّين إنما هو بالإقناع لا بالضغط والإجبار"[١٠٢]؛ إذًا نتوقع أن تُسْتَثمر الأرضية الديمقراطية القائمة والحقوق والحريات الديمقراطية، ويختارَ الناسُ الإسلام بمحض إرادتهم مثلما اختاره سادتنا خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعثمان بن طلحة رضي الله عنهم، ويقيننا أن هذا الطريق هو الأسلم والأَدْوَم.

أما عن القسم الأول من السؤال فإن الله الذي أخرج الأشجار السامقة من نواة صغيرة، ينشر رحمته ودعوته القدسية في أنحاء المعمورة كلّها مستخدمًا وسائل بسيطة جدًّا، وإن في قولنا "وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" بعد الصلوات الخمس إعلانٌ بأن قدرته وسعت

(١٠٢) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **سيرة ذاتية**، الحياة الأولى، ص ١١٦.

كل شـيء، ولا شـكّ في هذا ولو مقدار ذرة؛ فلنكف عن الكلام في المسلَّمات.

أجـل، علـى هذا الفهـم تربينا، ولما قيل لواحد مـن أهل القلب: "اُذكُـر الله" قال: "وهل نسـيته لأذكره؟!"، وقد قرّرْنا بدايةً أن مسـألتنا هكذا.

أجـل، إنَّ لنـا أفقًـا فكريًـا: "إننا فدائيّـو المحبة، ولا وقـت لدينا للخصومـة"[١٠٣]؛ لا ذِكْـرَ فـي أحاديثنـا لجرحـى أو قتلـى السـيوف والخنجر والقوس المشـدود والسـهم المرسـل، وإنمـا نتحدث عن البعث والإحياء كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُـمْ لِمَـا يُحْيِيكُـمْ﴾ (سُـورَةُ الأَنْفَـالِ: ٢٤/٨)، وندعـو النـاس إلى الله ورسوله، ونقول: "من استجاب لهذه الدعوة فلن تحيي موَاتَ جسمه فحسب، بل ستحيي وتخلّد موات القلب والروح أيضًا".

(١٠٣) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **سيرة ذاتية**، الحياة الأولى، ص ٥٤.

فداءً للحق

سؤال: تقولون: "لا أحلُم بأن أكون فردًا في الماضي المجيد ولا المستقبلِ المشرق، بل ليتني فردٌ ممن نذروا أنفسهم للحقِّ اليومَ".

الجواب: كيف لا نشتاق إلى تاريخنا المجيد، ولا نتمنى أن نكون من صغار جنوده؟ عندما نذكر ونذاكر التاريخ العظيم ما منّا من أحد إلا ويهرول تلقائيًّا نحوه، فهذا أحد شعرائنا الأقدمين المحدثين الذين كانوا صدًى صادقًا لعصرهم، بل لعله أجلهم محمد عاكف ﵀، يقول وقد طالته كوارث أيّامنا:

كبومٍ على الطَّلَلِ غدوتُ أنوح
فبلادي جنةٌ خريفها يلوح
ولو علمتُ ربيعَه لكنت بلبلَهْ
ليتني وُلدتُ قبل هذا أي أوَّلهْ!

وبينما نرى المستقبل المشرق الذي نرتقبه مفعمًا بالأمل كما وعد النبيّ ورأى الولي وبشَّر الحمام الزَّاجل، نرغب أن نسارع دومًا إلى المستقبل لنتخلص من أمورٍ راهنة كثيرةٍ نتشاءم منها.

ولنا أنْ نسـمِّيَ هذا النمط من التفكيـر "نهج الحنين"، أو اللجوء إلى الماضي أو المسـتقبل بالتمرّد على إفلاس هذه المرحلة السؤوم كما يتمرّد الفنان والرسام والشاعر على كل ما هو مألوف.

أجـل، إننـا جميعًا تُلِـمُّ بنا أحيانًا خواطر كهذه؛ بـل قد يردُنا منها ما ليس من شـأننا، وقد يبدو بعضها مساومةً لله سبحانه، لكننا نسارع بإخلاصنـا وصدقنـا لنصحّـح فهمَنا الخاطـئ، ونسـتغفر الله قائلين: "نسـتغفرك اللهم ربنا، فهذا أمر لا يعنينا، ما شـأننا وهذا؟ إنْ علينا إلّا أن نقوم بما كلّفْتنا، ونكفّ عمّا هو من شأن الربوبية"، ومهما بلغنا في الاستقامة والثبات فقد تشتطّ بنا الخواطر والخيال بل قد تزيـغُ قلوبنا نحو تلك التصورات الممسـوخة الزائغة، وأُذكِّرُ أن هذا ليس ذنبًا لا يُغفر كزيـغ القلب عن الإيمان، بل سيئةٌ غير مقصودة.

إن تاريخنا المجيد نستحسنه نحن وغيرنا كذلك، وهكذا سيكون مستقبلنا إن شاء الله على يد براعم ذلك الأصل المجيد.

ورغـم كل هـذا أفضّلُ -أنـا القطمير- أن أكون مـن عامّة الناس أقوم بالخدمة في يومنا هذا على أن أكون واحدًا من عظماء الماضي أو مِن رجال المسـتقبل حَمَلَةِ هذا الأمر على أعلى مسـتوى؛ وذلك لأمور:

١- ستفرز نجاحات المستقبل وعطاءاتُه الغيبةَ والحسدَ والبغضَ، وسـتكون غنائـمُ تقتضي الضرورة قسـمتَها، ويطغى حـبُّ المنصب والجـاه علـى القلوب وتشـتد الأطماع، والأحقـاد والأضغان، كيف

أعرف هذا؟ أعرفه لأن هذه الأشياء كامنةٌ في طبائع البشر، والتاريخ شاهد على أن الناس في مرحلة الرخاء والسعادة التي أعقبت فترات المعاناة والألم لم يتمكنوا ألبتة من الحفاظ على صفائهم وإخلاصهم الأول؛ فمن كانوا يجاهدون بالأمس في صف واحد تنازعوا في هذه الفترة من أجل المنفعة والمنصب، وبدّدوا في مرحلة الراحة والدعة كل ما كسبوه في وقت الشدة كما تذرو الرياحُ الهشيمَ؛ والحقُّ أني لا أودّ أن أعيش بعد مرحلة الخدمة مرحلةَ الفوضى والانهيار والدمار.

أسأل الله أن يستعملنا في الخدمة؛ وليقتسم الثمرة مَن يقتسم، فهذا الأمر ليس مُهمًّا ألبتة، ونسأله أن يُسعد إنسانَنَا، ويُنعِمَه بالطمأنينة، وليفعلوا بنا ما يشاؤون، فليجعلونا عمّالًا كادحين إن أرادوا أو فلينفونا، فهما سيان؛ سنعتزل في أعالي الجبال، ونقضي حياتنا زهادًا؛ ومن هذه الزاوية قلت: "أفضّلُ أن أكون من عامّة الناس أخدم في يومنا هذا على أن أكون من رجال تاريخنا أو مستقبلنا".

٢- نحن أبناء اليوم، ولا يمكن أن نكون من الماضي ولا من المستقبل، والذي ينبغي هو أن نستثمر يومنا استثمارًا كاملًا، فلن نعد الماضي أسطورةً ولا المستقبل خيالًا؛ وليس الماضي "مقبرةً كبرى"، ولا المستقبل مملكةَ غيلان؛ وإنّ الإعداد لمستقبلٍ يوازي تاريخنا المجيد رهنٌ بالاستفادة الجيدة من يومنا، ومن هذا المنطلق لك أن تقول: من شغلته الخدمة فحسب في يومنا، ونام وقام عليها، ولا يشغل قلبه سواها، فذلك خيرٌ له من أن يكون من السلاطين والملوك، بل حتى الأولياء والأقطاب والأغواث في تاريخنا.

٣- قد يسـيطر الفخر والغـرور -عافانا الله- على مَن خدم الدين في مرحلةٍ وأسـهم فيها؛ وبهذا يَذهب أجره وثوابه؛ فيا حبّذا الرحيل عن هذه الدنيا قبيل نجاح المسـلمين بهنيهات. أجل، ذلك هو وقت دعوة وتمنّي اللحاق بالرفيق الأعلى.

لهذا كلِّه قلتُ وأقول: "أفضّلُ أن أكون مِن عامّة مَنْ نذروا أنفسهم لله في يومنا هذا على أن أكون من رجال تاريخنا أو مستقبلنا"، والحقّ أنـي عاجـز عن معرفـة حقيقة هذه الخاطـرة ولا أدري أهـي خاطِرةٌ وفكـرة شـيطانية أم رحمانية؟ فالنفـس خدّاعة جدًّا، والشـيطان يزيّن للإنسان عمله، وقد تكون فكرة كهذه من تزيينه؛ والله أعلم بالصواب.

الفصل الخامس

النوازل

المذابح العصريّة

سؤال: يُقتّلُ المسلمون في البوسنة والهرسك، وفي قراباغ وأنحاء أخرى من العالم، وكأننا مُكبّلون بالأغلال لا نقدر أن نفعل لهم شيئًا مطلقًا، وهذه الحال مجلبة لليأس، فماذا علينا أن نفعل؟(١٠٤).

الجواب: تذكروا ما قيل: "وهل تخلى البشر في أي فترة من التاريخ عن قتل إخوانهم وظلمهم!؟"... لقد طُرِقَ هذا الموضوع من وجوه أخرى أمثال "جلال نوري" و"بشير فؤاد" و"توفيق فكرت"، والحقيقة أن الظلم ما زال قائمًا حتى اليوم، فالجور مستمر، وما تبسمت الدنيا قط، ولا توقفت شلالات الدماء، وما فتئت الأمم تقتل بعضها.

تذكرون أن أربعين مليونًا قُتلوا في الحرب العالمية الثانية، حتى هُرِع إلى الكنيسة ذعرًا من هذه القيامة الحمراء الناسُ جميعًا وفيهم دهريّون وملحدون ينكرون وجود الله سبحانه، ويُقال: إن ثمانين ألفًا قتلتهم القنبلة الذرية في "هيروشيما" بادئ الأمر، اختُرعت هذه القنبلة وأختها الهيدروجينية، ثم وقعت بأيدي وحوش العصر فارتُكبت جرائم تتوارى منها خجلًا حتى وحوش الغابات.

---

(١٠٤) جمعت من حديث أُلقي في شهر سبتمبر/أيلول (١٩٩٢م).

ومنَّا نحن المسلمين قُتِلَ في حرب البلقان وحدَها أكثر مِن قتلى حرب البوسنة والهرسك، ومن يدري كم أُزهقت أرواح نيّرة الوجوه ورجالٌ من صلب رجال في جبهات أخرى.

لقد كشفت هذه المذابح الوجه الحقيقي للأنظمة والأيديولوجيات المقدمة للبشرية مغلفةً بشعارات الحضارة والإنسانية. أجل، لم يتخلّ الغرب قطُّ عن الكيل بمكيالين؛ فعامَل المسلمين غير معاملة اليهود والنصارى.

ونشاهد اليوم نحن والعالمُ أجمع أكاذيبَ بعض القوى الكبرى تتردّد مرةً أخرى، فما رأينا منها عونًا للبوسنة والهرسك ولا بيانًا شافيًا عن الشهداء ولا تنديدًا بخطف الأيتام ولا بالسعي الحثيث لتنصيرهم، بينما رأينا على حدود "كرواتيا" أربعة عشر ألف جندي من الأمم المتحدة لحمايتها.

ولعلَّ هذه الحوادثَ تثير الحميّة الملّية والدِّينية لدى المسلمين، فتدفعهم للتحرك، فهذا الاعتداء والتسلُّط ومظاهر الأسر والمظالم حولنا ربما تُزلزل ضمائر المسلمين، وتُوقظُ من "يسيرون نيامًا" منهم ليقولوا: "كَفَاكُم كُفُّوا عن ذلك"؛ ولو أدت هذه الحوادث إلى نتيجة كتلك، فأيقظت الضمير المجتمعي، لقيل إنها نافعة من حيث هذه النتيجة وإن استُقبح ظاهرها؛ ذلك أنّ مَن يموتون في سبيل دينهم وعقيدتهم شهداء حقًّا، وسيذوق القتلة ما يجزيهم من العذاب، ولا شك في هذا ولو مثقال ذرة؛ فمن يُقتلون ظلمًا واضطهادًا يفوزون

بالشهادة والجنة، ويصحو بشهادتهم مِن خلفهم ثُمَالى بالفكر الغربي منذ سنين، فإذا خسرنا مرةً اليوم، فسنربح أضعافًا مضاعفةً غدًا.

أجل، إن الإنسان والثقافة صِمَام الأمان للسير السويّ للنظام، وهو ما ستنجح فيه أجيالٌ مُشبعة بوعي الواجب، ولم تتكالب على المنصب والجاه، وانصهرت بثقافاتها القومية، وتُجلّ الله في أدبٍ جمٍّ قائلةً: "علينا أداء الواجب فحسب، ولا شأنَ لنا بشؤون الله".

ما ينبغي أن نقنط، فنحن أمة ليست كجيل الخمسينات، إننا اليوم طاقة نورٍ للعالم كله لا قائمين بالبعث فحسب، وهذا الأمر كلّما لاح لبعضهم هاج وماج، إننا أصبحنا في واقعٍ جديد، فلماذا نيأسُ نحن، دعوهم يتقلبوا هم في غياهب اليأس والقنوط.

ولأجل ذلك يثير الغربُ الاضطرابات تِبَاعًا في العالم الإسلامي: البوسنة والهرسك وحزب العمال الكردستاني وقبرص وقضية المياه والأرمن وقضية فلسطين وكشمير وغيرها... إلخ. أجل، إنهم يخططون لهذه الأمور كلِّها، ويثيرون الاضطرابات تِبَاعًا قائلين: "لو نهضوا من هذه سقطوا في غيرها، وإن قاموا من غيرها وقعوا في أخرى وهكذا دواليك".

ولا ينبغي لنا تعليق أعمالنا وتصرفاتنا على النتيجة مطلقًا، ولا النضال في سبيلها؛ فهي ليست من شأننا، وربما يجرُّ التفكير فيها إلى أمورٍ معوجة، وإلى الوقاحة وسوء الأدب وكأننا نساوم الله، ونحن

أبعد ما نكون عن هذا، يقول ربُّنا تبارك وتعالى في حديث قدسي: "**لَا تَشْغَلُوا أَنْفُسَكُمْ بِالدُّعَاءِ عَلَى الْمُلُوكِ، وَلَكِنِ اشْتَغِلُوا بِالذِّكْرِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَيَّ أَكْفِكُمْ مُلُوكَكَمْ**"(١٠٥).

والحاصل: لا بد أن يكون هدفُنا الأولُ والأعلى هو السعيَ لإعلاء كلمة الله العظمى وإن ببذل الْمُهَج، لا القنوط والتحزُّن عند وقوع النوازل حولنا.

(١٠٥) الطبراني: **المعجم الأوسط**، ٩/٩؛ أبو نعيم: **حلية الأولياء**، ٣٨٨/٢.

الحرب المتوقعة بين أمريكا واليابان

سؤال: من علماء الاجتماع اليوم من يجزم أن الحرب بين أمريكا واليابان واقعة، ودليلهم التنافس الاقتصادي، فما رأيكم؟[١٠٦]

الجواب: أنا أستبعد حربًا كهذه، ولا أزعم أنها مستحيلة، فلا أحد يعلم كيف تتجلّى المشيئةُ الإلهية، فينبغي التوازن في الحديث، لا سيما أمور المستقبل، فمن المفيد ترك باب الاحتمالات مفتوحًا ولو كنتَ متيقنًا مما تقول.

أما الحرب الأمريكية اليابانية فهي كالمستحيل لدى الطرفين؛ ولكن أترك باب الاحتمالات مفتوحًا، والدليل على أنها ليست واقعةً الآن أمور:

١- كبّد اليابانيون الأسطول الأمريكي خسارةً فادحةً عندما هجموا على القاعدة البحرية الأمريكية "بيرل هاربر (*Pearl Harbor*)"عام ١٩٤١م، وشجعهم على هذا انتصارات الحروب السابقة؛ لقد أكسبتهم مشاركتهم لإنجلترا في الحرب العالمية الأولى بعض

(١٠٦) جمع من حديث جرى في شهر أكتوبر/تشرين الأول عام (١٩٩٣م).

المواقــع، وانتصـروا في الحرب البحرية علـى الروس، فعززت هذه الانتصـارات المتتالية ثقةَ اليابانيين بأنفسـهم أكثر مما ينبغي، فهددوا أمريكا التي لـم يكن لها كيانٌ مَهيب يومئذ.

إن اختيـار اليابانييـن لوقـت الهجـوم ذكيّ ومناسـب جـدًّا؛ لأن المنـاخ يومئـذ كان ملائمًـا جـدًّا للـدول التي تريـد أن تبلـغ مكانةً ما سريعًا؛ فالعالم كان يغلي بالحرب العالمية الثانية التي اندلعت عام ١٩٣٩م، ومعظـم الـدول العظمـى في أزمة، وحلَّتْ بألمانيا وفرنسـا وإنجلترا وإيطاليا كوارث حالت دون رؤية غيرها؛ فقد تلطخت الدنيا بالدماء وشـغلت كل دولة بالبحث عـن مخرج من هذه الكارثة بأقلّ الخسائر، أما اليابان فقد كانت قويّة نسبيًّا، فأقدمت على هذا الحدث التاريخي حين وجدت المناخ مناسبًا.

كان هـذا هـو الحدّ الفاصل بين الوجود والفناء، ولو أنّ اليابانيين واصلـوا انتصاراتهم لتغيَّـرَ حالهم اليوم جذريًّا، غير أنهم استسـلموا تمامًـا لـمّا ألقت الطائرات الأمريكية القنابل النووية على هيروشـيما وناجزاكي عام ١٩٤٥م، إذ اسـتمرت الحرب ثلاث سـنوات أو أربعًا فأنهكتهم وسـلبتهم بعض قوتهم، وعجّلَ في استسـلامهم هذا تدمير هـذه الضربـة للمدينتين ومقتلُ ما يقرب مائة ألـف دفعةً واحدة، لقد اختـاروا الوقـت الصحيـح لتنفيذ الخطـة التي اسـتهدفوا النصر بها، لكنّهـم أخطؤوا التقديـر، فأقعدَتْهم الهزيمة وكانـوا يتوقعون النصر؛ فاستسلموا دون قيد أو شرط.

وظنّوا أنهم سيهزمون أمريكا، لا سيما أن علاقتهم بها يومئذ ليست بذاك، ولم تكن قوة أمريكا كما هي اليوم، فخاب فأل اليابان، وهذا ما دفعها لتكون أكثر حيطة وحذرًا في المراحل المقبلة.

وأما في المنطق العسكري فأخطأت اليابان بهذا الهجوم؛ لأن المهاجم لا بد أن يكون أقوى من خصمه بضعة أضعاف على الأقل، وهي ليست كذلك الآن كما السابق.

وهيئة أركان الحرب اليابانية خطّأت يومئذ هجومًا كهذا ولم ترغب فيه، وشبهت أمريكا بأسدٍ رابضٍ في عرينه، وقالت: "لقد هيجتم الأسد الرابض، واستدعيتموه نحوكم" ولا شك أن التقييم والدراسة العسكرية للأحداث أمرٌ مهم، غير أن الحكومة اليابانية ما أدركت هذا الأمر يومئذٍ إلا بعد تجربة.

٢- بين أمريكا واليابان تعاون اليوم، واقتعدت اليابان كرسيًّا بجانب أمريكا في دراسات الفضاء، وتسعى أمريكا للاستفادة القصوى من طاقات اليابان وخبرائها الفنيين ومهاراتهم للرقي بالتكنولوجيا إلى آفاق أخرى؛ فما دامت الدراسات المشتركة قائمةً، وليس من باعثٍ على التوترِ حقيقيٍّ مؤثرٍ فلن تجنحا إليه. أجل، إن المصلحة المشتركة عامل سِلْمٍ مهمّ جدًّا في العلاقات الدولية، ولن تغفل اليابان وأمريكا هذا الأمر.

٣- مهما تقدّمت اليابان فنيًّا في بعض المجالات، فهي متأخرة عن أمريكا في الصناعة الحربية والخبرة العسكرية، والحال أن الخبرة

الحربية ميدانها الممارسة، لا المناورات، وما تعلم العثمانيون فنون الحرب إلا بخوضها، فقد قاوموا بقوة وشدّة صغار الولاة البيزنطيين أوّلًا، ثم وسعوا عملهم تدريجيًّا؛ فتصدوا لبيزنطة، ثم بلغوا أواسط أوروبا، ومردُّ هذه الانتصارات عسكريًّا إلى خبرة العثمانيين في الجبهات.

والجنود الأمريكيون كذلك، خَبَرُوا الحرب بخوضها، وهذا لا يعني تصويب ما وقع ألبتة، ولكن تقريرًا للواقع نقول: إن لدى أمريكا اليوم أكثر جيوش العالم خبرة؛ لأنها خاضت حروبًا متتاليةً منذ زمن طويل: في فيتنام وكوريا وكوبا وأمريكا الجنوبية والعراق ثم الصومال... أجل، فهذه الساحات كانت ميدانًا للتطبيق العسكري، وهيئةُ الأركان الأمريكية تطرح إستراتيجيات حربيّة باستمرار، وهذه نتيجة حتمية لأن رحى الحرب عندها لا تتوقف.

ومثل هذا البحث العميق ميزة لأمريكا قطعًا، فعلى الكل -ومنهم اليابان- ألا يغفلوا هذه الميزة؛ ومهما تقدمت اليابان في مجالات أخرى لكن واقعها أضعف من أن ينافس أمريكا عددًا وعُدّةً، فعلى من يُلوّح بالحرب ولو كانت اليابان -وهو أراه بعيدًا- أن يقيّم الواقع جملةً، ولا أظنّ أن الخبراء العسكريين اليابانيين سيسمحون بمغامرة كهذه ضدّ أمريكا.

٤- إنّ أمريكا ترغب بجذب اليابان إليها لأجل مصالحها، واتخاذها مخفرًا لتتفادى مواجهة اليابانيين، وهو أمر لا بُدّ منه لمواجهة الصين ودول المحيط الهادئ المستاءة الكارهة لها، وتشير

معلومات زوّار الصين إلى أن المئات بل الآلاف من رجال الأعمال والصناعة الأمريكيين يعملون بهمّة في بكين الآن؛ وستنزع الصين لباس الشيوعية قريبًا وتقذفه بعيدًا، وستتغير كثيرًا تغيرًا قد يقترن بفوضى واضطرابات، وحينذاك ستفضل أمريكا العمل مع البديل؛ فهي لا تثق في الصين ثقةً تامَّة، وتُبقي اليابان احتياطًا، تستخدمها في مواضع إذا آن أوانها، وهذا حال الدول التي هي مخفر لأمريكا مثل إسرائيل، وكوبا، ومصر، وسوريا، وتركيا أيضًا؛ فما أبعد القول بأن أمريكا ستواجه اليابان التي رشحتها لتكون مخفرها بالمحيط الهادئ.

٥- وفي آخر هذا التقييم نرى فائدةً في إيضاح الآتي:

لو اتفقت اليابان مع الصين أو غيرها من دول المحيط الهادئ، وقويت صناعتها الحربية، وضربت البورصة الأمريكية، فربما تتذرع أمريكا بهذا لمهاجمة اليابان، ولا بد لمحاولةٍ كهذه من مسوغات قوية مقنعة جدًّا، وأي هجوم لا يعتمد على حجة مقنعة سينزع عن أمريكا الثقة التي تتضاءل يومًا بعد يوم، وهي لا ترغب قطعًا في مواجهة دول العالم أجمع؛ لأنّ في ذلك نهايتها.

ملخّص القول: إن نشوبَ حربٍ كهذه دون سبب وجودي باعث عليها مغامرة لكل من اليابان وأمريكا، ولن تجد دولة حكيمة تُقْدِمَ على مغامرة كهذه مجهولة العواقب ألبتة؛ فيُستبعد بل كأنه يستحيل احتمال الحرب بين أمريكا واليابان؛ والله أعلم، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

دلالات الكوارث السماوية

سؤال: هل الكوارث السماوية والأرضية مقدمات لكوارث أكبر -عافانا الله- أم قِلاعٌ دونها؟

الجواب: قبل الجواب لنتأمل مسائل مثل: ما المصيبة، وما مفهومها عند الناس، وكيف يجب أن ننظر إليها؟

الحقُّ أنَّه لا أحدَ يُدرك ما للمصيبة من دلالات سوى المؤمنين سواء أكانت هذه المصيبة حرقًا أم غرقًا أم زلزالًا أم هيلانًا؛ فالمصائب لا تُنذر من يهوي في أودية الإنكار والكفر والضلال والغفلة، ويعيش في دركات مثل التي قال الله عنها ﴿**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ**﴾ (سُورَةُ البَقَرَةِ: ٢/١٧١)؛ ويشير الرسول ﷺ إلى هذه المسألة المهمة بقوله: "**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خيرٌ، وَلَيسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خيرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خيرًا لَهُ**"(١٠٧).

إذًا ليس في الزلزال أو الحريق أو السيل أو الإرهاب دلالةٌ عند الصمّ البكم العُمي، وإن كانت له دلالات كثيرة عند المؤمنين.

(١٠٧) صحيح مسلم، الزهد، ٦٤.

هذه حقيقة جليّة، يليها الجواب عن السؤال من وجوه:

١- للمصائب السماويّة والأرضية أسبابٌ ومقدماتٌ لا بدّ لفهمها وإدراكها من معرفة "تأويل الأحاديث" إلى حدٍّ ما. نعم، ثمّة من خصّها بتفسير الرؤى، ونرى أن لها معنى آخر يتجلّى في فقهنا لحركة الكون وأحداثه، أي إن "تأويل الأحاديث" هو: فقهٌ ذو وجوه لدلالات حركة الكون وأحداثه على وجود الحق تعالى ووحدانيته، والمضيّ في تأمّلها في أفق "هَلْ مِنْ مَزِيد؟" تأملًا يزيد الإيمان بالله اطّرادًا، وتتحقق به "معرفة الله" ثم "محبة الله" ثم "السير إلى الله" مرورًا باللذة الروحية وفقًا المعنى الصوفي.

وفي ضوء هذا تتضح أهمّيّة إدراك الإنذار الإلهي في المصائب الحادثة؛ وهذا الإدراك مِنْ تأويل الأحاديث؛ فالفقه الإيماني للكون وأحداثه يدلُّك أن كل مصيبة في بلدةٍ من حرق وسيلٍ وهَيلَان وانفجار وغيرها إنذارٌ لأهلها، فظاهرها مصيبة وباطنها رحمة لنا، فمهما بدت أنها شرّ في ظاهرها إلّا أنّها خيرٌ في حقيقتها ونتيجتها، ولا يتأتّى لكل امرئٍ إدراكها وفقهها.

قد يقع زلزال بقوة ثلاث درجات بمقياس "ريختر"، فيتذكر كثيرون ربهم؛ فيتوجهون إلى الله مسبِّبِ الأسباب وقد سكنت الأسباب كلها، ثم يتوجّهون بعدئذٍ توجّهًا يتجلى به "سرّ الأحدية" في "نور التوحيد"، وبهذا يصبحون جميعًا في اتصالٍ مع الله، يكلمونه بلا وسيط، وقد يغدو امرؤٌ وليًّا باتصالٍ كهذا وإن كان كلمح البصر، بل قد يُنزِله الجنة.

وقد يحمل الزلزال الشعبَ وكبار رجال الدولة على أمورٍ مهمّة في الحياة كأن يُجْروا تعديلات إدارية متنوّعة لإنهاء فوضى العُمْران إحدى أكبر مشكلاتنا اليوم، ويُعِدُّوا إحصائية دقيقة للعشوائيات.

فعندما يقع زلزال كهذا قد تتصدع مبانٍ وتتكسر نوافذ وتُخرّب أشياء وحتى تحدث وَفَيَاتٌ... مع هذا كله قد يكون الزلزال محض خيرٍ لنا على نحو ما ذكرنا من نتائج آنفًا، أو هو شرٌّ قليلٌ فتحَ الأبوابَ لخير كثير.

وتحلّ كارثةُ السيل بمكان ما، فتكون عقابًا لمن حقّ عليهم العذاب، ومن مات من غيرهم فهو شهيد، وما فُقِدَ من مالٍ فهو صدقة، علاوةً على أن كثيرين يتوجّهون إلى ربهم رهبةً وخشيةً، ويبلغون درجة "القرب" منه سبحانه؛ بل أظن أن درجةً كهذه لا يمكن أن تُنال ولو بصلاة ألف ركعة في اليوم الواحد.

ومن النتائج الحميدة للسيول أن يقوم المهندسون بدراسة التربة لمنع الهَيلان، ويحتاط الخبراء والأكاديميون في هذا، وترعى المنظمات التطوعية والمسؤولون هذا العمل؛ وهذا كلّه خيرٌ محض.

٢- ما ينبغي أن يتسلل إلينا أيُّ تشاؤم من تلك الكوارث، فهي تحذيرٌ إلهي، ونتائجها أو مظاهرها الملكوتية -وإن كانت مصيبةً- خيرٌ، فحقيقتها تجلّيات رحيمة وإنذارات إلهية، فقد يبتليك الله تعالى بشوكة في قدمك؛ فيحملك هذا على الحيطة والحذر من شوكات أكثر وأكبر.

ناهيك أنه ما من صدفة في الكون؛ فمقاليد كل شيءٍ بيده تعالى، وكلّ شيء خَلَقَه بقدر، وإنما يتحقق في أوانه بمشيئته وقدرته ﷻ، وإرادتنا شرط عاديّ لا غير، فليوجِّه العبدُ إرادته إلى الخير، وليستعملها فيه دائمًا؛ إذًا فما ينبغي التشاؤم عند تقييم ما حلَّ بنا من مصائب، وينبغي تفريج ستائر الخير التي تتوارى خلفها، ومواصلة صلتنا بالله بتوجيه إرادتنا نحو الخير دائمًا.

٣- هذا تقييم شخصي لا يُدركُه من لم يُعايروا صلتهم الروحية بالله عيارًا دقيقًا، بل قد يعترضون عليه لكونه ليس موضوعيًّا، وقد تودي المصائب السماوية والأرضية بحياة الشيوخ والأطفال والنساء الأبرياء، فلنقل: إن هؤلاء حالوا دون وقوع المصائب الأكبر كأنهم مانعة الصواعق.

ومثل هذا الفقه لا ينكشف إلا لِلَّدُنّيين وأهل الله، فهم أهل هذا المقام: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ (سُورَةُ الصَّافَّاتِ: ١٠٣/٣٧)، وكأنهم يمدون أعناقهم للحق تعالى وكأنها كبش فداء مثلما فعل إسماعيل عليه السلام وقال: ﴿افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ (سُورَةُ الصَّافَّاتِ: ١٠٢/٣٧)، أو كما قال الشاعر "نسيمي":

إنني لك عاشق، وعنك لن أستغني
وإنْ بخنجر طعنتَ قلبي فعنك لن أستغني
وإن شقُّوني كزكريا نصفينِ
وإن وضعوا المنشار على مفرق رأسي فعنك لن أستغني

وإن أحرقوا جسدي، وجففوا في النار رفاتي
وذَرَّوا تراب جثتي فعنك لن أستغني

إنَّ من يُقتلون بيد الإرهاب هم أهلنا، وما يحدث لا يضرّ أحدًا سوانا، فيلحق بنا كل الضرر حيث الأموات من الناشئة والرجال والنساء واليتامى والأرامل والمنازل المهدمة والبلاد الخربة والأراضي المهجورة، فنموت حسرةً على كل هذا ونكتوي ألمًا، وتفيض أعيننا دمعًا كل يوم؛ لكنني أظن أن لهذه الحوادث وظيفة الموانع من الكوارث العظمى. أجل، يُخيّل إليّ أن تلك المنظمةَ الإرهابية التي نُعاني منها الآن تشبه مانعًا يحول دون حربٍ محتملةٍ مع اليونان وسوريا لتأجّج عواملها باستمرارٍ.

والحاصلُ أنَّ المصيبة الصغيرة سدٌّ يحول دون مصيبة أكبر، والهيلانات الصغيرة تحذيرٌ من هيلانات أكبر.

ما وراء جرائم القتل

سؤال: حوادثُ قتلِ المشهورين والمعروفين إعلاميًّا في بلدنا تُلتصق عادةً بالمسلمين، فما تفسيركم لهذه المسألة؟

بادئ الأمر أؤكّد ما جاء في السـؤال، فثمّة مشـاهير وشخصيات بـارزة في الصحافة والإعلام مثل "بحريّة أُوجُـوقْ (*Bahriye Üçok*)"، و"طُـورَانْ دُرْسُـونْ (*Turan Dursun*)"، و"أُوغُـورْ مُومْجُـو (*Uğur Mumcu*)" راحتْ ضحيةً لجرائم مجهولة الفاعل، أُلصقت بالمسلمين نظـرًا لهويـات المجني عليهم[١٠٨]، ثم صار المسـلمون هم القتلة في

(١٠٨) "بحريّة أُوجُوقْ" (١٩١٩-١٩٩٠م): مؤرخة وسياسية تركية، تبنت بعض المزاعم المناهضة للإسلام في تركيا مثل "عدم فرض الإسلام للحجاب والصيام" وقد أثارت تصريحاتها بهذا الشأن ردود فعل العامة، وصرحت بأنها تعرضت للعديد من التهديدات، وقد لقيت حتفها في السادس من أكتوبر/تشرين الأول (١٩٩٠م) نتيجة لانفجار عبوة ناسفة، وقد تبنت العملية جماعة تدعى "الحركة الإسلامية"، بيد أنه ظهرت بعد ذلك علاقة الحادث ببعض المنظمات الإرهابية المعادية للإسلام.

"طُورَانْ دُرْسُونْ" (١٩٣٤-١٩٩٠م): كاتب ومفكر تركي وإمام ومشرف في دائرة الشؤون الدينية سابقًا، ولد عام (١٩٣٤م) لعائلة جعفرية تابعة لمذهب الإمامية الاثنى عشرية، قام بنقد الإسلام والنبي ﷺ بشكل حاد في الكتب التي ألفها، وفي فترة اشتغاله بوظيفة مشرف في دائرة الشؤون الدينية ألحد واستقال من منصبه، ولقي مصرعه جراء تعرضه لعملية اغتيال أمام منزله في الرابع من سبتمبر/أيلول (١٩٩٠م) وتبنى العملية جماعة تدعى "الحركة الإسلامية".

"أُوغُورْ مُومْجُو" (١٩٤٢-١٩٩٣م): كاتب وصحفي وباحث تركي، كتب العديد من المقالات في مختلف الصحف اليسارية، وقد لقي مصرعه إثر عملية اغتيال بانفجار قنبلة بلاستيكية، علمًا بأنه قام بأبحاث ذات بُعد عميق عن شبكة مشبوهة تضم بعض رجال الشرطة وبعض السياسيين إلى جانب عصابات المافيا قبل أن يتم اغتياله، كما كان له العديد من الكتب والمقالات تدور حول تهريب السلاح ومحاولة اغتيال البابا ومنظمة "حزب العمال الكردستاني (*PKK*)" وبعض المنظمات الاستخباراتية، وقد تبنى عملية اغتياله "الحركة الإسلامية" و"جبهة تيارات الشرق الأكبر الإسلامية" و"حزب الله".

تلك الحوادث المقيتة، إذ سارعت وسائل الإعلام دون أن تدقّق في الأحداث وتحلّلها بإصدار الأحكام مستبقةً كشفَ حُجُب الأسرار التي من شأنها أن تبين لماذا وقع ما وقع، علمًا أن أجهزة الدولة المسؤولة تعلم أن المسلمين بُرآء من تلك الجرائم.

قُتل هؤلاء بأيادٍ محترفةٍ تدرَّبَتْ في منظمات استخبارية عالمية -لن أسمّيَها-، ولم يدَوِّن التاريخُ عن المجرم الحقيقي شيئًا، وهذا يشير إلى أنه مدعومٌ من دولٍ ومؤسسات لا قِبَل للدولة ذاتها بمواجهتها، أو أن هذه المؤسسات هي من خططت ونَفّذت.

إذًا لو قيل: لماذا تلصق تلك الجرائم المجهولة الفاعل بالمسلمين دون غيرهم، فالجواب:

١- هناك عامل مهمّ في توجيه ذلك الاتهام، إنه إثارة أجواء إرهابية تُلصَق بالمسلمين لزعزعة الثقة فيهم وإضعاف دورهم، وهذه الثقة وهذا الدور انكشف جليًّا في هذه الفترة؛ فمنهم من يخطط ليحول دون التوجه إلى الإسلام بعد أن تقبَّلَه العامَّةُ والنخبةُ معًا.

٢- باعثٌ آخَر للاتّهام، إنّه دعوة الجيش للانقلاب تحت سِتَار تلك الحوادث، وفي تاريخ تركيا المعاصر ما يدلُّ أنّ مثلَ هذه النوعية من الاضطرابات المفتعلة سبقت انقلابات ١٩٦٠م، و١٩٧١م، و١٩٨٠م، وأنّ من لا يريدون نموّ بلدنا وتطورها هُم من خطّطَ.

٣- يصعبُ بل يستحيل إثبات أن هذه الجرائم المجهولةَ الفاعلِ لم يرتكبها مسلمون؛ لأنّ المعدوم يستحيل إثباته، لذا علينا -نحن

المسلمينَ- أن نؤكِّد أننا دائمًا مع أمتنا ودولتنا، وأن نتحدث عن رؤيتنا هذه في كلّ فرصة وساحة؛ فسيَخْتَبِرُنا الشعبُ والمسؤولون عشر سنوات أو عشرين، ويراقبوننا عن كَثَب، وإذا انتهت هذه الرقابة الطويلة إلى أنه لم يصدر عنا أي فعل أو بيان ضد الوطن والأمة فسيصدِّقوننا ويتقبَّلوننا، وأنا متفائل بهذا؛ واليوم مهما وُصف المسلمون وعُرِّفوا بأنهم مجرمون محتمَلون فإن الشعبَ عامةً والمسؤولين والمثقفين خاصّةً سيتجاوزون -إن شاء الله- تلك العقَبات، فتبطل تلك الحيل التي تقف وراءها بعض المنظمات الاستخباراتية العالمية وبعض الدول العظمى، ويستحيل قطعًا تحقيقُ آمالهم.

٤- والآن إليكم النقطة التي هي أساس الجواب: فلا إرهاب في الإسلام، والإرهابي لا يمكن أن يكون مسلمًا، والمسلم لا يمكن أن يكون إرهابيًّا. أجل، إنّ للمسلم غايةً واحدةً وحيدةً على منوالها ينسج أفكاره وأعماله كلّها في حياته، ويرسم خططها ويدوّنها ليبلغها، فما هي إلا رضا الله فحسب، ولا شيء سواه.

أجل، لو أن المسلم فهم الإسلام حقَّ الفهم فعليه ألا يفكّر إلا في رضا الله تعالى، وألا يتعلق بسواه ولو الجنةَ ونعيمَها من وجهٍ ما، فمِن أنفس ما قيل: "إنَّ مَن يعبدون الله للجنة وثمراتها الأخروية هم "عبيد اللذة" و"عبيد الجنة"، والمؤمن الحق يذهب مذهب يونس أمره:

حدَّثوني عن جنان

هي الحور والقصور والغلمان

هَبْهَا إلهي لمن يَشَاء

فأنتَ أنتَ الغاية العلياء

نقطة مهمة: بينما يسير المسلم نحو هذا الهدف المبارك السامي يجب عليه أن يتحقق من مشروعية الوسائل والسبل المؤدية إليه؛ لأنَّ غايةً عظمى كهذه لا تُنال إلا بالوسائل المشروعة، ويستحيل بلوغها بالصياح والهتاف في الشوارع، أو بقتل البشر أيًّا كانوا، فلا يمكن الجمع بين الإرهاب والقتل والغصب والخطف وغيرها وبين الإسلام، أي يستحيل السير في هذا الطريق بقتل الناس؛ لذلك قررنا ابتداءً: "الإرهابي لا يمكن أن يكون مسلمًا، والمسلم يستحيل أن يكون إرهابيًّا".

أجل، إنّ قتل النفس يَعدِلُ الشرك بالله عند ابن عباس رضي الله عنهما[١٠٩]، والقاتل ظلمًا يخلد في جهنم أبدًا عند بعضهم[١١٠]، أي لن تُقبل توبته أبدًا؛ ولا موضع في العقيدة الإسلامية لما تخلفه مصيبتنا الكبرى اليوم الإرهاب: الأبرياء يُقتلون باستمرار، وتهدم المنازل والدور، وتُرمّل النساءُ، ويُيتّمُ الأطفال فلا أحد يعولهم، يقول الإمام النورسي رحمه الله في شرحه لأصول العدالة في الإسلام: "لو اجتمع في مكان واحد شخصٌ بريء وعشرةُ جُناة استوجبوا الموت، وكان في القصاص

(١٠٩) صحيح البخاري، تفسير القرآن، ٢٥؛ صحيح مسلم، التفسير، ١٦-٢٠.

(١١٠) صحيح مسلم، التفسير، ١٧-١٩؛ الطبري: جامع البيان، ٩/٥٧-٦٩.

منهـم ضرر قد يلحق بالبريء لَعُدّ القصـاص هنا جريمة"[١١١]. أجل، يتعين في مفهوم العدالة المطلقة أن يكون الأمر هكذا.

ويمتنـع أن نتذرّع بقاعدة "يُرتكب أخف الضررين لدفـع أشدهما" من أجل القضاء على وجود من لا نشـك في عداوتهم للإسـلام، أما تضحية الفرد بنفسـه في ساحة الحرب لمصلحة دينه ووطنه باختياره هو فهذا شيء آخر، فهذا مستثنى من القاعدة؛ لأنّ الأصل أن الإسلامَ يحرّم الانتحار مطلقًا.

والحاصل أنه يستحيل الجمـع بين الإرهاب والإسلام، فالمسلم الذي جعل رضا الله تعالى غايته لا يمكن أن يقتل أيّ إنسان أيًّا كان، ولـو كان يهـدف من ذلـك تمثيل الإسـلام على مسـتوى الدولة، أو أن تكـون دولتـه قدوةً لدول العالم كلهـا، أو أن تتبوأ مكانةً مهمّةً في التـوازن العالمـي، أو إن كان يقصد رضا ربه كالمحافظة على حقوق المسلمين لكن بوسائل غير مشروعة... كل هذا لا يبرّر القتل أبدًا.

والحاصل أقول مجددًا: إن الإرهابي لا يمكن أن يكون مسـلمًا، والمسلم محالٌ أن يكون إرهابيًّا".

(١١١) بديع الزمان سعيد النُورْسِي: **المكتوبات**، المكتوب الثاني والعشرون، المبحث الأول، ص ٣٢٠.

مصادر

أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (ت: ٢٧٥هـ)؛ **سنن أبي داود**؛ (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٣) سنن أبن داود؛ دار السلام، رياض.

أبو الشيخ الأصبهاني، أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأنصاري (ت: ٣٦٩هـ)؛ **العظمة**؛ تحقيق: رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري؛ دار العاصمة، الرياض، ١-٥، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

أبو نعيم، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (ت: ٤٣٠هـ)؛ **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**؛ السعادة - مصر، ١-١٠، الطبعة الأولى، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م. [ثم صورتها عدة دور منها: ١- دار الكتاب العربي - بيروت، ٢- دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، ٣- دار الكتب العلمية- بيروت (طبعة ١٤٠٩هـ بدون تحقيق)].

ابن أبي شيبة، أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (ت: ٢٣٥هـ)؛ **مصنف ابن أبي شيبة**؛ تحقيق: كمال يوسف الحوت؛ مكتبة الرشد، الرياض، ١-٧، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين (ت: ٦٣٠هـ)؛ **أسد الغابة في معرفة الصحابة**؛ تحقيق: علي محمد البجاوي؛ دار الكتب العلمية، بيروت، ١-٨، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

ابــن ماجــه، أبو عبد الله محمــد بن يزيد القزوينــي، (ت: ٢٧٣هـ)؛ **ســنن ابن ماجه** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٦)؛ دار السلام، رياض.

ابن كثير، أبو الفداء إسـماعيل بن عمر بن كثير القرشـي البصري ثم الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ)؛ **البداية والنهاية**؛ دار الفكر، ١-١٥، ١٤٠٧ هـ/١٩٨٦م.

ــــــــ، **تفسـير القرآن العظيم**؛ تحقيق: محمد حسـين شـمس الديـن؛ دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون - بيروت، ١-٩، الطبعة الأولى، ١٤١٩ه/١٩٩٩م

ابن عســاكر، أبو القاســم علي بن الحســن بن هبة الله (ت: ٥٧١هـ)؛ **تاريخ دمشق**؛ تحقيـق: عمـرو بـن غرامة العمـروي؛ دار الفكـر، ١-٨٠، الطبعة الأولـى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

ابـن هشـام، عبـد الملك بن هشـام بـن أيـوب الحميـري المعافري، أبـو محمد، جمـال الديـن (ت: ٢١٣هـ)؛ **السـيرة النبوية**؛ تحقيق: مصطفى السـقا وإبراهيم الأبياري وعبـد الحفيظ الشـلبي؛ شـركة مكتبـة ومطبعـة مصطفى البابـي، ١-٢، الطبعـة الثانية، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م.

أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني؛ **مسند الإمام أحمد بن حنبل**؛ تحقيق: شـعيب الأرنؤوط - عادل مرشـد، وآخرون؛ مؤسسة الرسـالة، ١-٤٥، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

الإمـام مالـك، مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحـي المدني (ت: ١٧٩هـ)؛ **الموطأ**؛ تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي؛ مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان، أبو ظبي، الإمارات، ١-٨، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤ م.

البـزار، أبـو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي (ت: ٢٩٢هـ)؛ **مسند البزار**؛ تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله (من ١ إلى ٩) وعادل بن سعد (مـن ١٠ إلــى ١٧) وصبري عبد الخالق الشـافعي (١٨)؛ مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ١-١٨، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.

البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقـي (ت: ٤٥٨هـ)؛ **دلائل النبـوة**؛ تحقيق: الدكتور عبد المعطي قلعجي؛ دار الكتب العملية-دار الريان للتراث، ١-٧، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

ـــــــ، **شـعب الإيمـان**؛ تحقيـق: عبـد العلي عبـد الحميد حامد؛ مكتبة الرشـد، الرياض، ١-١٤، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.

البخاري، محمد بن إسـماعيل أبو عبـدالله البخاري الجعفي (ت: ٢٥٦هـ/٨٧٠م)؛ **صحيح البخاري** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-١)؛ دار السلام، رياض.

الديلمي، شيرويه بن شهردار بن شيرو يه بن فناخسو، أبو شجاع الديلمي الهمذاني (ت: ٥٠٩هـ)؛ **الفردوس بمأثور الخطاب** (مسند الفردوس)؛ تحقيق: السعيد بن بسيوني زغلول؛ دار الكتب العلمية، بيروت، ١-٥، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

الواقدي، محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي بالولاء، المدني، أبو عبد الله، الواقـدي (ت: ٢٠٧هـ)؛ **المغـازي**؛ تحقيق: مارسـدن جونس؛ دار الأعلمـي، بيروت ، ١-٣، الطبعة الثانية، ١٤٠٩ه/١٩٨٩م .

الحاكـم، أبـو عبـد الله الحاكـم محمد بن عبـد الله بن محمد بن حمدويـه بن نُعيم بـن الحكـم الضبي الطهماني النيسـابوري (ت: ٤٠٥هـ)؛ **المسـتدرك على الصحيحين**؛ تحقيـق: مصطفـى عبد القادر عطـا؛ دار الكتب العلمية، بيـروت، ١-٤، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

الطبرانـي، سـليمان بـن أحمد بـن أيوب بـن مطير اللخمي الشـامي، أبو القاسـم (ت: ٣٦٠هـ)؛ **المعجم الصغير**؛ تحقيق: محمد شـكور محمـود الحاج أمرير؛ المكتب الإسلامي، دار عمار، بيروت، ١-٢، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

ـــــــ، **المعجم الأوسـط**؛ تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسـن بن إبراهيم الحسيني؛ دار الحرمين، القاهرة.

ـــــــــ، **المعجم الكبير**؛ تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي؛ مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١-٢٥، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت: ٣١٠هـ)؛ **جامع البيان في تأويل القرآن**؛ تحقيق: أحمد محمد شاكر؛ مؤسسة الرسالة، ١-٢٤، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (ت: ٤٥٠هـ)؛ **أعلام النبوة**؛ دار ومكتبة الهلال - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ)؛ **صحيح مسلم** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٢)؛ دار السلام، رياض.

النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني (ت: ٣٠٣هـ)؛ **السنن الكبرى**؛ تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي؛ مؤسسة الرسالة، بيروت ، ١-١٠، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

سهيل صابان: **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض - ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

سعيد النُّورْسِي، بديع الزمان (ت: ١٩٦٠م)؛ من كليات رسائل النور: **الكلمات**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، الطبعة الثانية، ١٤٣٢ه/٢٠١١م.

ـــــــــ، من كليات رسائل النور: **المكتوبات**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، الطبعة الثانية، ١٤٣٢ه/٢٠١١م.

ـــــــــ، من كليات رسائل النور: **اللمعات**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، الطبعة الثانية، ١٤٣٢ه/٢٠١١م.

ـــــــــ، من كليات رسائل النور: **الشعاعات**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، الطبعة الثانية، ١٤٣٢ه/٢٠١١م.

ـــــــ، مـن كليـات رسـائل النـور: **المثنـوي العربي النـوري**؛ دار النيـل للطباعة والنشر، إسطنبول، الطبعة الثانية، ١٤٣٢ه/٢٠١١م.

ـــــــ، مـن كليات رسـائل النور: **إشـارات الإعجاز في مَظَـانِّ الإيجاز**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، الطبعة الثانية، ١٤٣٢ه/٢٠١١م.

ـــــــ، من كليات رسائل النور: **سيرة ذاتية**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، الطبعة الثانية، ١٤٣٢ه/٢٠١١م.

ـــــــ، من كليات رسـائل النور: **الملاحق**؛ دار النيل للطباعة والنشـر، إسطنبول، الطبعة الثانية، ١٤٣٢ه/٢٠١١م.

القضاعـي، أبو عبد الله محمد بن سـلامة بن جعفـر بن علي بن حكمون القضاعي المصـري (ت: ٤٥٤هـ)؛ **مسـند الشـهاب**؛ تحقيـق: حمدي بـن عبد المجيد السـلفي؛ مؤسسة الرسالة، بيروت ، ١-٢، الطبعة الأولى، ١٤٠٧ه/١٩٨٦.

الترمـذي، محمـد بـن عيسـى أبو عيسـى الترمذي السـلمي (ت: ٢٧٩هـ)؛ **جامع الترمذي** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٤)؛ دار السلام، رياض.

Fethullah Gülen, *Çağ ve Nesil-4,* ***Zamanın Altın Dilimi****, Nil Publishing, 2012- İstanbul.*